مـــاريـــا

مـــاريـــا

روايـــة

فاتن عبد الرؤف

مـاريـــا

اسم الكاتب: فاتن عبدالرؤف
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: فارس حسن
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2019 / 2203

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

سيظل الوطن جميل رغم قسوته، وستظل الغربة قاسية رغم جمالها
فلا وطن فى الغربة ولا غربة فى الوطن

فاتن عبد الرؤف

(١)
"ماريا"

يوم شديد الحرارة وكأن الشمس تعانق المشاة فى الطريق صرخات إستغاثة عالية لاهثة ،طلقات رصاص، أشخاص يركضون فى هلع وصوتا ينادى بذعر: أركضي يا ماريا أركضي.

ثم بدأ هذا الصوت فى التلاشي رويداً رويداً وبدأ يخالطه صوت آخر حنون، يسحبها من ذالك المكان المرعب الذى يحاوطه الموت من كل جهة، صوتاً ينادى عليها برفق: إستيقظى يا ماريا.

لم يكن هذا الصوت سوى صوت أم ماريا فاستيقظت مفزوعة متلاحقة الأنفاس كأن شيء مخيف يركض ورائها، فجلست والدتها بجوارها على السرير وهي تقول: هل راودك ذلك الكابوس مرة أخرى؟

- هزت ماريا رأسها في خوف وهي تنظر في كل مكان بعيون زائغة ثم وضعت رأسها فى حضن والدتها وكأنها تختبئ من ذلك الكابوس المرعب، فوضعت والدتها يدها على رأسها وهى تدعو لها: حماك الله يا صغيرتى.

- فقالت لها بصوت حزين: إنهضى عزيزتى اغسلى وجهك بينما أحضر الفطور فوالدك يريد ان يتحدث معك فى موضوع مهم.

نظرت ماريا إليها بعيون مليئة بالاسئلة، فأشاحت والدتها بنظرها بعيداً عنها وهي تقول في ارتباك: حسنا عزيزتي بضع دقائق وأجهز الفطور

ربما فهمت ماريا من صوت والدتها وارتباكها ما يريد والدها ان يتحدث معها بشأنه، فوالدتها لا ترتبك بهذا الشكل إلا إذا كان الموضوع متعلقا بأمر واحد!!

-زفرت فى ضيق وهى تقول: يا إلهى أيعقل أن يحدث هذا؟!

جلست الاسرة على مائدة الطعام فى صمت مطبق يكاد يسفر عن عاصفة قادمة ينظر والد ماريا ،ووالدتها الى بعضهما بنظرات حزينة حائرة بينما أخيها الأصغر (على) لا يبالى بشىء بل يأكل بأستعجال ليلحق أتوبيس مدرسته، حاولت ماريا تجاهل الأمر بل كانت تدعو الله أن تكون شكوكها فى غير محلها.

-إلا أن والدها قال بصوت متردد مرتبك،وكأنه أراد أن يكسر هذا الصمت الذى بدى غريبا بعض الشىء وخاصة فى وجود على: ماريا أريد أن اتحدث معك ، فنظرت ماريا إليه نظرة توحى بأنها فهمت ما يريد أن يقوله ،ثم قالت: تفضل يا أبى.

- أعلم جيدا عزيزتى أن هذا الأمر سوف يزعجك،ولكن ليس باليد حلية وهذه هى طبيعة عملى التى لا يمكن تجاهلها.

- نظرت إليه ماريا فى صمت وحزن وبدا الأمر وكأنها تسترجع ذكريات حادث مؤلم، وبعد صمت طويل قالت فى يأس : إلى أي بلد هذه المرة؟

فأجابها فى تردد: أمريكا.

-إتسعت حدقت عينيها فى غير تصديق، وهى تحدث نفسها هذا ما كان ينقصنى أمريكا!

لطالما كرهت ماريا تلك الحقيقة التى أرقتها منذ طفولتها وهى طبيعة عمل والدها التى تحتم عليه التنقل من فترة إلى أخرى فى بلاد العالم فوالدها كدبلوماسى لا يملك من الأمر شئا.

عندما كانت طفلة أرهقها هذا الأمر فالأطفال دائمى التعلق بالأشخاص،فكلما تعلقت بشخص ما وأحبته فارقته و إنتقلت إلى بلد أخرى وسط دموع الفراق البريئه تاركة ورائها ذكريات كثيرة وصدقات لم تكمل بعد،وهذا الأمر جعلها تميل إلى الانطواء والإنكفاء على ذاتها ربما هذا هو

الحل المثالى بالنسبة لها فلا تؤلمها الذكريات ولا يرهقها الفراق فالأفضل ان يتجول الانسان بلا هوية أو ذكريات وطالما أنها تشبه الطائر الشريد فلا داعى للذكريات التى تقيدنا وتجعلنا نشتاق ونعود بقلوبنا للوراء نتذكر نحن فتكون الذكريات مثل حلم جميل يراودنا من حين الى آخر فلا نستطيع ان نحققه، او مثل كابوس مرعب لا نستطيع التخلص منه

ولكنها الآن شعرت بالإستقرار أخيرا بمسقط رأسها مصر وسط أناس يبشبهونها تماما يتحدثون مثلها يتشاركون نفس العادات والتقاليد البشر دائما يبحثون عمن يشبهم يشعرون بالآمان فقط بجانبهم ،لكن الله قدر الاختلاف بيننا جميعا فلا احد يشبة احد وتلك هى سنة الحياة لكن ان تعيش ببلادك وسط احبائك وعائلتك تلك نعمة لن يقدر قيمتها سوى الذى ترك وطنه ذات يوم واضطرته الظروف ليكون مواطن فى وطن ليس بوطنه' فالوطن هو المكان الوحيد الذى مهما ساءت الأحوال لن يلفظك هو مثل الأم الحنون التى من الممكن أن تضطرها الظروف الى القسوة على ابنائها ولكن لا يمكن ان تأذيهم أو تكرهيهم.

كانت ماريا دائما تحلم بأن تكون إحدى أبناء مصر البرره لذلك على الرغم من تفوهقها فى الثانوية العامة إلا أنها قررت ألأ تحزو حزو والدها وتدخل كلية السياسة والإقتصاد بل فضلت أن تدرس القانون ربما يتيح لها القدر فرصة الدفاع عن قضايا الوطن فهى قرأت التاريخ جيدا ووجدت أن الزعماء الذين دافعوا عن مصر كان معظمهم من دارسى القانون امثلة سعد زغلول ومصطفى كامل ،مصطفى كامل ذلك الشاب العشرينى الذى قلب العالم رأسا على عقب ضد الاحتلال البريطانى لشد ما أرادت ان تكون مثله لكن الاحتلال فى هذه الايام اشد وطأه من الإحتلال البريطانى لانه ليس احتلال غريب علينا فإحتلالنا هو انفسنا الضعيفة. وعلى هذا فقد انضمت

الى كلية الحقوق جامعة القاهرة على الرغم من صدمتها بالواقع الدراسى وان كلية الحقوق مجرد كليه لا يتخرج منها زعماء بل اشخاص عاديون يتم حشو ادمغتهم بكلام فارغ وكل هدفهم هو النجاح لا التعلم إلا انها لم تيأس على الاطلاق بل أرادت ان تكون هى الاستثناء الذى يطيح بكل قواعد هذه الكلية فكانت تدرس بجد حتى أصبحت الأولى على دفعتها على مدار سنوات الجامعة الاربع فإقتربت رويدا رويدا من حلمها لكى تكون ضمن اعضاء هيئة التدريس ربما تتاح لها الفرصة بأن تساهم فى جعل هذه الكلية تخرج زعماء يساهمون فى تنمية البلد بدلا من تنميتهم للمقاهى وان ينهضون بها بدلا من انهاض فاتورة اصحاب المقاهى .

وما إن جاءها جواب تعينها اقترن بتذكرت سفرها الى بلاد لا تشبهها .

كان من الممكن ان يكون الخبر بالنسبة لها عاديا رغم مرارته اذا كانت الدولة التى ستذهب اليها عربية على الاقل هناك قواسم مشتركة بينهم كالدين واللغة وبعض العادات والتقاليد ،لكن دوله اجنبية؟! وايضا امريكا التى لطالما كرهت سياستها وتاريخها الدامى القائم على جثث ألابرياء!!

جاء اليوم الذى ستذهب فيه إلى امريكا ثقيل الظل أثقل من الحجر الذى وضعه المشركون على صدر بلال وفى الحقيقة لم تكن ماريا الأشد حزنا لهذا الرحيل لم تكن هى الأشد كرها للغربة بل كانت والدتها التى إفتعلت الإبتسام والضحك حتى لا تثقل قلب إبنتها أكثر من اللازم لكنها فى الحقيقة ممزقة القلب مثقلة الكاهل تقوم بتغليف الأثاث ليس خوفا عليه من التلف بل خوفا على ذكرياتها من الضياع.

تنظر إلى كل مكان فى البيت كأنها تسترجع كل ذكرى حدثت به تلامس الجدران كأنها تقول لها ارجوك أوقفينى تشبثى بى أقسمى على الا أذهب .

أحيانا تأسرنا الأماكن تحاوطنا تعانقنا هنا ضحكنا وهنا بكينا وهنا إلتقينا اول مرة وهنا إفترقنا هنا تشاجرنا وهنا تصالحنا هنا حدث شيء لا ينسى هنا حدث شيء نتمنى أن ننساه هنا وهنا نحن عبارة عن اماكن متنقلة أماكن مليئة بالذكريات الفرحة والمؤلمة.

هيا بنا: جاء صوت والد ماريا بلإنذار الاخير

فمسحت والدتها عيونها المغرورقة بالدموع لتسفر عن إبتسامة زائفة :حسنا يا عزيزى فلنذهب.

وصلوا الى المطار ثم ركبوا الطائرة التى همت بالاقلاع على الفور تاركة ماريا تنظر من نافذتها وهى تحلق عاليا بعيدا عن مصر مرددة بينها وبين نفسها: لا بأس إذا كانت هذه إرادة الله.

بعد الكثير من الساعات التى لا تدرى ماريا إن كانت مرت سريعة أم بطيئة سمعت مضيفة الطيران وهى تقول بحزم: (برجاء ربط الاحزمة سوف تهبط الطائرة فى مطار(جون إف كينيدى الدولى) تلك الجملة التى سمعتها فى العديد من الافلام وكانت تطرب آذانها لانها كانت تنم عن لقاء حبيب بمحبوبته او رجلا بعائلته او شابا بأحلامه فى بلاد يظن انها الافضل كما انها كانت تنم ايضا عن الفراق الذى تتخلله المشاعر الصادقة والقلوب المشتاقة مع وعدا ابديا باللقاء مرة اخرى.تلك الجمله اصبحت ثقيلة على آذانها.

مطار جون إف كيندى:هو مطار دولى يقع فى مقاطعة كوينز جنوب غرب مدينة نيويورك،سمى بهذا الإسم فى سنة ١٩٦٣ تكريما للرئيس الأمريكى الراحل"جون كيندى"

هبطت الطائرة فى ذلك اليوم من شتاء ٢٠٠٧معلنة وصول ماريا إلى وجهة لا تريدها مطلقا إذا كان الأمر بيدها لضربت بكل أنواع الغربة عرض الحائط لأخرجت قرار ينص على تحريم ترك الوطن نهائيا لكن هاهى تقع فريسة للغربة هذا الشعور يقتلها وخاصة ان السفر أتى فى وقت بدأت فيه اقدامها فى الرسوخ وبدأت تظهر معالم مستقبلها ،هى حقا لا تريد السفر والعيش داخل ارض لا تشبهها ولا تريدها ،فقد سببت لها الغربة جروح لا تلتئم وكابوس يأكل روحها كل يوم .

لذا كانت مشاعر ماريا تجاه المطار متضاربة فقد أحبته كثيرا ،كما أنها كرهته بشدة فقد كان بالنسبة لها رمز اللقاء والفراق فى الوقت ذاته إما ان يفترق على اعتابه العشاق ويكون هو الشرير الذى يباعد بينهم أو انه يلعب دور الملاك الحارس الذى يجمع العشاق وتكون طائرته البساط السحرى الذى يلتهم المسافات ويجتاح البلاد ويحطم الحواجز التى تحول دون لقائهم واعدا اياهم انه لا مزيد من الفراق وأن الفراق يحمل بداخله وعدا باللقاء وأن هذا اللقاء لن يحدث إلا على ارضه لذا دائما ارض المطار تقف شاهدا على قصة حبا لم تكتمل بعد او على قصة حبا آن لها أن تكتمل يقف شاهدا على دموع الحزن والفرح التى تغرق أرضه يقف شاهدا على عناق المئة عام الذى لا يستمر أكثر من دقيقة والأيادى المتشابكة التى تعانق بعضها البعض يقف شاهدا على تحطيم الاحلام او تحقيقها.

اخرج ماريا من هواجسها صوت أبيها وهو يطلب لهم سيارة أجرة لكى تنقلهم إلى بيتهم الجديد،وضع السائق جميع الحقائب فى شنطة السيارة وركبوا جميعا السيارة وكل غاص فى ملكوته إلا ماريا فكانت مشغولة بهم ظلت تراقب كل فردا منها أرادة ان تلمسهم بعينيها حتى تتأكد أنهم بجوارها لن يتركوها ابدا فوجدت والدها كعادته التى حقا لن تتغير هو قرأءة جرائد الصباح الذى إشتراها من أحد بائعى الجرائد فى طريق المطارفلا فرق لديه إن كان ذلك فى وسيلة مواصلات ام فى البيت ولافرق لديه حتى إن كانت جرائد مصرية أم أمريكية ،فدائما ما كان يقول لها:إنه من العبث يابنتى أن نعيش فى مجتمع لا نكون على دراية بما يجرى فيه،أما والدتها فغاصت فى نوم عميق سرعان ما ركبت السيارة ويبقى مشاكس العائلة الشقى المدلل اخوها الأصغر "على"فنظرت اليه نظرة طويلة بأبتسامة تعلو وجهها عندما رأته مخرجا رأسة من نافذة السيارة ينظر إلى البلد الجديد الذى تأهب لاستقباله،لم يكن جو أمريكا جميلا بقدر غرابته بالنسبة لها فقد كان الجو شديد البرودة والثلوج تغطى جانبى الطريق،حيث أن ولاية نيويورك يكون جوها شديد البرودة تتساقط الأمطاروالثلوج وخاصة فى هذا الشهر(شهرديسمبر)من كل عام

وها هى تطىء بقدميها فى أمريكا او بالأخص مدينة نيويورك هذه المدينة الجميلة المبنكوبة لا يخفى على احد احداث الحادى والعشرون من سبتمر وما لحق بالمدينة من خسائرجسيمة مازال المسلمون يدفعون ثمنها حتى الآن، حاولت ماريا طرد الافكار السلبية من رأسها محاولة الاستماع بجمال المناظر الخلابة والمبانى الشاهقة لذا راقبت اخيها الشقى الذى تبدو على ملامحه البلاه والدهشة ينظر الى المعالم كطفلا ينظر الى لعبة غاية فى الجمال اشتراها له والده كى يفاجئه ،وفى الحقيقة لديه كل الحق فى ذلك، فقد كان كل شىء بهى الطلة جميل وهادىء فلا وجود لازدحام الشوارع ولاللقمامة التى إتخذت

حيزا من حياة البشر ولا وجود ايضا لتلك الوجوة التى ارتسم الحزن والخوف عليها فتجرى بلا هوادة بحثا عن لقمة العيش او خوفا من المجهول ذلك المجهول الذى يؤرق اصحابه ويجعلهم لا ينامون بسلام خوفا من ان يأتى غدا ولا يجدون ما يملء بطونهم او خوفا من أن يأتى العيد ولا يجيدون ما يكسى ابدانهم يصرخون كل يوما فى الزحام حتى يلحقون اعمالهم خوفا من ان يخصم من مرتبهم الذى لا يكفيهم حتى منتصف الشهر ،يقفون فى طابور ليس له نهاية لكى يحصلوا على بعضة ارغفة ،يجاهدون فى المصالح الحكومية لانهاء ورقة مهمة لاحد ابنائهم فيظلون منتظرين دهرا كاملا ثم يموتون من المرض لانهم لم يجدوا ثمن الدواء. لكن لا وجود لهؤلاء فى هذا المكان فقد استبدلت الوجوه الخائفة بوجهوه مسترخية هادئة لا تحمل هم ولا يغزوها قلق.

نظرت اليه وشردت بأفكارها وهى تقول ليتنى مثله اتوه فى المعالم السياحة الجميلة دون ان افكر فى تبعات الأمر.

-قطع على تفكيرها وهو يقول بصوت طفولى مندهش:ماريا ماريا أنظرى تمثال الحرية.

-فإبتسمت له وهى تقول :نعم انه تمثال الحرية وبما أنك تعرفه فسأختبر معلوماتك العامة قليلا.

-فأجابها على بذكاء ومشاكسة:وكيف لى أن أرهق نفسى بالبحث عن المعلومات العامة وأختى الكبيرة موسوعة متنقلة،فلتحك إذا لأخيك الصغير قصة هذا التمثال.

علمت ماريا منذ البداية انه يمكنها الأنتصار على العالم كله فى الكلام إلا أخيها الأصغر على فهى تعلم مدى ذكائه وكم المعلومات التى يعرفها فى هذا السن الصغير لذا فقد قبلت التحدى الغير معلن من اخيها الشقى ،الآن لابد

ان تسترجع كل المعلومات التى تعرفها عن امريكا وفى الوقت الحالى عن تمثال الحرية.

-فقالت له:حسنا أيها الشقى تمثال الحرية الذى يتربع على عرشه فى مانهتن بمدينة نيويورك ليس امريكى الاصل فقد اهدته فرنسا إلى امريكا لتوطيد العلاقة بين البلدين واحتفالا ايضا بإستقلال امريكا،وهذ التمثال عبارة عن سيدة تمسك فى يدها اليمنى شعلة ترمز للحرية وتمسك فى يدها اليسرى كتابا منقوش عليه ٤يوليو-١٧٧٦وهو تاريخ استقلال الولايات المتحدة الأمريكية كما ترتدى على رأسها تاج ذو سبع شعل يقال أنه يرمز إلى القارات السبع الموجودة بالعالم.....هذا كل ما أعرفه أو اتذكره الأن عن تمثال الحرية .

-نظر على إلى ماريا نظرة محملة بالعديد من الأسئلة ثم قال:لا معلوماتك ليست صحيحة.

-فنظرت إليه ماريا بإستغراب وهى تقول:كيف هذا ؟!اننى واثقة من صحة هذه المعلومات

-كنت أريد فقط معرفة تمثال الحرية الذى تعرفه ماريا فقط وليس ذلك التمثال الحجرى ذو الشعلة المضيئة الذى يعرفه العالم كله،لكن الآن دعينا نتعرف على بيتنا الجديد...

توقفت السيارة أمام أحد البيوت الكبيرة فى منطقة مانهاتن بمدينة نيويوك،هم كل من بالسيارة بالجروج وأيقظ على والدته من ثباتها ،لكن ماريا كانت فى عالم أخر لم تلحظ شيء كل ما كان يشغلها سؤال على ،فى ذلك الحين عادت بالذاكرة ثلاث سنوات فائته إلى ذلك المقال الذى كتبته لتقدم به فى مسابقة افضل مقال على مستوى الجامعة هو مقال عنوانه (فى بلاد الظلم لابد ان تتحول الحرية الى تمثال حجرى)كان فى هذا المقال هجوم حاد

على سياسة أمريكا والتى من وجهة نظرها سياسة دامية تقوم على جسس الأبرياء ونهب ما يمتلكون وأكثر البلاد التى وقعت فريسة لهذه السياسة الحقيرة هى البلاد العربية بلادها التى تحولت الى مرعى لفساد حكامها وبلاهة شعبها حكامها الذين لا يهتمون بشىء سوى ملء اكراشهم من اموال ليست من حقهم يمتصون دماء شعوبهم بلا رحمة يسرقون ثروات البلاد ويدعون فقرها إلى ان حولوا الشعوب إلى مجرد عبيد كل ما يهمهم هو البحث عن لقمة العيش ليسدون بها عواء بطونهم فلا يفكرون بشىء سوى هذا ،هذه هى السياسة التى تعيش حكامها فإذا اردت ان تحكم شعب ما فلا تجعله يتعلم ثم اجعله يجوع صدقنى هذه سياسة ناجحة.

فمثل حكام العرب كمثل سارق محترف تقصد سرقة أحد الموظفين عندما قبض مرتبه وعندما سنحت له الفرصة سرق محفظته التى تمثل له الحياة لشهر آخر،وعندما شعر الموظف بضياع محفظته،جلس على الرصيف يندب حظه ويقول بحزن:لم أعد أملك شئا حتى ثمن العودة إلى البيت،فسمع السارق نحيبه فيبدو أن قلبه رق فإقترب منه وأخرج المحفظه الذى سرقها منه لتوه وأعطاه أجرة المواصلات،فإعتبره الموظف ملاكه الحارس،فظل يدعو له بسداد الحال.

هذا هو حال بلادنا يسرق المسئولون خيراتنا،ثم يعطونا بعض الفتات هبة منهم فينصبهم الشعب أبطالا،وبلاد هذا حالها من اليسير جدا إحتلالها ليس فقط سياسيا أو إقتصاديا بل نفسيا ومعنويا وهذا ما فعلته أمريكا.

-قطعت والدتها شرودها عندما قالت،ماريا أخرجى من السيارة،لقد وصلنا الى وجهتنا عزيزتى.

إبتسمت ماريا ابتسامة تنم عن السخرية وهى تقول بصوت هامس:هل حقا هذه وجهتى؟!

-سمعها اخيها المشاكس فقال :ربما لا ولكنها بالتاكيد ستكون احدى المحطات التى ستصل بك الى وجهتك،ثم غمز لها بعينه اليمنى.

-أتدرى يا على هناك شىء آخر يريد أن يصل الى وجهته؟

-وماهو اذا يا أختى العزيزة؟

-فرفعت ماريا يدها فى وجهه وهى تقول هذه اليد

-فقاطع على كلامها وهو يقول ضاحكا:حسنا حسنا ربما من الأفضل لبعض الأشياء الأ تصل الى وجهتها.

عندما وصلوا الى منزلهم الجديد ،إقترب منهم رجل أربعينى ذو ملامح أجنبية شعر أصفر يميل الى الحمرة وبشرة بيضاء يتناثر عليها القليل من النمش وعيون خضراء مليئة بالمكر،كان ينظر الى ماريا نظرة متفحصة من أعلى رأسها إلى أسفل قدميها تلك النظرة جعلتها تنكمش على نفسها وتتحسس من هندام ملابسها فى ضجر.

ثم إقترب من والدها وقال: مرحبا بك سيدى، انا جاك جارك فى المنزل المجاورو هذا مفتاح المنزل كلفنى أحد السماسرة أن اعطية لك عندما تأتى وأسرتك

شكره والدها ثم أنصرف لم يبعد خطوتين ثم نظر اليها وابتسامة ماكرة تعلو وجهه ثم قال:اتمنى لكم اقامة سعيدة.

تلك النظرة القت الرعب فى قلبها وسحبت الدم من وجهها وباتت تردد بينها وبين نفسها هل حقا ستكون اقامتنا هنا اقامة سعيدة؟!

(٢)
البيت الأمريكي

كان بيتهم الجديد كبيرا يشبه القصور الملكية ملحقا به حديقة مليئة بالورود الذابلة ،فقدخيمت على هذه الحديقة الحشائش الضارة التى إلتفت حول الورود لتمنع عنها الضوء من يراها حاليا يقول أنها مسكونه بالعقارب والثعابين أن لم تكن مسكونة بالجن ايضا ، يبدو أن هذه الحديقة أهملت من فترة قريبه فأصبحت مقفرة وتحول جمالها الى قبح.

بعدما رأت ماريا الحديقة تسألت فى نفسها إذا كان هذا حال الحديقة وهى واجهت البيت فكيف سيكون حال البيت بالداخل ربما ستجدة مثل بيوت مصاصى الدماء،يا إلهى ماذا لو كانت هذه المزحة حقيقية؟! ربما هذا الشخص الدمث كان يقصد هذا من الإقامة السعيدة مجرد تفكيرها هكذا جعل جسدها يرتعش وقلبها يدق رعبا كلما إقتربوا من الباب الداخلى للمنزل.

قد لاحظ على توترها فهتف بصوت منخفض قائلا:لا تقلقى يا ماريا كل ما تفكرين به علميا ليس صحيح لذا كفى عن هذه الرعشة الغبية أشعرتينى بالتوتر.

عندما قال هذا لاحظت أنها تمسك بيده لتساعده على الدخول فقالت له وهى تزم على شفتها السفلية: أصمت وألا القيتك فى أحد السراديب الذى يحتوى عليها بيت الاشباح هذا.

فضحك وهو يقول:لم اظن ان خيالك واسع الى هذا الحد،كفى فرجة على افلام الرعب أنها مضرة بالصحة وفى حالتك ايضا مضرة بالعقل..والآن إفتح يا سمسم

عندما فتح والدها باب المنزل اغمضت عيناها خوفا مما قد تراه لكن ما رأته كان عكس تماما ما كانت تتوقعه، فقد رأت منزلا غاية فى الجمال والرقى ،كانوا يتجولون فى المنزل وكأنهم يتجولوا فى متحف قديم،أو معرضا لرساما عالمى تلك اللوحات الجميلة المعلقة على الجدران وكل لوحة كانت أجمل من الأخرى وتلك التماثيل التى أختيرت بعناية لتلائم طبع البيت الكلاسيكى وذلك الأثاث الذى يتسم بالقدم وكأن صاحب البيت إشتراه فى مزاد لاحد الملوك كان كل شىء حيوى ينبض بالحياة كأنه لوحة فنية جميلة رسمها أحد الرسامين ليعبر عن الجمال الخالد،هذا البيت الكبير المكون من طابقين كان لابد له أن يكون معرض لفنان، هتفت ماريا بدهشة: كيف لصاحب البيت أن يبيعه بهذه السهولة؟! إن كنت مكانه ماكنت لأبيعه مهما كان السبب.

فقالت والدتها بصدمة:يا إلهى كيف سأستطيع تنظيف هذا البيت الكبيروما كم التراب الهائل الموجود هنا،إننى بحاجة لاسبوع كامل لتنظيفه.

بعدما قالت والدة ماريا هذا الكلام:ضحك الجميع بشكل هستيرى.

ثم هتف ساخرا والدها: المرأة المصرية لن تتغير.

بعدما إنتهوا من معاينة الطابق الأرضى الذى إختار فيه أخيها غرفته وبجاورها غرفت والديها،صعدت ماريا إلى الطابق العلوى حيث أنها فضلت المكوث فى الطابق العلوى وهذا الطابق مكون من ثلاث غرف، غرفة تطل على الحديقة وغرفتين مقابلين لها فوقع إختيار ماريا على الغرفة الأولى.

ثم دخلت غرفتها التى إختارتها تجولت ببصرها فى الغرفة فوجدتها تحتوى على سريرين متجاورين يفصل بينهما تربيزة موضوع عليها اباجورة يوجدعلى يسار السريرين خزانة ملابس ليست بالكبيرة،وعلى يمين السريرين يوجد مكتب،لا تدرى لما لكنها شعرت أن من كان يعيش فى هذة الغرفة فتاة

يظهر هذا من الترتيب الراقى للغرفة والوان الجدران الوردية هذا النظام لا يقوى الذكور على فعله وحدها فتاة من تفعل ذلك،إنه ذوق الإناث وليس الذكور.

همت لتفرغ ملابسها وتضعها فى الخزانة بدأت بتعليق الشماعات وتعليق ملابسها ثم الطرف الآخر من الخزانة والذى يتكون من ثلاث رفوف فرتبت فيه باقية ملابسها ولكن قبل ذالك أردت أن تنظف الرفوف وبينما كانت تنظف الرفوف وقع شىء على الأرض فإنحنت لتلطقته فكانت صورة وهنا صدق حدثها فهذه الغرفة كانت لفتاة ففى الصورة فتاتين يبدو أنها سيدة وابنتها الصغيرة من الممكن ان تكون زوجة صاحب المنزل وإبنته لكن ثمة شئا غريب فى هذه الصورة جعلها تندهش بعض الشىء فهذة الصورة كانت ممزقة وقطعة منها غائبة وكأن أحد آخر كان فى هذه الصورة وتعمد أحدهم إزالته منها،حسنا وماذا يعنينى فى ذالك سأضع هذه الصورة فى مكانها ربما يأتى يوما ما ويطلبها صاحب البيت؟ فمهما كانت ستظل أمانه لذا قامت بوضعها فى مكانها وبينما تهم بوضعها نظرت إلى ظهر الصورة لتجد كلاما مكتوبا عليهه، نص هذا الكلام كالآتى:الى من يسكن فى هذه الغرفة ارجوك إحتفظ بمقتنياتها كما هى ولا تبدل أى شىء فيها إنها ذكرى غالية فلتترك الذكرى خالدة كما هى فكل مكان فى هذه الغرفة ينبض بقلب صاحبته .....شكرا.

هذا الكلام جعلها تتعجب أكثر فهذا الكلام حتى لو لم يكن شخصها المقصود به لكنه موجه لها،وعلى الرغم من أنها لم تكن تنوى تغيير شىء فى شكل الغرفة إلا أنها كانت تريد أن تسئله أيمكنها إضافة شىء أم لا،فكأنها تخيلت الإجابة :فما إضافة شىء سوى تغيرلذا وتلبية لرغبة صاحب الرسالة تركت كل شىء على حاله لم تفرغ سوى حقيبتها،لكنها كعادتها فضولية كثيرا

أردت أن تعرف لماذا هذه الغرفة بالذات؟ولمن هذه الصور؟ ومن الشخص االموجود فى القطعة الممزقة من الصورة بجوار الفتاتين؟ كل هذه الأسئلة كانت تريد لها إجابة، لكنها قالت فى تثائب محدثة نفسها:حسنا لن تتساقط الجبال فوق رؤسنا إذا بحثت عن الإجابة لاسئلتى غدا،ثم وضعت الصورة تحت وسادتها وغاصت فى نوم عميق.

وفى صباح اليوم التالى إستيقظت ماريا لتجد والدتها كعادتها تجهز الفطور وولدها كعادته متكء على الأريكة يتصفح جريدة الصباح التى لا تدرى حقا كيف حصل عليها؟ أما على لم يستقيظ فطلبت والدتها منها أن تذهب لكى توقظه،فجميعهم كانوا مرهقون لدرجة أنهم ناموا يوما كاملا ولم يستيقظوا سوى صباح اليوم التالى

-جلسوا جميعا على مائدة الطعام يأكلوا فطورهم وهم يتحدثون عن مدى جمال المنزل،إلا ماريا، فقد كانت تفكر فيما حدث البارحة وتلك الصورة التى وجدتها وذلك الكلام المكتوب عليها،لذا سألتهم عن أى ورقة أو صوره وجدوها فى غرفهم،فهزت والدتها وعلى رأسها علامة الرفض.

-ولكن والدها قال بإستغراب: ما هذا السؤال الغريب،عن أى ورقة تتحدثين؟!

فحكت له عن الصورة التى وجدتها البارحة فى خزنة الملابس.

تعجب كل الموجودين من كلامها لكنهم لم يجدوا تفسير سوى أن هذه الغرفة عزيزة جدا على أصحاب المنزل.

فهتفت والدتها فى حنين :لبى رغبتهم يا إبنتى فالبيوت عزيزة على اصحابها ولا يتركوها إلا لشديد وربما هذه الغرفة عزيزة عليهم أكثر من غيرها ربما لارتباطها بذكرى غالية أو بشخص غالى.

-أما على فجذب ماريا من يدها حتى قامته القصيرة وقال لها هامسا فى سخرية:ربما صدق حدثك وهذا البيت مسكونا بالأشباح.

فنظرت له بغضب، فعاود الاكل صامتا

-فقال لها والدها وهو يلوك قطعة من الخبز المصرى التى صنعته والدتها فى مصر ثم أتت به إلى أمريكا لتكون أول لقمة يأكلونها فى هذا البيت الأمريكى صناعة مصرية ١٠٠% يبدو أن والدتها ستقاطع معظم منتجات أمريكا وأولهما العيش مما يعنى بأنه سيكون لديهم إكتفاء ذاتيا ربما لو إتبعت مصر نفس إستراتيجة والدة ماريا الإقتصادية لكانت لديها إكتفاء ذاتيا ولم تخضع لتعبية أمريكا الأقتصادية ولا لاي دولة على وجه الأرض:ماريا تحدثت منذ فترة مع يوسف صديقى والذى يقيم فى أمريكا منذ سنين كثيرا بشأن دراستك فى إحدى الجامعات الأمريكية فأخبرنى أنه قدم أوراقك للعديد من الجامعات فى نيويوك وجامعات أخرى فى ولايات أخرى فى أمريكا ولكنه إتصل بى منذ قليل ليبغلنى أنه تلقى رد بالقبول من جامعة بافلو.

-فقال على : بافلو؟!انها تبعد عن مدينة نيويورك حوالى ستة ساعات

نعم يا على هذا ماكنت سأحدث أختك فيه،فلابد يا ماريا أن تسكنى فى بافلو ايام دراستك.

-فقاطعته والدتها قائلة فى غضب:كيف لها أن تعيش بمفردها فى هذا البلد الأجنبى لا هذا لن يحدث،فلتبحث لها عن جامعة قريبة منا

-قفال لها:لا فائدة من ذلك فلم نتلقى رد بالقبول من أى جامعة فى ولاية نيويوك سوى جامعة بافلو ،ولولا صديقى على علاقة بعميد كلية الحقوق جامعة بافلو ما كان سيوافق.

لذا قامت من على المائدة غاضبة حتى أنها لم تكمل فطورها.

-نظرت ماريا إلى والدها ثم قالت فى حنق محدثة نفسها: ألا يكفى يا الله غربة الوطن حتى تكتمل بغربة الاهل ،كيف سأعيش بدونهم

-إنى يا ماريا أدرك تماما ما تفكرين به جاء صوت والدها قاطعا تفكيرها ولكن لا تقلقى فلتقضى نصف العام فى جامعة بافلو وسأبحث لك عن حل إبتدأ من نصف العام الثانى،لكن الأسبوع القادم بإذن الله سنذهب نحن الإثنين إلى بافلو حتى أرتب أمر إقامتك،هناك ستعيشين عند عمك يوسف،حتى أعثر لك على سكن جيد للطالبات،وأريد أن اقول لك شيئا أخر إن كلية الحقوق جامعة بافلو من أعرق الكليات الموجودة فى امريكا كما أنها الكلية الحكومية الوحيدة فى ولاية نيويورك ستستفيدين كثيرا بالدراسة هناك.

فقالت له فى يأس: حسنا يا أبى فليفعل الله ما يريد.

أنتهى حديث ماريا مع والدها ثم قام ليذهب الى عمله فهذا يومه الأول فى العمل و لابد أن يذهب مبكرا حتى يتعرف على جميع زملائه ويتعرف على طبيعة مكان العمل حتى أنه لابد أن يحفظ مكان العمل ثم العودة إلى المنزل فمهما كان فهذه المرة الأولى التى يزور فيها أمريكا.

وما إن خرج والدها حتى بدأت والدتها مسلسل التنظيف الذى ستكون إحدى ابطاله المغوارين،وعلى كعادته إستطاع الهروب متحججا بأنه سيذهب ليتجول فى الحديقة المهجورة هذه.ليتنى أستطيع الهروب مثله

ظللت ماريا ووالدتها لاكثر من ثلاث ساعات يرتبا الأساس ويزيلا الأتربه التى مازالت حديثت العهد يبدو أن أهل هذا البيت باعوه منذ فترة قصيرة ،وها هما الآن أنجزوا مهمتهم،وعادت الحياة تدب فى البيت من جديد،لكن والدتها لم تكتفى فقط بترتيب البيت بل لابد أن تضع لمساتها الأخيرة لذا بدأت بإخراج بعض التابلوهات التى أتت بها من مصر وهذه التابلوهات

مكتوب عليها آيات من القرآن الحكيم والمعوزتين وضعتهما فى مدخل البيت ليس خوفا من الحسد كما من الممكن أن يفهم لكن هذه رسالة ضمنية لكل من يدخل البيت مفادها أنهم مسلمون وعرب وهذه الحقيقة لن تتغير مهما كان.

-ظلت ماريا تنظر إلى والدتها بسعادة ثم قالت: من غير أمى لأصبحت حياتنا كالليل المعتم الذى لا نهار له.

والآن بالنسبة لأمها البيت أصبح جاهزا للعيش فيه،ولكنها نسيت شيئا مهم وهو تلك الحديقة المهجورة التى كلما تخيلتها ماريا قبل أن تهمل هكذا تجدها غاية فى الجمال والروعة، يقولون فى الأمثال مهما ذبل الورد فرائحته فيه هذا فعلا ما تراه برغم ذبول هذه الورود إلا أن رائحتها تملأ البيت لذا قطعت ماريا وعدا على نفسها بأنها ستبذل قصار جهدها لكى تعيدها كما كانت بل اجمل، لذا إستأذنت والدتها لكى تذهب لتنظيف الحديقة وهذه المرة ستورط "على" فى العمل معها ذلك الكسول الشقى،لكن عندما خرجت إلى الحديقة لم تجده بالجوار ،للحظة شعرت بالضياع،شعرت بضيق فى التنفس،أين ذهب من الحديقة؟! ، فنحن لم يمر على وجودنا فى أمريكا سوى يوما واحد،فمحال أن يكون تعرف على أحد،لكن أين ذهب؟!أيكون خرج إلى الشارع وحدث له مكروة ،يا الله إحمى أخى الصغير تلك الأفكار تسحب الحياة من جسدها وتلجم لسانها وتعيق قدماها عن

السير،أرادت أن تقول لوالدتها ولكنها فضلت أن تبحث عنه جيدا،ربما يكون مقلبا منه كالعادة.

ماذا أفعل ؟!ساعدنى يا إلهى،كادت أن تشل لا أثر لاخيها الصغير، لقد بحثت عنه فى كل مكان كادت أن تذهب لتخبر والدتها ،إلا أنه حدث مالم تتوقعه قط،فقد رأت على يدخل من باب الحديقة وهو ممسك بيدى شخص

ما،بدأت تتسأل من هذا الشخص؟! وكيف تعرف على عليه؟!ياألهى إنه ذلك الشخص الذى إلتقينا به البارحة ذلك الشخص الذى أعطى أبى مفتاح البيت،لكن ماذا يفعل مع أخى؟وأين ذهب به؟

-هتفت ماريا فى قلق،متجاهلة تماما جاك:على،اين ذهبت دون أن تخبرنا؟

ماذا بك ماريا؟ لماذا أنتى قلقة الى هذا الحد؟ كنت أريد فقط أن أرى الحى الذى نسكن فيه وجاك ساعدنى على ذلك.

ماريا!!ياله من اسم جميل،فقال متداركا أو مفتعل أنه أدرك مغازلته:مرحبا آنسة ماريا ثم مد يده ليصافحها وما كان منها سوى أن تنظر إلى يده دون أن تمد يدها للمصافحة :ماذا تريد يا سيد؟!جاك أليس كذلك

-فأرتسمت على وجه إبتسامة ماكرة محاولا تخبأت إحراجه ثم كمش يده الية مرة أخرى،وهو يقول :جئت لمقابلة أبيك،عندما رأيت هذا الشقى يحاول الخروج بمفرده الى الشارع ساعدته لكى يرى الأماكن المجاورة.

- شكرا لك سيد جاك ،والآن إذا كنت تريد شيئا من أبى قل لى وأنا ابلغه

-فنظرإليها نظرة متفحصة بعينية الخضرواتان اللاتان تشبهان عين الثعلب ثم قال:لا يهم،فالآن حدث ما جئت لأجله... أقصد سأتى له فى وقت لاحق.

الآن فرصة سعيدة أيها الصغير ثم نظر إلي ماريا وهو يقول: أرجو أن تتكرر ثانية،ثم إنصرف.

لا تدرى ماريا لماذا ولكنها منذ المرة الاولى التى رأته فيها وهى لا تشعر بالراحة تجاه نظراته لها؟! كما أنها تشعر أنها رأته من قبل ،لكن اين لا تدرى حقا؟!

قال على فى سخرية:لا يروقنى هذا الرجل مطلقا ،لكنه أفادنى فى معرفة بعض الاماكن هنا أحيانا.

فهتفت ماريا فى غضب : على لاتخرج مطلقا دون أن تخبرنا ولا تخرج مطلقا إلا ونحن معك.

لا تقلقى بشأنى يا اختى فأنا رجل كبير

حسنا ايها الرجل الكبير:اصغ جيد لكلامى ،فأنت لا تدرى كم الافكار السيئة التى تواردت الى ذهنى عندما لم اجدك.

-إذا كنت تحبينى إلى هذا الحد فلا تخربى أبى

-اتعدنى انك لن تفعل ذلك ثانية؟

-أعدك

-أخذت ماريا نفسا عميقا وهى تحضن على ثم قالت فى نفسها: أخى الصغير على تلك الهدية التى أهدانى إيها القدر،ذلك الشقى الذى لا يكتمل يومى إلا برؤيته،ذلك الشجاع الذى حارب الموت ليأتى منتصر إلى الحياة هو ليس أخى الصغير فقط بل صديقى الوحيد،ومستشارى فى كل شىء وأيضا قرة عين أمى وحلم أبى الذى تحقق،أعلم جيد أن على أغلى على ابواي منى وهذا الأمر لم يحزنى يوما فكيف ألومهم على حب أخى أكثر منى وأنا أحبه أكثر من نفسى؟! وبالرغم من تفضيلهم لعلى لم يفرقوا بينا فى المعاملة أبدا ولكن العيون دائما تفضح ما يجاهد القلب على إخفاءه.

تذكرت ماريا ما حدث عندما حملت والدتها بعلى فبعد ولادة أمها لها حدثت مشكلة فى رحمها فبات لا يقوى على حمل جنين أخر وإن حاولت أن تحمل ثانية فمن الممكن أن يكون خطر عليها أو الجنين الذى تحمله بمعنى أن أنها لو فكرت فى الحمل سيكون هذا بمثابة إنتحار لها وإن حدثت معجزة وإستمر حملها لن يعيش الجنين طويلا لذا وخوفا على صحة والدتها أخذ

والدها عهدا عليها بألا تحاول الحمل مجددا وأن يرضوا بنصيبهم ويربون ماريا لتكون لهم الفتاة والولد والسند،وان هناك الكثير والكثير من الناس لم يمن الله عليهم بالذرية وأنهم محظوظون بماريا،ربما أذعنت والدتها لكلامه فى البداية لكنها بعد الكثير من السنوات عندما شعرت أنها تكبر فى السن وكلما كبرت تقل فرص حملها مرة أخرى مما جعلها كإمرأة صعيدة تريد أن تنجب ذكر هذا بفعل الغريزة أرادت أن تنجب ذكر مهما كلفها الأمر حتى وإن كان ذلك سيكلفها حياتها،أرادت أن ترى زوجها سعيدا إنها أكثر من تفهمه حتى وإن كان يحاول أخفاء ذلك عنها حفظا لحياتها لكنه يحلم بولى العهد يحلم بأن يكون له ولدا من صلبه يحمل أسمه ويكون إمتدادا لنسله فى الحياة ،لذا عزمت على النحث بوعدها معللة ذلك بأن بعض الوعود لابد أن تنحث إذا كان فى نحثها إسعاد لاحد أو حياة لاحد،وكان لها ما أرادت فقد رزقها الله بحمل جديد،وفى فتراته الأولى حاولت تخبأت الأمر على زوجها لكن إلى متى ؟فالحمل أحد الأشياء التى من المستحيل تخبأتها.

لن تنسى ماريا طيلة حياتها ذلك اليوم الذى تحلت فيه والدتها بالشجاعة وأخبرت والدها بحملها كان ذلك فى أحد الليالى العاصفة من شهر مارس،فقد كان فى هذا اليوم عاصفة ترابيه تقتلع النخيل،كان الأمر شبيها داخل بيتهم وكأن الجو فى بيتهم تقمص دور الجو فى الخارج فلم ترى فى حياتها والدها بهذه العصبية فقد ثار على والدتها كثيرا،والدها ذلك الشخص الهادىء الزرين الذى لم يحزن والدتها فى يوما من الأيام،أصبح بهذه الشراسة والعنفوان ولكن ذلك ليس لأنها نسيت أن تكوى له قميصه أو لان الملح زاد منها فى الطعام كما يحدث الأن فى الزيجات العابرة التى يركز فيها الزوج على قسيمات وجه زوجته ومدى منحنيات جسدها وتركز فيها الزوجة على مدى ضخامة عضلات زوجها،والنقود التى تملأ جيبه ثم يتطلقون فى أول أزمة تمر

بها علاقتهما فى هذه الحالة يكون الزواج مجرد مسكن وليس مسكن ويكون عابرا وليس وعدا أبديا بالحب والوفاء ،ثار والدها فقط خوفا على حياة زوجته خوفا من أن يستيقظ يوما ولا يجدها بجواره،كان يفضل أن يظل بلا ولد بلا أبناء نهائيا ولا يفكر مجرد تفكير أنه سيأتى يوما يتحسس فراشه ولا يجدها،كانت ثورة والدها بدافع الحب وتضحية والدتها بدافع الحب ذلك الحب الذى يولد فى القلوب لينمو ويكبر ذلك الحب الذى لا تقتله ضائقة مالية ولا مشكلة عابرة،فماريا تعتبر نفسها الفتاة الأكثر حظا فى العالم فقد أتيت إلى هذا العالم من رحم الحب وليس من رحم الغريزة وقد تربيت فى جو صحى من الحب والتفاهم،لولا بعض الظروف الخارجة عن إرادة والديها.

لذا مر على هذه اللية أكثر من عشرة أعوام ومازلت تتذكر حديث والدها وهو يعاتب والدتها ويقول لها واضعا رأسه فى حضنها:لن أسامحك مطلقا إذا حدث لك مكروة،ولن أسامح نفسى لأننى متأكد أنك فعلت ذلك فقط لأجلى،ألم يكن حبى لك كافيا لكى تفضلين البقاء بجوارى بدلا من وضع حياتك فى الخطر؟! أيتها المجنونة ،لم تكونى يوما زوجتى فقط بل كنتى حبيبى وأمى وابنتى وصديقتى كنت كل شىء،كيف لك أن تيتمينى ثانية وتقتلى أبنتى وتبعدين صديقتى عنى كيف لكى أن تجردينى من جميع علاقاتى.

- فأجابته والدتها وهى تشهق بالبكاء:أردت فقط أن أراك سعيدا

- أنت سعادتى ومن دونك لا سعادة لى

- لكن الأن لم يفت الأوان فأنت مازلت فى شهور الحمل الاولى لذا فلنجهض الحمل.

- وأقتل إبننا

- بل تنقذى حياتك

- الأم تضحى بحياتها لاجل إنقاذ أولادها ولا تقتلهم لكى تنقذ نفسها

- لن أستطيع العيش بدوك.

- وانا لن أستطيع قتل أبنى لكى أعيش

-إننى أشعر بهذه الحياة التى بدأت تنمو بداخلى،أشعر بنبضات قلبها أكثر من نبضات قلبى،آكل لكى تشبع أستنشق الهواء لكى تتنفس وأشرب لكى ترتوى إنه شعور لا يمكن سوى لام أن تشعربه،كما أن الدعاء يغير القدر سأظل أدعو حتى يجف حلقى أن يأتى هذا الطفل الى الحياة لاجلنا

- وأنا سأدعو حتى يجف حلقى لكى تقومين سالمة، أننى أعلم أن كل كلام بشرى قابل للخطأ وان إرادة الله فوق كل شىء ومهما كان العلم دقيق فهو قابل للخطأ هذه الفترة من حياتى سأعيش على أمل هذا الخطأ.

كانت فعلا هذه الفترة من حياتهم غاية فى التوتر ذالك التوتر الذى جاهد والدها إبعاده عن ماريا،لكنها رغم عنه كانت جزء منه كان والدها فى هذه الفترة يذهب إلى عمله مشتت الذهن،مفطور الفؤائد يخشا أن يغافله الموت ويخطف زوجته كان يتصل بها فى اليوم آلاف المرات مدعيا أنه إشتاق إليها لكنه فى الحقيقة كان خائفا عليها ويأتى من شغله ليطمئن عليها ويسهر بالليل بجوارها يراقب إنتظام تنفسها ،كان بحالة هوس ورعب من أن يفقد حبيبته ورفيقة دربه وتتركة الحياة كطفل مشرد فقد أمه،لا تدرى كيف مرت التسع اشهر هذه مرت بألمها وتوترها وخوفها لتأتى الليلة الأكثر رعبا فى حياة والداها وهى ليلة ولادة على،صعقت ماريا عندما رأت والدها للمرة الأولى بهذا الإنهيار والهشاشة كان يشهق باكيا كطفل أخذوا منه لعبته المفضله خاصة عندما سأل الأطباء وقالوا له أن حالة زوجته وطفله خطيرة لا سبيل لديهم سوى إنقاذ أحدهما فقال والدها دون تردد إنقذ الام، إلا أن والدتها داخل غرفة العمليات ظلت تتوسل للاطباء أن ينقذوا أبنها إلى أن أعطوها حقنة المخدر،ظلت والدتها ثلاث ساعات فى غرفة العمليات ظل والدها خلالهم

معتكفا للصلاة،يدعو الله بكل خضوع لسلطانه ويتوسله بكل أسماءه الحسنى أن يرى زوجته سالمة غانمة،وألا يحدث لها مكروه ومرت الثلاث ساعات ثم خرج الطبيب يبشرهم بمعجزة كان فيها الدعاء منتصرا على العلم وإرادة الله منتصرة على كلام الأطباء فقد خرجت الأم وإبنها،سالمين،وسط فرحة ماريا وبكاء والدها،وقد سطر هذا اليوم فى تاريخ حياتهم من أسعد أيامهم.هذا اليوم الذى حارب فيه على الموت ليأتى إلى الحياة حتى لو على قدم واحدة ولسان ثقيل،نعم فقد أثرت ولادة على الصعبة على إحدى قدميه وأثرت على لسانه فلا يتحدث بشكل صحيح ولكنه أتى الى الحياة لاجلهم لاجل أن يصبح صديق ماريا الوحيد وسند لأبويه لكن الله عادلا فى كل شىء وما يأخذ إلا ليعطى وإن أعطى لا يضاهه احد فى كرمه وفقد أعطى على عقل حاد الذكاء،التذكر والإطلاع،وخفة دم لا يضاهيها شىء،بدون على كل شىء باهت ساكن لا حياة فيه ولا روح.

(٣)
نضال

تقترب الساعة من الواحدة صباحا ،كانت الموسيقى صاخبة ورائحة االسجائر تغلف المكان حتى يخال لك انهم استبدلوا الأكسجين برائحة السجائر،الكثير من الفتيان والفتايات يرقصون يتمايلون فى احضان بعضهم البعض فى هذا الملهى الليلى تشعر بأنه مكان منفصل عن العالم الكثير والكثير من زجاجات الخمر الفارغة التى فاضت، بها الكؤوس، كلما صمت الموسيقى قليلا ليعاد تشغيل موسيقى مختلفة،لايسمع سوى صوت إرتطام كوؤس الخمر،والضحكات السكرة، تظهر من بين هؤلاء فتاة تمسك بصنية مليئة بكؤوس الفودكا تقدمها الى مجموعة من السكارى ترتدى هذه الفتاة ملابس فضفاضة لا تظهر معالم جسدها هذه الملابس اشبة بملابس مطربى الراب فى امريكا كما انها تضع الكثير من مساحيق التجميل الغريبة القاتمه التى تطمس معالم وجهها من يراها يخال له انها واحدة من عبدة الشيطان ..

-الفودكا كما طلبت سيدى.

-يمسك احد الرجال الموجودين هناك يدها بقوة ويقول بلهجة امريكية سكرة: نضال ألن تأتى معى هذه المرة.

-تنهره نضال بقوة وتقول له :انت يا سيدى أحد زبائن الملهى وانا اعمل هنا وغير مسوح لى بمرافقة الزبائن،وشىء آخر اياك أن تتجرء على لمسى مرة أخرى.

- كاد الرجل أن ينفجر من الغيظ، وأخذ يردد بينه وبين نفسه من تخال هذه الفتاة نفسها لترفضنى مرة تلو الأخرى،مئات الجميلات يردن ان يركعن امامى يترجونى لأصادقهن وانا ارفض ،لطالما كانت الفتيات بالنسبة لى مثل

الأحذية ارتدى إحداهن اليوم والأخرى غدا ومن الممكن أن ارتدى أكثر من واحدة فى نفس اليوم كل على حسب مزاجى، لكن هذه الفتاة عربية مما يجعل الحصول عليها له مذاقا آخر كما أنها مسلمة مما يعنى أن الحصول عليها ليس رغبة بل إنتقاما على الرغم من أنها تريد ان تطمس هويتها إلا انها لا تستطيع ذلك لأننى اشتم رائحة العرب على بعد اميال حتى أن ملامحها الغربية لم تجعلنى انخدع بها ،لا بأس ما تفعلينه،لكنك لن تهربين من شباكى يا نضال.

عادت نضال الى شقتها وهى تجر فى قدميها كمن يجر شيئا ثقيل لا يقوى على حمله وكعادتها عند عودها من الملهى خلعت حذائها عند باب الشقة ثم ركضت إلى المرحاض فتحت الدش فوق رأسها دون أن تخلع ملابسها وعندما انتهت نظرت الى نفسها فى المرآه واخذت تتحسس قسيمات وجهها كأنها تريد ان تتأكد انها مازالت تحتفظ بملامحها فبدأت بالبكاء بحرقة عسى أن تغسل الدموع ما أصاب روحها من ذبول،تخاف من ذلك الطريق التى إختارت أن تسير فيه بإرادتها ،حقا بإرادتها أم أن الظروف أجبرتها عليه ،ظروف يا لها من كلمة تتعب قلوبنا وتذبحنا وأحيانا تحولنا إلى مجرد قطعة شطرنج تحركنا كيفما تشاء وكلاعب ماهرا يتقن قوانين اللعبة لا يمر الكثير من الوقت لتقول لنا(كش ملك)،لكنها لا تريد أن تصير فريسة للظروف تريد فقط ألا تهزمها الحياة أن تخرج هذه المرة منتصرة ككل مرة ،لكن ماذا تبقى لها؟ألم تسأم الحياة منها بعد ؟! ومن منهما هذه المرة سيرفع راية الإستسلام؟! لو كانت على يقين من أن الحياة ستتركها وشأنها إذا إستسلمت لها لكانت فعلت ذلك منذ زمن ،لكن هذه المرة لم تترك لها الحياة خيارا، فالإستسلام هذه المرة لا يعنى الجبن بل الخذلان ،خذلان الشخص الوحيد التى أحبته من كل قلبها وأصبح كل حياتها وجميع علاقاتها الشخص الوحيد الذى يربطها بالحياة ،الشخص

الوحيد التى أخبرته دون خجل أنها بحاجة إليه ،أنها ضعيفة بدونه ،وهى تلك الفتاه القوية التى لم تسمح لأحد بأن يضع يده على نقاط ضعفها،هو الشخص الوحيد التى إحتمت به من قسوة الحياه جعلت من ذراعية حدودا لسعادتها ومن ظهره حصن للاختباء ورأه،هو الشخص الوحيد التى تعرت تماما أمامه وأعطته كل الأسباب ليقتلها دون أن يفعل،عندما نحب نلقى جميع أسلحتنا أمام الحب طواعية،نستسلم له بكل جوارحنا نتعرى أمامه من جميع أشكال القوة الزائفة ونظهر بكل جرأة نقاط ضعفنا،نعرفة على أسباب سعادتنا ووحزننا نذهب به إلى الأشياء التى تجعلنا نحيا و الأشياء التى تقتلنا،هذا ببساطة إختبار للحب والحب يستحق هذا الإختبار،لكنها لم تدرى أن الحب سيضعها فى إختبارا أشد وطاءة ،إختبارا لم تضعه فى الحسبان ،إختبار الفشل فيه يعنى الموت لا محاله،أو العيش جثة هامدة نسيت منذ فترة من فرط السعادة فنون القتال مع الحياة وإعتادة إلقاء حمولها عليه فألقت بجميع أسلحتها ليكون هو سلاحها الوحيد لم تدرك يوما أن سلاحها سيكون بحاجة إليها يوما ما.

هى حقا كما كان يقول لها والدها دائما:أنتى يا أبنتى أميرة محاربة مكانها دائما أرض المعركة وليس النوم فى القصور والأستمتاع بريش النعام،لكنها نسيت كلامه لفترة من الزمن وتركت أرض المعركة لتعتاد ريش النعام ولكن الحياة لم تنساها فلم تضيع الفرصة وألقتها فى أرض المعركة لكن هذه المرة دون سلاح.

أمسكت نضال ألبوما للصور هذا الألبوم الذى يعزيها غيابه يجعلها دائما تشعر أنه بجوارها ففى هذه الصورة سعيد ويضحك فتضحك معه وفى هذه الصورة حزين وعابس فتبكى لأجله،تحدث صوره كأنه هو من تتحدث معه تلامس وجهه فتشعر أنه أمسك يدها وقبلها كعادته،لقد إشتاقت إليه

كثيرا حتى إشتكى الشوق نفسه،أغلقت ألبوم الصور وإستسلمت للبكاء وهى الفتاة التى سلبتها الحياة حق البكاء ها هى أجبرتها مرة أخرى على البكاء.

إستيقظت نضال فى الصباح ثقيلة الرأس منتفخت العينين ،لكنها فى كل مرة تتمنى ألا تستيقظ مجددا،وأن تتخلص من هذه الحياة عديمة الفائدة ،لكن كيف تتركه بمفرده؟ كيف تتجرأ على مجرد التفكير بلأمر؟ ،أبعد كل هذا الحب تتركه وحيدا وتذهب؟! ألم يتعاهدا على العيش سويا والموت سويا ؟!،فكيف إذا تخون العهد؟ لكنها تشعر بلإرهاق ليس بسبب ما حدث معها لكن بسبب ما تفعله الآن تخاف أن تغضب الله وهى كل تريده أن يكون راض عنها تتمنى ألا تذهب فى طريق الشيطان وأن تسطيع إنقاذه فى أقرب وقت ،لكنها بحاجة إلى النقود لكى تستطيع ذلك وهى لا تسطيع جمع المبلغ المطلوب حتى بعدما عملت فى هذا المطعم الذى يتحول فى المساء إلى ملهى ليلى يا لها من كلمة تثقل أذنها وتبعث الضيق لقلبها لم تتخيل فى يوم من الايام أن تسوقها الظروف إلى هذا الحال أن تلمس بيدها الخمر ،أن تتعامل مع السكارى،لكن حتى بعد كل هذا ينقصها بعض النقود ،وهذا الأمر جعلها تفكر فى أمر ما ربما يكون الحل بالنسبة لها.

لم تظن أن الحب سيضعفها إلى هذه الدرجة وهى الفتاة القوية التى كانت حياتها معنى لاسمها نضال فعاشت حياتها مرهونه بهذا الأسم الذى أصبح قدرها فهى إبنة لأب لم يهبه الله صبيانا ولكنه أعطاه فتاة سيئة الحظ رباها كالذكور،رباها على النضال والحرب،لم تكن تعى شيئا من كل هذه الحروب التى تحدث وأصوات التفجيرات ومناظر الجثث،فى صغرها كانت كل ليلة تستيقظ من النوم مفزوعة تركض الى حضن أبيها لكى تحتمى به،تحلم بالكوابيس بدلا من أحلام الطفولة البريئة ،تكون لعبتها الأولى أن تمسك الحجارة،وتتعلم النيشان لتضرب أناس لا تعرف عنهم سوى أنهم هم من

قتلوا والدتها وجعلوا والدها عاجزا يجلس على كرسى متحرك،لن تنسى طيلة حياتها ذلك الصباح من يوم الخامس والعشرون من فبراير سنة ١٩٩٤ ذلك التاريخ سيظل محفورا فى ذهنها فى ذلك اليوم إرتكب فيه بعض اليهود المستوطنون فى بلدة الخليل مجزرة فى المسجد الإبراهيمى* بقيادة الطبيب اليهودى المجرم باروخ جولدشتاين حيث أنه أطلق النار على المصلين فى المسجد الإبراهيمى أثناء أدائهم لصلاة الفجر من يوم الجمعة فى شهر رمضان الكريم وقد قتل الكثير من المصلين وأصاب العشرات بجروح خطيرة كان من بينهم والد نضال الذى هزم الموت، الإ أن الموت أراد أن يترك لديه تذاكرا فقد تركه عاجزا فاقدا لقدميه الإثنين،كانت نضال وقتها فى العاشرة من عمرها.

منذ ذلك التاريخ وهى تخاف كثيرا تخاف الأصوات وتخاف الأشياء ولكنه قدرها،الذى حرص والدها على جعلها تؤمن به ولكن بعد أن فقد والدها قدمية أصبح عصبيا غاضبا طوال الوقت حيث أنه كان مثالا للنضال كان حلمه أن يرى اليوم الذى يخرج فيه اليهود من فلسطين زحفا وان يكون مشاركا فى ذلك ولكن كيف له ذلك وهو حبيس ذلك الكرسى اللعين؟!هذا جعله يرى فى نضال ذلك الأبن الذى يعوضه عن فقده لقدميه،ولكنها مازالت طفلة لا تفهم جيدا ما يحدث حولها.

لكن جرائم اليهود لم تنتهى ففى ليلة مرعبة شن الجنود الإسرائيلين حملة تفجيرات على بلدة الخليل وهى جزء من بلدها المنكوبة فلسطين فإستيقظت من النوم مفزوعة تركض إلى حض ابيها الذى قابل خوفها لأول مرة بصفعة على وجهها لن تنساها طيلة حياتها فقال لها بصوت غاضب:إن أكبر مكسب سيحصل عليه الصهيونيون المجرمون هو ترويعكم ،رؤية الخوف من الموت فى عيونكم ،أنتم مستقبل فلسطين لذا سيحرص أن يرى مستقبلها خائفا مهزوز خائفا على حياته وليس على وطنه وبذلك سيضمن

بقائه أمد الدهر يرتاع فى خيرها كيفما يشاء، لم يرزقنى الله أولادا لكى أهبهم فدائا لهذا البلد ولكننى لم يصيبنى اليأس وظننت أننى سأحقق حلمى فيك. اليوم لم أراك تركضين نحوى خائفة بل رأيت مستقبل فلسطين يركض نحو خائفا لقد حققوا ما يريدون.

بعد هذه الكلمات فقدت القدرة على البكاء مرة أخرى ،فلم تعد عيناها ملجأ للدموع،ولا جسدها ملجأ للضعف ،ولما لا وهى تلك الفتاه الخارقة التى ولدت من رحم الموت ، فتلك الرصاصة التى إخترقت بطن أمها وهى فيها، وأردتها قتيلة لم تقتلها بل أتت بها الى الحياة مبكرا لتكون كما يقول لها والدها(بنت سبعة)لذا فقد صارعت الرصاص لتلد وسطة وصارعت الموت لتعيشة كل يوم،وكل يوم يمر فى حياتها كانت تعتقده نهايتها نهاية فتاة كتب عليها أن تكون الأبن البار لأبيها ذلك الأب الذى كان يريد لحلمه أن يعيش وألا يصير عاجزا مثله.

لكن هذه الفتاة أحبت بصدق،شخص واحد إستطاع أن ينفض الغبار عن الأنثى التى بداخلها،فللمرة الأولى منذ طفولتها لم تكن ذلك الأبن الذى أرادة والدها فقط كانت فتاة تريد أن تحب،تريد أن تعيش الحب بكل تفاصيله الجميلة والنقية،كانت تريد لشخص أن يراها أجمل فتاة عرفها،أن يحبها كما لم يفعل قبله أحد هذا ما أشعرها به ذلك الفتى الشجاع الذى كان عضوا فى المقاومة الفلسطينية. ذات ليلة جاء أحدهم إلى والدها كانت المرة الأولى التى تراه فيها فقد كان ملثما يحمل حقيبة بها أشياء لم تعرفها،يبدو أنها قنابل وأسلحة.

كانت نضال تتجسس عليهم فسمعت والدها يقول له هامسا : يا أيهم نضال أبنى سينفذ معك هذه العملية.

أنه شرفا عظيم أن يكون أبن أستاذى معى فى هذه العملية،فالابطال لاينجبنا سوى أبطال.

متى موعد العملية.

غدا إن شاء الله فى تمام العاشرة مساءا.

بعد ذهاب أيهم أخبرها والدها طبيعة هذه العملية حيث أنهم سيشنون هجوما على بعض جنود الجيش اليهودى.

تحضرت نضال وأرتديت ملابسها التى تخفى ملامح الأنثى فى جسدها ثم غطت رأسها ووجهها بالشال الفلسطينى فأصبح لا يظهر منها سوى عينيها الخضروتان ثم جاء أيهم ليأخذها وبعدما وصلا إلى مكان العملية قاما بإلقاء قنبلة على مجموعة من الجنود قضت عليهم جميعا إلا أن واحدا منهم إستطاع أن يهرب من القنبلة حيث أنه وعندما رأهما ،أطلق عليهما وابلا من الطلقات أصابت أحداها نضال فى قدمها وشلت حركتها وجعلتها لا تستطيع السير بطريقة سلمية فحملها أيهم وركض بها حتى مكان السيارة ثم إنطلق إلى مكان بعيد للإختباء قبل أن تتجمع الجنود إثر الصافرة التى أطلقها الجندى الناجى،حدث كل هذا دون أن يكتشف أنها فتاة ،كانت تتألم بشدة بل أصابتها الحمى وعندما وصلوا إلى ذلك المكان قام بخلع الشال الذى كان يخبأ ملامحها من فوق رأسها و إنسدل شعرها الطويل على كتفها فى هذه اللحظة ظهرت الأنثى أمامه

أصابت أيهم صاعقة فهتف مصدوما:يا إلهى إنها فتاة!!

كان الألم يشتد وهو يخشى أن يلمسها لأنها فتاة ولكن الغاية تبرر الوسيلة،ذلك المناضل الشجاع أخرج من حقيبته بعض الإسعافات الأولية ثم قام بنزع الرصاصة التى إخترقت قدمها ولكنها لم تقترب من العظم،لقد إضطر أن يلمسها حتى لا تموت وهو لا يعرف أن لمسته أعادتها إلي الحياة.

ظلت نضال طيلة الليل تعانى من الحمى و أيهم سهران بجوارها يضع لها الكمادات البارده،ينظر إليها وهى تتألم،يستمع إلى تمتمتها وهلاوسها بسبب الحمى،ينظر إلى وجهها الجميل،يستمع إلى نبضات قلبها المتسارعة،هذه الرصاصة التى إخترقت قدم نضال كانت سببا فى إختراق رصاصة الحب قلب أيهم.

منذ هذه الحادثة بدء أيهم يتردد إلى بيت نضال لمجرد رؤيتها،متحججا بأنه يريد الإطمئنان على صحتها فى ذلك الوقت كانوا يجلسون بمفردهم كثيرا تتلاقى قلوبيهما وتحكى عيونهما ما لا تستطيع أفواههما النطق به كانوا يحبان بعضهما رويدا رويدا.

بدأ قلب نضال يدق بشدة فللمرة الأولى التى يعاملها آحدا على أنها فتاه،لأول مرة تشعر بالحب تجاه شخص ما،تحمر وجنتيها عندما ينظر إليها ،لقد ولدت من جديد فى اليوم الذى إلتقت به ايهم بدأت تنظر إلى نفسها على أنها أنثى،فكانت ترتدى فساتين والدتها خلسة دون أن يشعر والدها،بدأت تهتم بنفسها كثيرا،لا تدرى إلى أى شىء سيصل بها هذا الإحساس ولكنها دون وعى كانت تنجرف ورائه منذ ذلك الوقت أحبته تلك الكلمة التى لم تستطع قولها له ،كان العهد الذى قطعته على نفسها لوالدها أهم من أى علاقة،حتى أهم من حياتها،ولكن عيناها كانت تجهر به دون خوف ،ولكنها لا تملك الخيار فلا تستطيع أن تكون حبيبته وأبنا لوالدها ،فقررت أن تقتل حبها لكن تلك الأنثى التى أنجبها لم تستطع قتلها فقط قامت بتخبأتها.

وأتى ذلك اليوم الذى أراد أيهم أن يعترف بحبه لنضال،فقال لها:أتدرين أننى للمرة الأولى أشعر بالخوف من الموت ولأول مرة أريد الحياة.

فأجابته قائلة:الحياة تصبح ثمينة عندما يلاحقنا الموت والموت يصبح قريبا عندما نلاحق الحياة

لطالما كان يلاحقنى الموت ولم تكن الحياة ثمينة،ولكنها أصبحت ثمينة عندما بدءت ألاحق الحياة

احيانا تمنعنا ظروفنا من الحياة

وأحيانا يجبرنا الحب على الحياة.

وأحيانا يجعلنا أنانيين،نحب أنفسنا فقط.

لما لا طالما يجعلنا نشعر بأنفسنا ونريد أن ننصفها لو قليل.

الحب هبة لم يرزق بها الكثيرون

ولكننى رزقت حبك

تلعثمت وقتها لا تدرى بماذا تجيبه؟! لذا صمت،خشيت أن تعترف بحبها فتخسر أبيها أو ترفض حبه فتخسره ولكن متى حصلت عليه لتخسره؟!

فقالت له بحزم:قلت لك الحب هبة من الله ليست من قدر الكثيرين وأنا أولهم، الحب وجد ليبقى،ومادام وضعه الله فى قلبى سيجد مكانا فى قلبك،وأنا سأبقى فى إنتظار هذا اليوم

هذا اليوم لم يخلق بعد،قدرى هو أننى ولدت لاكون الأبن الوحيد لابى،هل ستحب ذكرا

بل أحببت أنثى لم أرى فى جمالها أحد.

هذا لن يغير فى الأمر شيء

كانت تريد أن تقول له أننى لم أحب احدا غيرك،ولكن لسانها كان مكبلا يمكنها أن تخزل العالم بأسره دون أن ترى الندم فى عين والدها لقد رأته مرة واحدة وستكون الأخيرة.

منذ ذلك الحديث وضعت نضال حجرا على قلبها وطلبت من أيهم ألا يحاول رؤيتها وأن ينساها فهى لم تخلق للحب،ولكنه أخبرها أنه سينتظر ذلك اليوم الذى يشاء فيه القدر أن يكتمل حبه وتأتى إليه عروس مزينة،لكن

نضال كانت تدرى أن لا أمل لهذا الحب،ومرت قرابة السنتين لم ترى فيهما طيف أيهم لقد إحترم كلامها،ولكنها فى كل يوم كانت تنتظر أن تراه حتى لو صدفة، لكن كان للقدر مخططات أخرى فقد شن الجيش الإسرائيلى حرب على بلدتها رأح ضحيتها أبيها، فى هذه الفترة كانت مدمرة نفسيا فقد فقدت أبيها واصحبت وحيدة تماما،فقدت من أرضعها النضال فقد من علمها أن حب الوطن أهم من أى حب ،وأن إسرائيل هى العدو الذى يجب تدميره وأن الموت دفاعا عن الوطن حياة، مات هو لكن ظلت مبادئة تجرى فى عروقها،فى هذا الوقت ظهر أيهم مرة أخرى ليكون لها السند فقد ظل بجوارها بدون شروط وبدون مطالب.

وعندما وجدته نضال يفنى حياته لأجلها قالت له ذات مرة:ألن تمل،فقد إخترت طريقى منذ البداية

فقال لها: وانا إخترت حبك

لن أكون لك

وأنا لن أكون لغيرك

أنت شاب عش حياتك كما تريد

فضحك وهو يقول: وماذا أفعل إن كانت حياتى لا تريدنى أن أعيشها

تربطنى وعودى

وانا يربطنى حبك

حبك سيجعلنى أخون أبى

بل حبى سيجعلك تعيشين حياتك كفتاة طبيعية ربما هذا سيكفر عن ذنب أبيك

وماذا عن النضال؟

سنناضل سويا..لاجلنا

وماذا تريد الآن؟!

أريد أن تصيرى زوجتى

ولكن أين سنعيش وكل ما يررف حولنا هو الموت

الموت بجوارك حياة والحياة بدونك موت

اتحبنى الى هذة الدرجة

بل أحب حياتى وأنت حياتى

لم تستطع نضال أن تقاوم حبها إلى هذه الدرجة فقد أرادت أن تكون بجواره وألا تتركه مطلقا فتزوجته ولكنها لم تترك الجهاد،ربما لم يتركها الجهاد ضد مغتصبوا دولتها، ولكن الله قدر لها أن تناضل ضد المرض فبعد سنة من زواجهما أصيبت بالسرطان واضطروا إلى ترك فلسطين،والذهاب إلى أمريكا للعلاج ولكان علاج نضال أخذ وقتا طويلا،إلا أنها إستجابت للعلاج بشكل كبير إلى أن شفاها الله فإستقرت حياتهما وظنا أن رياح الحزن ذهبت دون رجعة ونسمات السعادة تسللت عبر نوافذهما لذا فتحاها على مصرعيها لم يدركا أن رياح الحزن ستهب مرة أخرى ولكنها هذه المرة ستكون أشد دمارا.

(٤)
الجيران

مر أسبوع على إقامة ماريا فى مدينة نيويورك ولكنها مازلت تشعر بالغربة حتى أنها أحيانا تشعر بالسخرية من نفسها عندما تشتاق لزحمة الشوارع ومنظر القمامة،الى الطوابير التى توجد فى كل مكان ورخامة سواقين الميكروباص،أما هنا كل شىء نظيف أكثر من اللازم،مرتب بشكل مميت وكأن كل شىء ثابتا لا ينبض بالحياة،إلا إنها إتخذت من الجيران مسكنات لوجع الغربة فقد تعرفت على بعض من جيرانها فى المنطقة أحبتهم كثيرا وخاصة العم إقبال صاحب محل الأجهزة الألكترونية فهو رجل حفيف الظل،طيب القلب يعيش هو وإبنته الوحيدة فى العمارة المجاورة لمنزلها، تعرفت عليه عندما ذهبت لتشترى منه حاسب آلى غير الذى تركته فى مصر واكثر ما أحبته فيه أنه يحكى لها كثيرا كلما قابلته ،هذا الرجل الذى يقارب الستين من عمره ممتلىء الجسد إلى حد ما ذات قامة متوسطة الطول يرتدى دائما جلبابا ابيض ويضع على رأسه دائما طقية خضراء لديه لحية كثيفة مخطبة بالحناء ويرتدى نظارة تشبه نظارة غاندى إلى حد كبير،على الرغم من أنه من باكستان إلا أنه يتحدث العربية بطلاقة،أحبت الحديث معه،فكلما مرت فى الشارع وألقت السلام عليه،كان يرد السلام مصحوبا بكلمة عروستى(وعليكى السلام ورحمة الله وبركاته يا عروستى)

ذات مرة عندما كانت ماريا تمر من امام محله نادى عليها وأخبرها بأمر إرتعش لأجله جسدها فقد قال لها: ثمت خطب ما أريد أن أخبرك به ولكننى لم أكن أعرف أحد منكم بعد، ولكن الآن بعدما تعرفت عليك فلابد أن أخبرك بهذا الأمر خوفا عليك حيث أننى رأيت جاك ذات مرة يتجول أمام

منزلكم وقتها ظهر "على" الذى كان يحاول الخروج من البيت متكأ على عكازه،إلى أن دار بينهما حديث لم أستطع سماعه،بعدها خرج جاك ممسكا بيد على و عندما مرا من امام المحل كان يحاول إستدراج على ليعرف منه معلومات عنك كدراستك وأسمك إلا ان على كان ذكيا فلم يستطع إستدراجه، هذا الأمر أقلقنى بشدة عليك فهذا الشخص سىء جدا ولا يكن أى محبة للمسلمين وخاصة العرب ومجرد سؤاله عنك يدعوا للقلق،لا أحد هنا يعرف عنه شيئا، فهو يغيب فاجئه ويظهر فاجئة، كل ما أعرفه عنه وهذا ما جعلنى لا أستريح له مطلقا أنه يهودى كما أنه كان يعيش فى إسرائيل.

وقعت كلمات العم إقبال على ماريا وقوع الصاعقة هذا يؤكد ما شعرت به ناحيته فمنذ اللحظة التى رأته فيها إنقبض قلبها ،لم تكن يوما عنصرية ولكنها بشكل غريزى تكره اليهود بشدة تكره أشكالهم و مناظرهم الشيطانية،تشعر أنهم مثل الوباء الذى إنتقل إلى العرب ولم يتخلصوا منه حتى الآن،أولئك القتله المشردون،جأءوا إلينا حفاة عراة فإمتلكوا أراضينا وشردوا أطفالنا وإرتكبوا الكثير من الفظائع والمذابح من فينا لا يتذكر حادثة بحر البقر والأطفال الأبرياء الذين تناثرت دمائهم الطاهرة على كراستهم لترسم بلونها الأحمر جريمة أخرى إرتكبها اليهود، هؤلاء ،من منا لا يتذكر مشهد مقتل محمد الدرة الذى كان يختبأ خلف ظهر أبيه خوفا من وابل الرصاص الذى يتساقط فوق رأسه من منا لا يتذكر منظر أبيه وهو يلوح لجنود الجيش الإسرائيلى أن يوقفوا إطلاق الرصاص، فى مشهد ضرب الإنسانية فى مقتل ،إنهم مجرمون سارقون لا يستحقوا الرحمة ولا الغفران، كلما تذكرت ماريا هذه الحوادث تغلى الدماء فى عروقها،الحقيقة الغير قابلة للشك أنها مصرية وكأى مصرى حقيقى فقد رضعت كره اليهود مع لبن أمها،لذا بمجرد أن تذكر أمامها كلمة يهودى لا تتذكر سوى الدماء،و مناظر جثث الأطفال الأبرياء.

هتفت ماريا فى حنق:الآن ماذا يريد السيد جاك،لا أدرى ولكنه أن كان يريد شيئا فهذا الشيء لن يكون خيرا من قريب أو من بعيد.

قاطع العم إقبال تفكيرها وهو يقول بماذا شردتى ياإبنتى

-لا شيء يا عم إقبال،ولكننى لا أريد لهذه الغربة أن تقتلع جزء منى كما فعلت بلاد غيرها.

-شرد العم إقبال وكأنه يتذكر شيئا: أحيانا يا إبنتى تقتلعنا الغربة بأكملنا وليس جزء منا فقط،لكن لا تقلقي فلن تنال منك مطلقا ،فهى تنال من الذين أرادوها سواء مجبرين أو راضين ولكنك لا تريدها أنك تريدى الوطن.

-أتمنى ذلك.

صحيح يا عم إقبال أريدك أن أسألك عن شيء ما.

تفضلى يا إبنتى.

هل كنت تعرف مالك بيتنا القديم

نعم أعرفة فقط بحكم الجيره فلقد فارقت زوجتى الحياة منذ سنتين وقد أثر ذلك على هينا إبنتى مما جعلنى أضطر إلى ترك شقتى القديمة بما فيها من ذكريات والمجيء إلى هنا،ولكن منذ أن آتيت وقد علمت أن هذا الرجل يكره المسلمين كثيرا مما جعلنى أبتعد عنه فلم يكن بينى وبينه تعامل،لكن كل ما أعرفه أن زوجته أصيبت بشلل نصفى الأمر الذى جعله يبيع هذا البيت حتى يستطيع علاجها

قالت ماريا بإستغراب:وما الذى يجعله يكره المسلمين إلى هذا الحد.

لقد كان لدى نفسك فضولك وعندما سألت بعض الجيران هنا قالوا لى أن إبنته قتلت فى حادث إنفجار مبنى التجارة العالمى،والذى كان المتهم الأول فيه هو المسلمين،منذ ذلك الحين وهو يرى المسلمين إرهابين وقتله.

ربما لم تندهش ماريا لكلام العم إقبال عن مالك بيتها القديم فهى تعرف تماما ما حدث للمسلمين بعد هذا الحادث ومدى كره الشعب الأمريكى وغضبه منهم ولكن ما كانت تستغربه كثيرا ما قاله عن جاك لذا عادت إلى المنزل ولم يذهب عن بالها الكلام الذى قاله ذلك الكلام يجعلها ترتعش،ذلك اليهودى نيته ليست خير قرأت ذلك فى عينيه الكثير من المرات،كانت فى كل مرة تكذب إحساسها،ولكن بهذا الكلام الذى سمعته من العم إقبال تأكد لها صدق إحساسها،إذا لماذا يحوم هذا الرجل حول بيتها؟!ما الذى يعنيه من كلامه فى كل مرة تحدث معها؟!ماذا تعنى تلك النظرات الذى يرمقها بها كلما رآها؟!يا إلهى سأجن حتما أن لم أجد أجوبة على أسئلتى،لابد أن أتحدث مع أحد فى هذا الشأن وإلا فقدت عقلى،ومن غير على سنيصت لكلامها ويطمئنها ولكن لسوء الحظ،لا يوجد فى المنزل فقد ذهب إلى المدرسة ،ليترك بداخلها فراعا لن يستطيع أحد ملئه،فبعدما يخرج إلى المدرسة تظل شاردة طوال اليوم لا تتحدث إلى أحد ترتب المنزل سريعا مع والدتها،ثم تتسكع قليلا فى الحديقة التى مازلت حتى الآن تحاول إعمارها،ولكن هذا لا يملء يومها،على الوحيد الذى يهون عليها كل شىء،والآن تريد أن تتحدث معه بشكل ملح ،لم يكتمل تفكيرها حتى جاء على.

-فهتفت مهللة:أخيرا عدت أيها الذكى

- لم يجيبها،ودخل مسرعا إلى غرفته

وهذا الأمرجعلها تركض إلى غرفته لكى تطمئن عليه ففوجدته يبكى كثيرا وبحرقة

-ركضت إليه وهى تصرخ :ما الذى حل بك يا على؟

-فإحتضنها ثم قال وهو يشهق بالبكاء:إننى شخص سيىء يا ماريا

هتفتت ماريا فى ذعر:ماذا بك يا أخى لا تقلقنى عليك إلى هذا الحد.

فقال لها:منذ أن إلتحقت بالمدرسة وأنا أعانى الكثير من التنمر من مجموعة زملاء فى فصلى يسخرون من تلعثمى فى الكلام ومن قدمى العاجزة ،كل يوم أسمعهم يسخرون منى دون أن أتفوه بكلمة فأعى تماما أنهم أشخاص سيئين ولا يهمنى كلامهم.

إلا أننى اليوم رأيت مجموعة من الطلاب الأكبر سنا يلعبوا كرة القدم فى ملعب المدرسة هذا الأمر جعلنى أجلس للمشاهدة لعشقى الشديد لكرة القدم،لكن هؤلاء المتنمرون فى فصلى جاءوا ورائى وظلوا يسخرون منى مما جعلنى أترك الملعب وأذهب، فإذا بواحد ممن يلعبون يضربنى بالكرة فأسقط على الأرض ويسقط منى عكازى ،فظلوا يضحكون على كثيرا إلى أن قال من ضربنى بالكرة وقد عرفت أنه الأخ الاكبر لأحد هؤلاء المتنمرون:هذا دائما هو حال العرب لا يبعثون إلى أمريكا سوى العجزة أو مقطوعى اللسان.

هذا جعل الدم يغلى فى عروقى فأجبته قائلا:ربما هذا فقط ما يليق بأمريكا خاصتك.

لن أفعل بك شيء أجازى عليه من المدرسة فقط سأجعلك تدرك مقدار العجز المصاب به،فأخذ عكازى،وقام برميه بعيدا عنى،فعلا فى هذا الوقت لأول مرة شعرت بالعجز فظللت أزحف على الأرض إلى أن أمسكت به، كل ما حدث لم يزعجنى بقدر إحساسى بالإستياء من الله هذا الإحساس هو الذى أزعجنى كيف لى أن ألوم الله؟!كيف أتجرء على هذا ؟!إننى يا ماريا أكثر الأطفال حظا فى هذا العالم فقد رزقنى الله بوالدين يغدقوا على الحب وأختا كانت دائما أما ثانية لى فكيف حال الأيتام الذين لا يجدون من يغطيهم عندما ينزلق الغطاء من فوقهم بالليل لا يجدون من يسهر بجوارهم عندما يمرضون؟!أننى عندما أجوع أجد دائما طعامى المفضل وعندما أشعر بالعطش أشرب من ماء معدنية فكيف حال الاطفال فى أفريقيا الذين يعانوا المجاعات ويموتون

عطشا وجوعا ؟!كل يوما أحتار فى إختيار ملابس أخرج بها اليوم من كثرة ملابسى التى تملء الخزانة فكيف حال المشردون وأطفال الشوارع الذين لا يجدوا ما يغطى أبدانهم من برد الشتاء أو شمس الصيف؟!أنى الشخص الأكثر حظا على وجه الأرض فكيف أستاء من الله؟! أنى شخصا سيئا جدا لا يقدر نعم الله عليه ألم أفكر أن الله جعلنى أتلعثم لكنه لم يخرصنى نهائيا؟! أليست هذه نعمة؟! ألم أفكر بأن الله أصاب قدم واحدة ولم يصب الأثنين فأجلس قعيد البيت طيلة حياتى ؟!أنى شخصا سيء.

فإحتضنته ماريا بقوة وهى تقول له:لا يا أخى أنت لست سيئا أنت عظيم جدا فقد أدركت فى سنك الصغير هذا ما لا يدركه رجالا كبار، فقد أدركت أن الله لا يأخذ سوى ليعطى،وحين يعطى فلا حدود لعطائه،فى سنك الصغير هذا تقدر نعم الله عليك تشعر بكل المعذبون والمنسيون،تحترم الضعف وتقدر القوة،إنهم هم السيئون الذين يظنون أن الكون يسير فى فلكهم وأنهم أقوى منك،ولا يدركون أنك الأقوى بذكائك وتفكيرك الناضج ،لا تحزن يا أخى سيأتى يوما ويرون فيه قوتك الحقيقية،وهذا اليوم قريبا جدا،أما الآن فلابد أن أخبر أبى بما حدث حتى يلقنهم درسا لا ينسوه.

فهتف على فى قلق:لا يا ماريا أرجوك لا تخبرى أبى لا أريده أن يقلق على لكن يا على إن لم يوقفهم أحد عند حدهم سيعيدون الكرة مرة أخرى.

-لن يفعلوا بّإذن الله.

-حسنا :لن أخبر أبى هذه المرة ولكن إن أعادوا الكره سألقنهم درسا لن ينسوه.

خرجت ماريا من غرفة على مستاءة من نفسها، كيف لها ألا تفهمه الى هذه الدرجة ،كيف لم تلاحظ معاناته منذ دخوله المدرسة؟!ألم تلاحظ تلك الدموع الذى كان يخبأها؟! أإلى هذه الدرجة إستطاع خداعها؟! أوراء هذا

الوجه المبتسم دائما والمشاكسة المستمرة وخفة الظل كل هذا الألم والوحدة؟!!

قالت ماريا فى حزن:أنت لست سيئا مطلقا يا على أنا السيئة التى لم تفهم أخاها التى دائما تذهب لتشكو له همومها دون أن تكترث لهمومه القاتلة، أنا السيئة يا على التى لم تحظ أن هذا الوجه الذى تظهر به ما هو إلا وجه مهرج مليىء بالألوان والبهجة تخفى خلفه هذا الوجه العابث الحزين،إلى الآن كنت أنت المهرج وأنا الجمهور الذى يضحك على نكاتك المبللة بدموعك،أنا أسفة يا أخى بكل ما فى هذه الكلمة من إعتذار وتوسل،لطالما كنت لى نعم الأخ ونعم الصديق كنت تفهمنى من نظرة عينى من طريقة حديثى،وأنا لم أفهمك يوما بل لم أبذل الجهد لذلك..

عاد والدها من عمله بعد على بحوالى نصف ساعة،كان منهكا كعادته عند عودته من العمل،ثم سأل عن والدتها فقالت له: فى المطبخ تجهز الغداء

فقال لها بصوت متعب:حسنا سأذهب لاستحم وأستريح لبعض الوقت، نادى على عندما يجهز الغداء ثم أعطاها حقيبته ومعطفه الجلدى ،ودخل غرفته.

بعد تناولهم للغداء جلسوا جميعا أمام التلفاز فقالت له:أبى أريد أن أتحدث معك فى موضوع مهم.

فشهق على خائفا فقد إعتقد أنها ستخلف بوعدها وتقول لوالدها ما حدث له فى المدرسة.

فنظرت إلية لكى يطمئن ثم أردفت قائلة:حدث اليوم يا أبى شيء غريب،حيث أننى إلتقيت اليوم بالعم إقبال ،وبدأت تقص عليه ما قاله لها العم إقبال،عن المدعو جاك

فهتف أمى فى ذعر:يهودى!!

فقال على:نعم حدث ذلك،وكنت سأخبركم به فسبقتنى ماريا

فقال والدها فى هدوء كأنه يريد أن يتعامل مع الموضوع بشكل طبيعى:أعلم ذلك منذ اليوم الأول الذى رأيته فيه،وفأنا لا تخطىء نظرتى،لذا تحريت عنه وصدق حدثى،إنه يهودى من أصول أمريكية،كان يعيش فى إسرائيل هو ووالدته التى لها ميولا سياسية ولكنه قبل خمسة عشر عاما بدأ يعاقر الخمر والمخدرات بشراهة إلى أن أدمن فقات والدته بطرده من إسرائيل حتى لا يعرقل طموحها السياسة هناك،فقد أصبح بالنسبة لها متاعا ثقيل على طائرة أحلامها وجاء مرة أخرى للعيش فى أمريكا.

-ألم تعرف يا أبى سبب إدمانه

-لا،ولكن حتما ورائه قصة،ثم أردف لا تخافى يا ماريا فأنتم عائلة دبلوماسى مصرى،لن يستطيع أن يتسبب بأذى لاى أحدا منكم.

على الرغم من طمأنت والدها لها إلا أنها تشعر بشىء غريب تجاه هذا الرجل،ربما تشعر بالخوف لا تدرى!!

قطع والدها تفكيرها وهو يقول لها:ماريا،لابد أن تجهزى نفسك سنذهب بعد غدا إلى بافلو،حتى تباشرين دراستك،وكما قولت لك ستمكثين فى بيت عمك يوسف إلى أن أجد لك سكنا آخر.

بدا العبوس على وجه والدتها التى تركتهم وذهبت كما بدا العبوس على وجه على الذى بدوره قام هو الآخر.

الآن نوعا آخر من الغربة،لنرى ما تخبأه لنا الأيام القادمة

***

دخل جاك منزله،غاضبا فهو لم ينسى ما فعلته ماريا البارحة فأخذ يحطم كل شيء أمامه،كان يصرخ بصوت عاليا كمعتقلا سياسى يعذب بصدمات كهربائية،ثم صرخ وهو يقول هؤلاء العرب الأغبياء المتخلفون من يخالون أنفسم،فهم ليسوا سوى حشرات حقيرة مكانها الصحيح تحت حذائى،هذه ماريا من تخال نفسها لتحدثنى بهذه اللهجة؟!كيف لها أن تحرجنى إلى هذا الحد؟!لقد مددت يدى لمصافحتها فقط لكنها لا تدرين ما أنا قادرا على فعله حتى انها لن تستطيع تخليه فى أسوء كوابيسها.

لطالما كره جاك العرب وخاصة المسلمين وسيستمر فى كرهه لهم،يتمنى دائما لو كان بإستطاعنه إبادتهم جميعا كما أبادت أمريكا الهنود الحمر فى بداياتها،فقد كان لديه حقد دفين تجاههم ذلك الحقد لم تخمد ناره حتى الأن،فالعرب بالنسبة له شعب يعانى من إنفصاما فى الشخصية،فهو شعب يتشدق بالسماحة والسلام وهو أبعد ما يكون عن ذلك،هؤلاء القوم الجهلاء الرجعيون الذين يجاهدون فى تغطية نسائهم ويحللون لانفسهم النظر إلى نساء الغير،يقولون دائما أنهم لا يشتهون النساء وعندما تحين لهم الفرصة يطبقون الشرع،هؤلاء النساء الذين يدعون الشرف فى العلن ثم يفعلون الأفاعيل خلف الأبواب الموصدة.

إنتهى من موجته الجنونية التى نعى فيها العرب بأسوء الصفات،وبعدما خارت قواها هتف فى إستسلام:لن أنساها مطلقا فقد جن قلبى بحبها،وكأن قلبى كان يدق للأجلها فقط،كنت أريد أن أجلب لها جميع متاع الدنيا فقط لألمح فى عينيها نظرة حبا،لكنها كانت مهرة جامحة بحاجة إلى ترويض كان لجمالها الجبلى أن يؤثر قلوب أشد الرجال وأقواهم ويحولهم إلى قطعة شطرنج فى يديها تحركها كيفما تشاء وانا كنت من بين هؤلاء الرجال الذين وقعوا فى غرامها دون أن يأخذ أحد بيديهم ليقفوا مرة أخرى،ولكنها لم تقابل

حبى سوى بالكراهية،والحقد،ذلك الحب الذى تملك قلبى مثلما يتملك الفخ من فريسته، كان فى قلبها ما يضاهيه كرها وإحتقارا،تلك العيون الجميلة التى لم ترشقى أبدا بنظرات الحب بل بسهام الكراهية،كنت أريد أن أعيش معها كل حياتى وهى لم تريد سوى موتى.

(٥)
صديق أبى

قالت لها امها ذات مرة:أن الغربة ليست غربة المكان بل غربة الروح،عندما نترك من نحب فهذه غربة حتى إذا بيقينا فى نفس المكان عندما يتركنا من نحب فهذه غربة،فتعالى نحمل فى حقيبة سفرنا دائما من نحب تعالى نعانقهم بشوق حتى تتداخل أجسادنا حتى نذهب بهم معنا إلى أى مكان.

اليوم يا أمى صدقت كلامك عندما بدأت بتحضير حقيبة سفرى لكى أذهب بمفردى لاول مرة ،صدقت كلامك عندما عانقتك بقوة وكأنى أريد أن تمتزج أجسادنا سويا،اليوم صدقت كلامك عندما تغلبت دموع على على سخريته عندما لم يرد أن يعانقى لقد قالها صريحة:لن أعانقك يا ماريا فإن عانقتك لن أتركك تذهبين،اليوم شعرت حقا بالغربة شعرت حقا بأن الغربة هى غربة الروح واليوم تركت روحى وذهبت الى مدينة أخرى تضاف إلى قائمة غربتى ولكنها كانت بداية القائمة وليست نهايتها لان ما أسميته غربة قبل الآن لم يكن سوى خوفا من الغربة ها أنا الآن أعانى غربتى بعيدا عن عائلتى.

وصل القطار إلى مدينة بافلو فى حوالى الساعة العاشرة مساء كان برفقها والدها الذى قال لها أن صديقه يوسف سينتظرهما بالمحطة ،سارت مع أبيها حتى مخرج المحطة تجر فى حقيبتها التى لا تصدر صوت على هذه الارضية المبلطة لا تدرى لماذا سرت رعشة فى جسدها تشبه تلك الرعشة التى يشعر بها الإنسان عندما يتم تخديرة شعرت بتنميل فى قدميها،كادت أن تقول لوالدها توقف فأنا لا أستطيع السير لكن فأجأه إقترب شخصا منهما كان بإنتظارهما فى المطاروقتها إحتضنه والدها بقوة.

أما هى فتثمرت فى مكانها،وهى تخاطب نفسها فى دهشة قائلة: أيعقل أن يكون هذا صديق أبى،فالذى يعانق أبى شاب يبدو فى أواخر العشرينيات من عمرة مفتول العضلات قوى البنية لا يظهر على ملامحه علامات التقدم بالعمر.

أعرفك يا ماريا على آدم إبن عمك يوسف.

الآن فهمت هذا إبن صديق أبى.

فنظر إلى ماريا مبتسما وهو يقول: سعيد جدا بلقائك آنسة ماريا.

فبادلته نفس التحية.

ثم قال والدها سأتركك تذهبين مع آدم الى المنزل،وانا سأذهب إلى نيويورك حتى ألحق عملى فى الصباح فهناك إجتماعا ضرورى فى السفارة لأبد أن أتواجد به

هتفت ماريا فى نفسها:يا إلهى ليت لأبى أن يظل معى فكيف أذهب مع هذا الشخص الغريب؟ إن كان العم يوسف فلا بأس،فهو رجل كبير فى مقام أبى لكن هذا الشاب فكيف سأسير معه بمفردى فى هذا الليل؟!،ليت المسافة تتقلص وأصل إلى منزلهم فى لمح البصر،ركبت ماريا سيارة آدم والتى يبدو من شكلها أن باهظة الثمن.

قاطع آدم تفكيرها وهو يقول:آنسة ماريا جئت إلى أمريكا من قبل

فأجابته بإقتضاب:لا

إذا سوف تقضين وقت رائع،هنا إنها بلد جميلة

-لا شك ولكن بلدى الأجمل

فضحك بسخرية:هل تقارنين مصر بأمريكا؟!

فأجابت بحزم:لا طبعا،فالمقارنة لابد لها من التكافؤ فكيف أقارن بلد عريق مثل مصر بمجموعة ولايات صغيرة

-يبدو أنك تكرهين أمريكا كثيرا

-بل أحب مصر كثيرا

-يبدو أننا سنتبادل أطراف الحديث كثيرا فأنا أحب أن أتحدث مع من يخالفنى فى الرأى

-هل هذا من الضرورى؟!!

- فأجابها لكى يخفى إحراجه :لا أعلم، لكن ما أعلمه الآن أنه وصلنا إلى المنزل ومن الضرورى أن تدخلى الأن.

لا تدرى لماذا كانت فظة معه إلى هذه الدرجة ،وكأنه عدوا تنش عليه حربا هذا مجرد شخص قال وجهة نظره إن كانت صابئة أم خاطئة فلا يستحق كل هذا الهجوم وخاصة أنها ستمكث فى بيته ووسط عائلته بضع من الوقت كما أن والده صديق والدها،كما أن مصر لم تعطيها توكيلا للدفاع عنها فى كل مكان.

اه يا ماريا لماذا لا تهونين الامر عليك.

دخلت ماريا منزل العم يوسف والذى كان أشبه بالقصر حيث أنه منزل كبير الحجم مكون من ثلاث طوابق فرأت فى بهو المنزل إمرأة شقراء،فخمنت أنها إحدى جيرانهم جاءت لزيارة زوجة العم يوسف.

فقال آدم بسرور:آنسة ماريا أعرفك على السيدة سيلينا أمى

صدمت لسماعها هذا الكلام،فهتفت فى صمت:يا إلهى هذه والدته ،بمعنى أنها زوجة العم يوسف إذا ليست مصرية كما تصورت إنها أمريكية،يبدو أن أبى لم يخبرنى الكثير عن أسرة العم يوسف فهى ليست عائلة مصرية كما ظننت إنها عائلة أمريكية ،لا أدرى كيف سأتأقلم معهم؟! فلو كانت زوجته مصرية لهونت على الكثير من العناء والإحراج،لكنها أمريكية.

قالت سيلينا بلهجة عربية متقطعة:سعيدة بلقائك يا ماريا،لقد شرح لى جوكل شيء عنك،ارجو أن تسعدى بوجودك معنا

جو!! لقد تحول العم يوسف بوجودة فى أمريكا الى جو،ألا يعنى هذا انه نسى اصله المصرى وتحول إلى أمريكيا بالكامل.

حسنا تعالى يا ماريا لترى غرفتك لكى تستريحى من عناء السفر.

أومئت ماريا برأسها ثم سارت وراء سيلينا

سرعان ما دخلت ماريا غرفتها شعرت بالوحدة والخوف شعرت برغبة شديدة فى البكاء والصراخ هذا الشعور إنتابها للمرة الثانية إنها تعيه جيدا فقد بعدت قبل هذا اليوم عن ماما ماريا وها هى تبتعد الأن عن والدتها،كانت تعتبر نفسها دائما فتاة محظوظة فقد رزقها الله بدلا من ام واحدة بإثنتين والأن إبتعدت عنهما فألاولى إبتعدت عنها مجبرة تماما والثانية لا يكمنها القول أنها إبتعد عنها مخيرة لكن الفراق قدرنا نحن نلتقى لكى نفترق كل لقاء يحمل بين طياته فراق والفراق ألم ومعانا الأشد ألما من فراق من نحب ذكرياته عندما تهجم على الذاكرة بجيوشها الفتاكة فنقف امامها عاجزين لا نملك حيلة غير البكاء البكاء وقت الفراق والبكاء عندما نتذكر الذين إفترقنا عنهم،ولكنها لم تنسى بل تعيش الفراق كل يوم.

كانت ماريا طفلة صغيرة عندما كانت تعيش فى قنا،قنا أحب البلاد إلى قلبها ففيها كانت ولادتها وفيها عاشت الحب والرعاية،وفيها كانت جارتها وامها الثانية "ماما ماريا" كما كانت تنايها،كانت شديدة التعلق بها،فقد كانت تقضى معظم الوقت برفقتها هى أول من أمسكت بأناملها الصغيرة ومن فوق ذراعيها كانت ترى العالم فإن كانت أمها هى من أعطتها الحياة فماما ماريا هى من أعطتها القدرة على الحياة لم تعتبرها فقط إبنتها بل كانت بالنسبة لى قارب النجاة الذى فصلها عن الغرق فى هموم الحياة وحزنها،فتشبثت به

جيدا،فأصبح القارب جزء من الحياة وليس المنقذ فقط فأصبحت ماريا كل حياتها وكانت بالنسبة لماريا أم ثانية فهى أول من ذهب معها إلى المدرسة بكيت عندما تركت يدها عند بوابة المدرسة وذهبت فركضت إلى حضنها وهى تبكى وتقول:لا تتركينى تعالى معى.

فقالت لها جملة تتعجب من تذكرها لها إلى الآن:ثمت دروب فى حياتنا لابد أن نسلكها بمفردنا فقط ظلنا هو من يرافقنا حتى ظلنا أحيانا يتخلى عنا وهذا أول درب ستسلكيه بمفردك فالمدرسة فقط للتلاميذ وليس لأهلهم وأقاربهم لذا أسلكى هذا الطريق دون خوف،هذا الطريق الوحيد الذى أأوكد لك أنك لن تندمى أنك سلكتيه حتى لو شعرت بالوحدة فى البداية إنه الطريق الذى سيصنع ماريا القوية فالعلم هو الطريق نحو القوة نحو المجد نحو أن تكون إنسان نافع إذهبى وحلقى ولا تنتظرى مساندة من أحد،حتى منى.

وقتها لم تفهم هذا الكلام جيدا،ولكنه كان قادرا على جعلها تذهب بمفردها إلى المدرسة دون خوف أو تردد ولكنها الآن فهمته جيدا كان طريق المدرسة هو أول طريق تسيره بمفردها وليس أخر طريق.

قالت ماريا فى إشتياق: ليتك موجودة معى يا ماما ماريا لأخبرك أن طريق المدرسة ليس طويلا، كنت أقطعه كل يوم لاجدك بإنتظارى خلف بوابة المدرسة ‘ليتك موجودة لاخبرك بأن الحياة أجبرتنى لأسير فى طريق بعيدا عنك تذكرت ماريا ايضا ذلك اليوم الذى أخبرها فيه والدها بأنهم سيتركون قنا ويذهبوا إلى القاهرة حيث مكان عمله الجديد لم تدرك وقتها معنى الرحيل عن البيت وبدء حياة جديدة فى مكان جديد كل ما كانت تدركه أنها ستترك ماما ماريا ستبتعد عنها،الأن تتذكر ما حدث وقتها كأنه مشهدا شاهدتة فى أحد الأفلام،فقد جاءت ماما ماريا لكى تودعهم فإرتمت فى حضنها وظلت ملتصقة بها وهى تبكى وتقول لها: أننى لا أريد أن أذهب وأتركك.

فقالت لها مبتسمة:لا تبكى يا ماريا سآتى لزيارتك عم قريب وأنت عندما تكبريين تعالى لزيارتى.

ثم جاء والدها وأخذها من يدها وهى تنظر إليها والدموع تملأ عيناها، إلا أن ماما ماريا حاولت التماسك والإبتسام محتجزة الدموع فى عيناها إلى أن فاضت عيناها بالدموع فركضت لتختبأ خلف حائط حتى لاتراها ماريا إلى أن وضعها والدها فى السيارة فظلت ملتصقة بزجاج النافذة عساها ان تنظر إليها ولكنها لم تفعل.اليوم تكرر نفس المشهد لكنها كبرت وفقدت حتى حق البكاء والإلتصاق بمن تحب.

سمعت ماريا خارج غرفتها صوت فتاة تتحدث إلى سيلينا بصوت عالى وكأنها متذمرة من شىء ما،كانت هذه الفتاة تصرخ وهى تقول:ألم أقل لابى ان صديقتى سوف تأتى لتمكث معى هذه الغرفة التى أعطاها لهذه الفتاة الغريبة كانت ستمكث بها صديقتى

فردت عليها سيلينا:أخفضى صوتك،فهى موجودة فالغرفة ،انا لا أريد مشاكل مع أبيك عندما يأتى صبى غضبك عليه،ثم أن هذه الفتاة لن تمكث طويلا،والبيت مليء بالغرف يمكن لصديقتك أن تمكث فى أى غرفة أخرى

يبدو أن هذه الفتاة هى إبنة العم يوسف كما يبدو أن ماريا هى المقصودة من هذا الحديث،لكن كيف لها أن تتحدث مع والدتها بكل هذه الوقاحة؟! ،وبعدما سمعت ماريا هذا الحديث لن تقوى على المكوث هنا،لذا حسمت الأمر فعندما يأتى العم يوسف ستجعله يجمع لها سكن على وجه السرعة،فهى لا تريد أن تثقل كاهل أحدا.

لذا قالت فى قلة حيلة:الأن ماذا أفعل؟ساتظاهر بعدم سماعى للحديث.

مرثلاث ساعات على وجودها فى هذا المنزل لم يأتى أحدا إلى غرفتها حتى النوم لم يأتى إليها لا تدرى ما الذى يقلقها فغدا ستذهب إلى الجامعة سوف يأتى العم يوسف بعد ثلاث أيام كما قالت لها سيلينا وهى على قيد إنتظاره.

سمعت ماريا طرقات على باب غرفتها فكانت سلينا تقول لها:تعالى لتناول العشاء معنا . كانت ماريا سترفض متحججة بلإرهاق ولكنها لم ترد إحراج سيلينا التى من الممكن أن تكون جهزت الطعام لأجلها.

وعندما ذهبت الى المائدة وجدت سيلينا وتلك الفتاة التى سمعت صوتها فجلست دون أن تتفوه بكلمة

فقالت سيلينا ماريا هذه ابنتى الصغيرة جوليا

فقالت لها من الجميل رؤيتك يا جوليا

فإبتسمت لها إبتسامة خالية من الفرح

ثم قالت فى شبة سخرية:ماريا إذا كنت لم تسطيعين جلب ملابس معك فيمكننا أن نتشارك ملابسنا يبدو أننا متقاربين فى السن.

نظرت ماريا إلى ملابسها بذهول ثم قالت بإستغراب:وما الغير لائق فى ملابسى

- أتسمين هذه ملابس،أنهن أشبه بملابس الخادمات

ضاعت الكلمات من فم ماريا بينما صاحت سلينا فى غضب:ما هذا الهراء التى تتفوهين بها

-إننى فقط أعرض خدماتى يا أمى على ضيفتنا الجديدة،ألا ترين هذه العباءه الفضفاضة التى ترتديها وقطعة القماش هذه التى تغطى بها رأسها عند رؤيتهما تذكرت عاملات النظافة الذين كانوا فى مدرستى

قالت سيلينا فى غضب جم جوليا إصمتى،فهى ترتدى الحجاب وهذا يحتم عليها إرتداء ملابس لا تظهر جسدها ولا شعرها

قامت ماريا تركض إلى غرفتها وهى تبكى بشكل هستيرى فلم تتعرض للاهانة بهذا الشكل من قبل،والأمر الأشد وطاءة أنها لم تستطع الرد على إهانتها لا تدرى كيف خانتها الكلمات أو ما الذى منعها من الرد وعقد لسانها ؟كيف تسمح لها أن تحدثها بهذا الشكل؟

فقامت بحمل حقيبتها التى لم تفرغها بعد وهمت بالرحيل لا تدرى إلى أين ولكن لن تسطيع المكوث بعد هذه الأهانة،خرجت من غرفتها تجر حقيبتها ومعها الكثير من الألم أصاب روحها

فقابلتها سلينا وجوليا عند باب الغرفة فهتف الأولى :إلى أين يا ماريا ؟

سأترك منزلكم فلا وجود لى فى منزل لا يحترمنى ولا يحترم عقيدتى

أنا لم أهن مطلقا عقيدتك،بل ملابسك

هذه الملابس جزء من عقيدتى

أننى يا جوليا أرتدى أفخم الملابس وهذه العباءة التى كنت أرتديها إبتاعتها لى أمى من أغلى محلات الملابس فى مصر لإستخدامها فى الصلاة وأنا لا أرتديها فى العادة بل أرتدى ملابس أشبة بالذى تدرتديه أنت الآن ولكن هذه الملابس لا يتعدى خروجى بها عتبة منزلى وسط أهلى أما الآن الأمر مختلف فيوجد بهذا المنزل أخيك الأكبر آدم ولا يجوز بالنسبة لى إرتداء مثل هذه الملابس فى وجوده هذا كل ما فى الأمر لكنك بدأت بهجوم غير مبرر على وكأننى بإرتدائى لهذه الملابس إقتنصت أحد حقوقك،نحن لا نعرف بعض قبل هذا اليوم ولكنك سببت لى جرحا وكأننا على عداء لعشرات السنين،ألم تنشائى فى أمريكا التى تزعم أنها بلد الحريات والديمقراطية ؟!ألم تتعلمى أن أبسط قواعد الحرية أن تدعى كل شخص وشأنه طالما أنه لم يسبب لك الأذى؟! ألم تتعلمى أن كل شخص حر فيما يرتديه من ملابس وفيما يعتنقه من أديان؟!كل هذا المفروض أن تكونى تربيت عليه منذ الصغر ،أنا لم أنشأ فى

أمريكا ولكننى تربيت على هذا كله،وعلى الرغم من أنك لم تحترمى صفة أننى ضيفة فى بيتكم لبعض الوقت،إحترمت أنا صفة أنكم اصحاب البيت،أعذرونى جميعا فأنا لا حاجة لى بأشخاص لا يحترمونى.

همت ماريا بالخروج من المنزل إلا أن سيلينا تشيبثت بيدها وهى تقول متوسلة:أرجوك يا ماريا لا تذهبى بهذه الطريقة إن جو يحب أبيك كثيرا ولن يغفرلنا هذه الخطأ إذا ما علم بما حصل.

فهتفت جوليا فى حنق:إسمعى كلام أمى يا ماريا فإن غضب أبى ستغلق أبواب البنك فى وجوهنا .

قلت لك اصمتى يا جوليا

حسنا يا امى ولكن إذا كان على أحد ترك المنزل فهو أنا

شعرت ماريا بالذنب والإستياء مما حصل فقد ظنت أنها أتت بالمشاكل دون قصد إلى هذ البيت هذا الشعور جعلها تكره نفسها تشعر أنها فتاة سيئة ولكن لا خيار أمامها سوى المكوث فى هذا المنزل حتى لا تسبب الكثير من المشاكل كما أن الوقت كان متأخرا وهى لا تعلم إلى أين تذهب.

***

(٦)
جامعة بافلو

إنبثقت الشمس بخيوطها الذهبية ودخلت غرفة ماريا عبر نافذة غرفتها الزجاجية فى منزل العم يوسف لتنير وجهها التى تبدو عليه علامات الإرهاق فهى لم تنسى حتى الآن ما فعلته بها جوليا ،قامت مثقلة الرأس لعلمها أنها اليوم ستذهب إلى الجامعة لكى تباشر دراستها تتجه نحو المرحاض لكى تتوضأ،لتصلى ركعتي الصباح ثم ركعتى لله حتى يوفقها بما هو مقبل،وبعدما إنتهت من الصلاة إرتدت ملابسها و خرجت من غرفتها تسير على أطراف أصابعها حتى لا توقظ سيلينا التى لولا معاملتها الحسنة لها ما بقيت فى هذا المنزل بعد إهانة جوليا لها فى هذه اللحظة حدثت نفسها قائلة:إنها حقا إمرأة طيبة،كنت منهارة حقا بعد هذه الإهانة كنت أبكى بحرقة،عندما دخلت على الغرفة وقالت لى:أننى حقا آسفة بشأن ما بدر من جوليا،ولكنها مازالت صغيرة لا تعى أحيانا ما تقوله،فهى مشتتة ففى هذا السن تسأل العديد من الأسئلة التى لا تجد إجابة لها وإن وجدت خافت هذه الإجابات فأحيانا بعض الأسئلة من الجيد أن تترك بلا إجابة حتى لا نرهق أنفسنا ،ومن غيرى يفهم ما تعانيه إنها فتاة نسبة إلى والدها مسلمة هذا دينها الرسمى التى لابد أن تنتمى إليه ولكن كيف وهى تعيش فى بيئة أمريكية لن تتقبلها على دينها؟!فالأفضل أن تتأقلم مع مجتمعها حتى لا تصبح منبوذة وسطهم فقد جاهدت لتكون مثلهم فتاة أمريكية لذا كلما رأت أحد مسلما متمسكا بدينه أسرعت بالسخرية منه وإلقاء التهم عليه وإتهامه بالغباء والتخلف كى تجد لنفسها مبررا ليس إلا،أحيانا اشعر أننى المخطئة فى حق أولادى،أو أننى لم استطع إنقاذهم تركتهم وسط الأمواج يعانون الغرق وحدهم،كنت أعلم أنهم لا

يجيدون السباحة ولكننى توهمت أنهم لن يغرقوا ،كانوا يسقطون إلى الأعماق ثم يطفون مرة أخرى مستنجدين بى ولكننى لم أمدد لهم يد العون،هذا يحدث يا ماريا فقط عندما يبنى البيت على أساس غير سليم فانا وجو كنا نعلم أننا لم نتزوج بسبب الحب بل بسبب المصلحة هو كان يريد الجنسية وأنا كنت أريد المال فتزوجنا كنت صغيرة وقتها لم أدرك أنا هذا البيت الكبير الذى أعيش فيه سيتحول إلى سجن كبير وسيتحول المال الذى كنت أركض ورائه إلى سلاسل تكبلنى وتعرقلنى ويصبح الرجل الذى لم يكن سوى خزنة بالنسبة لى إلى عذابى الأبدى ذلك العذاب الذى لن أستطيع العيش فيه ولا التخلص منه،أصبحت سجينة نفسى يا ماريا وسئمت خياناته المتكررة إننى أشتم رائحة النساء اللاتى يضاجعهم كل ليلة،أشعر بلمساته لهن أستمع إلى ضحكاتهن معه حتى أننى أرى أثارهن على جسده ويأتى لينام بجوارى كل ليلة وكأنه لم يفعل شىء وكأنه كل ليلة لم يهن كرامتى ويحولنى إلى مجرد جارية لابد أن تطيع أوامر سيدها والحقيقة أننى لا أستطيع التذمر ولا أستطيع لومه أنا المدانه الوحيدة أنا التى قبلت بهذا الوضع بزواج لم يكن سوى صفقة رخيصة خرجت منها الخاسرة الوحيدة وعندما يكون الزواج صفقة وليس حبا سنخسر لا محالة ما لا نستطيع تعويضة وأنا خسرت نفسى وخسرت أولادى.

هذا الكلام جعل ماريا تشفق عليها فمن يراها من بعيد يعتقد أنها إمرأة فاحشة الثراء تعيش حياتها برفاهية فلا تعرف المشاكل مطلقا ولكنه لا يدرك أن الثراء التى تعيش فيه دفعت ضريبته كل يوم،أن هذا الثراء لم ينقذها من الشعور بالوحدة والفقر،فالفقر ليس دائما فقر المال إنما فقر المشاعر فقر الشعور بالأمان فقر الشعور الحب.

إنتظرى يا ماريا،إلى أين تذهبين بمفردك.

صباح الخير سيدة سلينا ،لقد تأخرت على الجامعة.

لا تقلقى فقد طلبت من آدم البارحة أن ياتى لتوصيلك إلى الجامعة وهو ذاهب لعمله،أجلسى لتناول فطورك بينما يأتى آدم.

لقد أزعجتك كثيرا،أنت وآدم ،أنا آسفة ؟

لا يوجد إزعاج أنت فى بلد غريب ولابد لك من مرشد.

منذ أن جاءت ماريا إلى منزل العم يوسف،وهى لا ترى أدم يسكن معهم وهذا الأمر جعلها تسأل سيلينا عن هذا،فقالت لها أنه منذ وقت طويل حدث بينه وبين والده خلاف لذا ترك البيت فيأتى لزيارتها أحيانا عندما يعلم أن والده فى رحلة عمل.

رن جرس المنزل فكان آدم الذى بدا أنه على عجلة من أمره فإحتضن والدته وحيا ماريا،ثم خرج مع ماريا من المنزل وركبا سيارته.

شكرلك يا آدم لقد أزعجتك.

لا يوجد إزعاج يا ماريا،فطريقنا واحد

لقد تحدثت معك بطريقة غير لائقة،أعتذر عن ذلك

لا تعتذرى ربما كان كلامى الغير مقصود مزعجا لك،ولكننى أريد أن أقول لك أننى أحب مصر كثير وذهبت لزيارتها أكثر من مرة وهى جميلة جدا لكن ما كنت أقصده أن أحوالها الإقتصادية ليست على ما يرام وليس هناك تكافؤ للفرص بين البشر ،كما أن البطالة أكلت همم الشباب مما يجعل الكثير من الشباب يأتون إلى البلاد الأجنبية بحثا عن العمل سواء بطرق شرعية أو غير شرعية.

أنت محق فى كلامك،ولكن أحيانا أشعر أن الشباب فضلوا هذه البطالة،فعندما يتخرج الشباب من الجامعة يجلسون على المقاهى بإنتظار الوظيفة التى توفرها لهم الحكومة والتى تتناسب مع مؤهلاتهم الجامعية أنا

أعلم أنه من الظلم أن أجلس طيلة حياتى فى مقاعد الدراسة أدرس لكى أحصل على وظيفة تناسب مؤهلى وتجعل لى مكانة إجتماعية ولا أحصل على ذلك،وأضطر إلى العمل فى وظائف لا ترضى طموحى،ولكن السؤال هنا عندما يأخذون قرار السفر إلى البلاد الأجنبية فما الوظائف التى يخالون أنفسهم سيعملون بها والتى يعرضون أنفسهم للموت بسببها؟!أليست هذه الوظائف موجودة فى وطنهم؟!أم يخيل إليهم أن هذه البلاد ستمطرهم بالدولارات حينما يطئونها.

ثمت طرق يا ماريا نسلكها حتى نثبت لأنفسا شيئا ما،حتى نقول لهذا العالم ها نحن موجودن،لقد جئنا إلى هذا العالم فكيف نذهب دون أن نترك مايدل على أننا كنا هنا لبعض الوقت،من الممكن أن ندرك أن هذا الطريق كان خطئا لكن بعد أن يتملك منا، ويصبح الرجوع منه شبه مستحيل،هم مخطئون لا شك ولكن من قال لك أنهم وجدوا من يرشدهم إلى الطريق الصحيح؟!

صمتت ماريا قليلا لتفكر فى الكلام الذى قاله آدم لتوه،إن كلامه شديد التأثير،يبدو أن الفكرة التى أخذتها عنه كانت خاطئة،إنه شاب مثقف ولديه وجهة نظر

يبدو أن الحديث معك ممتع ،على عكس ما ظننت كنت أريد أن أستمر فيه ولكننى وصلت إلى وجهتى.

لا بأس يا ماريا،لعل الحياة تجمعنا فى طريق نصل فيه إلى نفس الوجه.

لنترك هذا القرار للحياة.

***

دخلت ماريا الجامعة تتهادى بخطواتها على أرضية الجامعة المبلطة تدعى الثقة والقوة وهى كل ما بداخلها يهتز مثل أوراق الشجر المزروع على

يمينها ويسارها حتى وصلت إلى مدرج كلية الحقوق فدخلت فى صمت دون أن تنظر إلى أحد الموجودين فى المدرج كما أنها لم تنكمش وحيدة فى إحدى الصفوف الأخير بل جلست فى الصف الأول وكأنها تقول مهما كان ما يتملكنى من الخوف فلا مكانا لى سو فى الصفوف الأمامية نظر إليها الطلبة وبدأوا يهموسون بكلام لم يصل أى منه إلى مسمعها ولكنها لم تأبه لهمساتهم ووضعت رأسها فى كتاب مدعية القراءة ولكنها لم تكن سوى وسيلة لمنع توترها وفجأه ودون سابق إنذار صمتت الهمسات لترفع رأسها فتجد شخصا يقترب من منصة المحاضرة يسير برشاقة ممسكا حقيبة فى يده ويرتدى بذلة باهظة الثمن يبدو أنه فى الأربعين من عمره من يراه يظن أنه عارضا للأزياء وليس أستاذا جامعيا،ينظرإلى الموجودين بعينيه الخضرواتان فتنبث شفتيه عن إبتسامة وهو يقول :مرحبا أنا البرفيسور البرت.

تثمر كل الحضور وهم ينظرون إليه وقتها سمعت ماريا فتاة تهمس لصديقتها فى المدرج وهى تقول بلهجة أمريكة: إنه مثير جدا (He is very hote)

ما رأيكم بأن نبدأ فى التعارف بدأ الجميع فى قول أسمائهم حتى وصل دور ماريا التى كانت تائهة بعض الشىء ثم قالت أسمى .....

فقاطعها البروفيسور ألبرت قائلا:ماريا صحيح؟

فأجابته ماريا فى دهشة:صحيح ياسيدى

لا تندهشى كثيرا فقد أخبرنى العميد كل شىء عنك فهو يدرى مدى حساسيتى تجاه المسلمين.

ثم أردف قائلا:أتدرين للسنة الرابعة على التوالى لم يدخل أحد المسلمين صفى أنت محظوظة لأنك الإستثناء،أليس كذلك

-فأجابته ماريا فى بلاها:بلى يا سيدى فهذا محراب للعلم،وأى محرابا للعلم سأكون محظوظة إذا دخلته

إبتسم البروفيسور ألبرت وهو يقول:يبدو أنك كمسلمة محظوظة لتتشرفى بدخول هذه الجامعة العريقة

نعم سيدى كما أن هذه الجامعة العريقة تشرفت اليوم بدخول مسلمة.

ظهرت علامات الإستياء على وجه البروفيسور ألبرت من ردود ماريا التى سرعان ما أخفاها ناظرا إليها نظرة ثاقبة وكأنه يقول لها :هذه فقط البداية

إلا أن ماريا قابلت نظراته بالبرود وعدم الإكتراث،وهذا جعله يزداد غضبا الأمر الذى جعله يقول يكفى هذا لليوم سيكون للحديث بقية المحاضرة القادمة

كان اليوم الأول فى الجامعة كما توقعته ماريا يوما شاق ومرهق فهى لم تتوقع أن تزين الأرض لها بالزهور أو سيستقبلونها بالعناق،بالرغم من ذلك كانت تتمنى الا تعلن عليها الحرب من اليوم الأول،الأمر الذى جعلها تسير مشتة الذهن منفطرة الفؤاد تجاهد دموعها التى توشك على السقوط لا تدرى إلى أين تذهب؟ما لبثت أن إقتربت من مدخل الجامعة حتى أوقفتها ورقة معلقة على لوحة الإعلانات بمدخل الجامعة فظلت تقرأ المكتوب بها فتفتحت أسريرها وكأنها أخيرا وجدت ضالتها،فهتفت بسعادة وهى تقول:أخيرا وجدت شقة للسكن،ولكن أين هذا المكان المكتوب فى الإعلان؟

فى هذه اللحظة سمعت صوت آتيا من ورائها يقول:أتبحثين عن مكان الشقة المكتوبة فى الإعلان؟

فإستدارت ماريا لهذا الصوت فوجدت،أحد ضباط الأمن الجامعى يقول لها أن هذا المكان قريب من هنا ووصف لها العنوان إلا أن ماريا فضلت الإتصال بصاحبة الشقة أولا.

فأخرجت هاتفها وكتبت الرقم الموجود بالإعلان على لوحة المفاتيح لم تنتظر سوى دقائق معدودة حتى جاء صوت صاحبة الشقة وهى تقول:مرحبا من معى

أنا ماريا إتصلت بك لأجل إعلان الشقة.

أها..أهلا بك

يمكنك أن تأتى فى أى وقت لرؤيتها،دونت عنوانها فى الإعلان

نعم لقد قرأته لتوى.

أنت الأن فى الجامعة

نعم

حسنا أنا أيضا بالقرب منها يمكننى مقابلتك الآن إذا أردتى.

نعم بكل تأكيد ستجدينى واقفة بالقرب من مدخل الجامعة

حسنا دقائق قليلة أكون عندك.

لم تفت دقائق معدودة حتى سمعت صوت فتاة من ورائها تقول:هل أنت الآنسة ماريا؟

إلتفتت ماريا لها وهى تقول:نعم

فكانت فتاة يبدو أنها فى أوائل العشيرنيات مبتسمة المحى،تنظر إليها بسعادة غامرة يظهر هذا فى عينيها ذات اللون السماوى اللاتان تزينان وجهها الأبيض البيضاوى وكأن السماء إلتقت ببحر من الحليب

قالت الفتاة مبتسمة:مرحبا أنا نضال صاحبة الشقة المعلن عنها

-فصافحتها ماريا وهى تقول:من الجميل رؤيتك.

إذا كنت تريدين رؤيت الشقة فأنا قمت بتصوريها لكى أسهل على من يريد أن يشاركنى السكن،إنها شقة ليس كبيرة ولكنها مناسبة لشخصين.

تظاهرت ماريا بالنظر إلى الصور إلا أن كل ما كان يشغلها أنها أخيرا وجدت سكن ولن تضطر إلى المكوث فى منزل العم يوسف أخيرا ستتخلص من العبء التى تحمله،فلم تفكر فى أى شىء أخر ولكن كيف لها أن تثق فى فتاة غريبة تراها للمرة الأولى؟!

فقاطعت نضال تفكيرها وكأنها فهمت ما تفكر به فقالت :يمكنك الأطلاع على عقود الشقة قبل أن توافقى.

فأخرجت العقود من حقيبة يدها وأعطتها لماريا فهتفت الأخيرة فى حماس جيد متى أستطيع السكن؟

من الغد إذا كنتى جاهزة.

إذا سأجهز حقيبتى وآتى

كل ما تريده ماريا الأن هو الحصول على سكن دون أن تفكر فى تبعات الأمر،إلا أنها شعرت بالراحة لرؤية هذه الفتاة،فلا يمكن حسب إحساسها أن تكون إحدى النصابن كما أنها عربية يظهر هذا من إسمها على الرغم من إحتفاظها بلكنتها الأمريكية أثناء الحديث،وعلى الرغم أيضا من ملامحها التى تبدو أمريكية

ولكن ما شغل تفكيرها أيضا ماذا ستقول لأبيها عندما يسألها عن سكنها الجديد ؟وكيف أيضا ستخرج من منزل العم يوسف دون أن تراه؟،لكنها ضربت بكل مخاوفها عرض الحائط فليحدث ما يحدث،لا يهم نحن جميعا فى حماية الله.

الآن لابد أن تكذب على سيلينا وتقول لها :أن والدها جمع لها سكن حتى تتركها تذهب .

وهذا فعلا ما فعلته ثم جهزت حقيبتها وذهبت إلى عنوان الشقة الذى يبعد على الجامعة حوالى ربع ساعة،وقفت ماريا أمام شقة نضال التى توجد فى الدور الثالث من العمارة،فرنت الجرس لتفتحت لها نضال التى رحبت بها،فدخلت الشقة بتردد فهى تعلم جيدا أن ما تقوم به الآن ما هو إلا مغامرة لا تعلم نتائجها فهى هتتشارك السكن مع فتاه لا تعرفها فى مكان لا تعرف عنه شىء فى بلد غريب دون علم أهلها أليست هذه مغامرة؟!رغم كل ذلك لكن شىء ما فى ملامح هذه الفتاة يبعث الطمأنينة إلى قلبها،وهى دائما ما تصدق إحساسها فحدسها لم يخونها يوما ،وتتمنى ألا يخونها هذه المرة أيضا، كما أنها عندما دخلت الشقة شعرت وكأنها قطعة من بلادها العربية فى قلب أمريكا بأساسها المزخرف وستائرها الحريرية برائحة البخور التى تملء الشقة والأيات القرآنية المعلقة على الجدران ،شعرت ماريا للحظة أنها عادت إلى بلادها فإذا كانت فعلا لبلادها رائحة فقد وجدتها فى هذه الشقة

-آنسة ماريا هذه هى غرفتك .. أتمنى ألا تقابلك مشاكل فى الإقامة معى، إننى ذاهبة إلى عملى وهذه نسخة من المفتاح،كما أنه يوجد الكثير فى الطعام فى الثلاجة يمكنك تناوله إذا شعرت بالجوع.

-شكرلك.

بدأت ماريا تشعر بالراحة تجاه هذه الشقة وهذه الفتاة ربما لوجود تلك الأيات القرآنية المعلقة على الحائط، شعرت أنها محاطة بهالة من نور الله وهذا النور لا يمكن أن يأتى معه مكروه،ولأول مرة منذ أن أتت إلى بافلو تشعر براحة الضمير تشعر أنها لن تسبب المشاكل لأى شخص حتى لو من غير قصد.

***

كانت الساعة تقترب من الحادية عشر مساء إستيقظت ماريا على صوت غريب هذا الصوت إيقظها من ثباتها العميق للحظة شعرت بالخوف، ففتحت باب غرفتها فتحة ضيقة لترى ما يحدث؟ فرأت شخص يركض ناحية المرحاض كادت أن تصرخ من الفزع ،فمن هذا الشخص ؟!وماذا يفعل فى الشقة؟!سرت رعشة فى جسدها كشخص محموم فأمسكت الهاتف بيدين مرتعشتين حتى تطلب الشرطة إلا أنها سمعت صوت بكاء يأتى من المرحاض هذا الأمر جعلها تخرج من غرفتها وتتسلل بهدوء ناحيته وكانت المفاجئة فهذا الشخص لم يكن سوى نضال تستحم بكامل ملابسها وهى تبكى بحرقة.

أخذت ماريا تتسأل فى حيرة،ما الذى حدث لنضال؟! وما هذه الملابس الغريبة التى ترتديها؟! وما هذا الطلاء الغريب التى تضعه ويشوة وجهها الجميل؟!

أن الفتاة الجميلة التى رأتها ماريا فى ذلك اليوم أمام الجامعة ليست هى الفتاة التى رأتها الآن،انهما مختلفتان تماما.

عندما إنقطع صوت المياة الآتى من المرحاض أسرعت ماريا إلى دخول غرفتها فهى لا تريد أن تظن نضال انها تتجسس عليها،لكن الفضول كان يسيطر عليها لذا كانت تنظر إليها من فتحت الباب فوجدتها عادت نضال التى تعرفها بذلك الوجه الجميل التى أخفت عنه للتو آثار هذا الطلاء البغيض التى كان يشوه ملامحها،كل ما كان يحدث فى هذه الليلة مثير للدهشة والقلق فى نفس الوقت ففى الوقت التى ذهبت ماريا إلى غرفتها وكفت عن تأدية دور "جيمس بوند "التى تقمصته إنساب إلى سمعها صوت أقل ما تقول عنه: أنه آثر يبعثك إلى عالم آخر مليء بالنقاء يجعلك تتجول بين السموات السبع وتأكل من ثمار الجنه صوت يرتل القرآن الكريم بكل خشوع ممزوج ببعض العبرات،لم يكن هذا الصوت سوى صوت نضال التى رأتها ماريا من فتحت

غرفتها جالسة على سجادة الصلاة فاتحة المصحف أمامها ترتل بعض الأيات من(سورة مريم) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم،بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ "وأذكر فى الكتاب مريم إذ إنتبذت من أهلها مكانا شرقيا فإتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا،قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا،قالت أنا يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا،قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمر الله مقضيا.".صدق الله العظيم

إنهمرت الدموع من عينى ماريا بغزارة كالنهر الجارى فهذه الآيات توضح المحنة التى تتعرضت لها السيدة العذراء وكيف أنها لم تكن سوى منحة ورحمة من الله،وكان كل هذا على الله هين وكيف جعلها وهى وإبنها معجزة تتحاكى بها الأجيال وكيف كان لصبر هذه السيدة الفاضلة أن كرمها الله بأن جعل سورة كاملة فى القرآن بإسمها بل أنها السورة الوحيدة فى القرآن التى تكتب بإسم إمرأه وكأنه يقول لها هذا جزاء صبرك وتقواك،لا تدرى لماذا شعرت فى هذه اللحظة أن هذه الآيات تحدثها هى وكأن الله يبعث لها برسالة أن كل شىء عليه هين وأن لا شىء يحدث إلا بأمره وأن فرجه قريب وأنه أقرب لعباده من أنفسهم.

الآن رأت وجه آخر لنضال وكان هذا الوجة الأقرب إلى قلبها وجه نورانى بها هالة تشبه الهالات التى تحيط بالقمر،وتمنحه جماله.

كل هذا جعل ماريا تشعر بمزيد من الدهشة تجاه شخصية نضال والكثير من تحولاتها فهذه الفتاة حتما ورأها سرا كبيرة ولابد أن تعرفه.

---

*سورة مريم،من الآية(١٥:٢١)

***

إستيقظت ماريا مبكرا كعادتها فهى لا تحب التخلى عن عاداتها وخاصة إن كانت جيدة،ولكنها اليوم لا تدرى ماذا تفعل؟ فاليوم عطلة أسبوعية ولن تذهب للجامعة كما أنها لا تعرف احد هنا لتقضى معه الوقت حتى نضال مازلت غريبة بالنسبة لها،فى هذه اللحظة تذكرت عائلتها الصغيرة وخاصة على وكيف كانت تقضى الوقت معه فى الجدال واللعب والمشاكسة كم هى بأشد الإحتياج إليه فى هذه الأيام،رؤية أخيها الصغير كافية لتجمل يومها وتعدل مزاجها،كما أنها بأشد الحاجة لترتمى فى حضن والدتها وأخذ نصائح أبيها لذا أمسكت هاتفها لتتصل بهم فقد إشتاقت حقا إليهم.

جاء صوت والدتها وهى تقول: مرحبا

فأجابتها ماريا بصوت ملهوف :كيف حالك يا أمى؟

هتفت أمها فى سعادة عارمة ممزوجة بصوت أوشك على البكاء:كيف حالك أنت يا إبنتى هل تأكلين جيدا وتنامين جيدا؟

- كانت تريد أن تقول لوالدتها أنها ليست بخير بعيدة عنهم،أنها فقط تريد أن تركض إلى حضنها وتنام فقط،ولكنها قالت بصوت يتظاهر بالثبات:أنى بخير يا أمى فقط أشتقت إليكم،كيف حال أبى ؟وكيف حال على؟

إنهما بخير يا إبنتى ولكنهما لم يستيقظا حتى الآن،لحظة واحدة أحاول إيقاظهم لك.

- لا لا يا أمى لا تقلقيهم أردت فقط أن أطمئن عليهم.

- ماريا أنت فعلا بخير

- إرتبكت ماريا للحظة ولكنها أجابتها :نعم يا أمى لا تقلقى على فإبنتك لا يخاف عليها.

- ضحكت أمها ساخرة ثم قالت:إنك يا إبنتى لا تجيدين الكذب،وحتى إن كنت تجيدينه فانا الوحيدة التى تسطيع كشفه،شىء ما بصوتك لا يريحنى ولكننى سأدعو الله دائما أن يحفظك من كل مكروه.

صدقينى يا أمى أنا بخير وأتصلت اليوم لكى أقول لكم أننى تركت منزل العم يوسف ووجد شقة جميلة تسكن بها فتاة عربية.

وهل هذه الفتاة جيده؟!

نعم يا أمى إنها فتاة طيبة يكفى أنها عربية هذا ما يجعلنى أشعر بالراحة.

أنا قلقة عليك يا ماريا فأنت لم تتركينى مطلقا طيلة حياتك كما أنك بدأت تلتقين بالغرباء والغريب سيظل سىء حتى نعرفه جيدا ولكن ليس بيدى الآن سوى الدعاء لك رافقتك السلامة أينما تذهبين يا إبنتى.

بعد هذه المكالمة شعرت بالراحة فصوت أمها ودعواتها طمئنت قلبها وبعثت فى ثنايا روحها بطاقة إيجابية لن تستطيع كافة كتب التنمية البشرية أن تبعثها.

لذا لمعت فى ذهنها فكرة عزمت على تنفيذها فبما أن اليوم عطلة فلما لا تذهب الى السوق لشراء بعض الأطعمة؟ فمنذ أن جاءت إلى بافلو وهى لا تريد تناول الطعام فهى تشك فى جميع الأطعمة خيفت أن تكون ليست حلال لذا كانت لا تتناول سوى الخضروات حتى الخضروات كانت تأكلها فقط لسد عواء معدتها،لذا فلتذهب إلى السوق وتشترى بنفسها الأطعمة وتطهوها هى بنفسها،وما ساعدها على ذلك أن السوق قريب من العمارة التى تسكن بها فلن تخاف أن تضل الطريق.

وصلت ماريا الى السوق وإشترت بعض من اللحوم المكتوب عليها مذبوحة وفقا للشريعة الإسلامية كما إشترت بعض الخضراوات الشرقية

كالبامية والبازلاء والملوخية الخضراء وبعدما إنتهت عادت إلى الشقة محملة بالأكياس الممتلئة

وذهبت بها إلى المطبخ،فاليوم تريد إستعراض مهاراتها فى الطبخ تلك المهارات التى ظلت مكبوتة بسبب والدتها التى كانت هى من تطهو الطعام دائما ، فى هذه اللحظة تذكرت عندما كانت صغيرة،فكانت تحب أن تذهب مع والدتها كثيرا إلى المطبخ فذات يوم سألتها قائلة:أمى ما الاشياء السرية التى تضعيها فى الطعام الذى تطهيه ليصبح بهذا الجمال؟!

وقتها إستغربت والدتها هذا السؤال ولكنها أجابتها قائلة وهى تضع بعض الأطعمة فى فمها:يصبح الطعام جميلا يا إبنتى فقط عندما نصنعه لمن نحب،لذا كل طعام الأمهات جميل فلا يوجد أم لا تحب أبنائها.

يبدو أن كلام أمها صحيح فمنذ أن تركتها وهى لا تجد أى طعاما شهيا على الرغم من إكتمال مكوناته إلا أنه كان ينقصه مكون واحد هو الحب،الذى ستحاول إضافته إلى الطعام.

ولكى يكون الحب طاغيا على كل المكونات قررت طهى الطعام التى إعتادت والدتها طهيه،فأخرجت كيس الملوخيه لتقوم بطهيه ثم أفرغت كيس المكرونة فى وعاء وأعدت لها اللحمة المفرومة ثم الباشميل وبجانب هذه الوصفات قامت بقلى قطع الدجاج منزوعة العظام ثم أحضرت مجموعة من الخضروات لتقوم بصنع السلطة وهكذا أصبح الطعام جاهزا فقامت بوضعه على المائدة،ثم طرقت باب الغرفة الخاصة بنضال حتى تدعوها للغداء معها ولكنها لم تجيب مما أقلق ماريا فجعلها تفتح باب الغرفة ولكنها لم تجدها ،فإعتقد أنها ذهبت إلى عملها،لكن أليس اليوم عطلة؟ ربما ليس لديها عطلة فى عملها،هذا جعل ماريا تشعر بالإحباط والإنزعاج وهذا الطعام الذى قامت بتحضيره ستأكله بمفردها ولن يشاركها أحدا،فمهما كان الطعام

طيب المذاق لن يحلو سوى بمشاركته،أليس الشعور بالوحدة شيء قاسى؟!إن الوحدة مريحة عندما نختارها ولكنها قاتله عندما تختارنا،

فتذكرت مشاكسات على الشقية معها وهم يتناولون الطعام وجريدة الصباح التى يتصفحها والدها بعدما ينتهى من تناول فطوره وهو يشرب قهوته،وعناية والدتها وهى تنظر إلى أطباقهم التى إذا ما فرغت قامت بملئها حتى يتوسلوا إليها أن بطونهم تكاد أن تنفجر،كل هذه الذكريات جعلتها تزهد الطعام وتقوم من على المائدة دون أن تضع فى جوفها لقمة واحدة.

****

إقتربت الساعة من الحادية عشر مساء وكانت ماريا تعلم أن نضال أوشكت على العودة إلى المنزل لذا قررت أن تقوم بتسخين الطعام ووضعه على المائدة إلى حين عودتها،دخلت نضال كالعادة إلى المرحاض وبعدما إنتهت مما تفعله خرجت لتجد طعام موضوع على المائدة مجرد ما إشتمت رائحة الطعام تذكرت زوجها الذى كان يتركها نائمة ويقوم هو بتجهير الطعام ثم يوقظها لتأكل ذلك الطباخ الماهر الذى يصنع أشهى المأكولات لزوجته المريضة التى تزوجها لتكون شريكة حياته يعيش معها فى سعادة فلم تكن سوى عبء عليه فلم تشاركه سعادته لكنه شاركها ألمها،تذكرت تلك المرة الذى كان عائدا فيها من عمله ففتح باب الغرفة ليطمئن عليها ثم ذهب لتجهيز الطعام كعادته تلك الفترة كأنت أسو فترة تمر بها نضال منذ تزوجته كان السرطان يتوغل فى جسدها كأى مريض للسرطان كانت تأخذ جلسات كيماوى،فبدأ الكيماوى يقضى شيئا فشيأ على ملامحها الجميلة فبدأ شعرها الأسود الطويل فى التساقط إلى أن إختفى تماما وبشرتها تحول لونها الأبيض المشرب بالحمرة إلى الأصفر الباهت ،كانت مثل الشجرة التى أتى عليها فصل الخريف فتساقطت جميع أوراقها وتركها عارية لا تحمل ثمر ولا أحد

سيستظل بها،فهذا جعل حالتها النفسية تتدهور لم تعد نضال تلك الفتاة الجميلة بل حولها السرطان إلى مسخ ذو ملامح باهته أليس من الغريب ما يفعله بنا القدر أحيانا فقد عاشت عشرون عاما من حياتها تخفى جمالها عن الأنظار تخفى حتى أنوثتها وتتعامل كالذكور وعندما جاء من يخرج الأنثى من كهفها ويجعلها تشعر بجمالها وأنوثتها يأتى السرطان يقضى على هذه الملامح الجميلة،أليست الحياة هى السرطان الأخطرالذى لا علاج منه فهى دئما ما تجعلنا ندور فى دائرة مفرغة من الأمل ذلك الأمل الذى كان يتشبث به أيهم،أمل شفائها من السرطان،هو يعلم تماما بأن مرضها فى مرحلة متأخرة وصعب الشفاء منه ولكنه يعيش على هذا الامل الوهن امل شفاء زوجته المريضة التى لم تجلب له سوى الشقاء،وكأن السعادة منذ دخلت حياته سلكت طريقا آخرا لا يصل إلى بيتهما فقد حولته من زوجها وحبيبها إلى خادمها وممرضا تكره نفسها كلما تذكرت أنها كانت تعيش عالة عليه وهى الفتاة التى كانت من المفروض أن تنير حياته فجلبت الظلام الدامس إلى حياته ،لكنها سئمت تدميرها لحياته لذا قررت ذات مرة أن تضع حدا لتعاسته حتى وإن كان هذا الحد سيفصلها عنه خاصة بعد الذى رأته فى هذه الليلة فقد عاد أيهم من عمله مرهقا جدا ولكن تعبه لم ينسيه واجبه تجاة زوجته البائسة فنظر إلى ساعته ثم قام مفزوعا لأنه علم ان ميعاد دوائها أتى فذهب إلى المطبخ ليحضر لها الطعام حتى تستطيع تناول دوائها،فذهبت إليه وحضنته من ورأه

فقال فى غضب:نضال ماالذى أخرجك من غرفتك وأنت متعبته؟

فقالت له نضال:أترانى أعذبك إلى هذا الحد؟

فنظر إليها مبتسما،ثم قال:نعم أنت تعذبينى عندما تخرجين من غرفتك فى هذا الجو البارد دون أن تضعى الشال على كتفيك

قالت نضال هى توشك على البكاء:أنا آسفة

-على ماذا؟

-صدقنى لم أكن أقصد

-ماذا تعنينى يا نضال

-كنت أريد فقط أن اجلب لك السعادة

-وما مقدار السعادة التى كنت ستجلبيها لى أكثر من حصولى عليك

-حصولك على سبب لك التعاسة

-أمسك أيهم يدها وقبلها ثم قال:وجودك بجوارى هو ما يجعلنى أتنفس

-تركت نضال يده ثم أشاحت بوجهها بعيدة عنه و قالت فى حنق:بل وجودى بجوارك منعك من الحياة ،أنت مازلت شابا لا تهدر شبابك فى الإعتناء بفتاة مريضة لا أمل فى شفائها.

وماذا إن كانت هذه الفتاة هى حياتى؟

-لا تقل هذا فأنت تستحق حياة لا يسحقها السرطان .

- ستتعافى عما قريب هذا أملى

لا أريد لاملك أن يتحول إلى ألم تعانى منه مدى الحياة،لذا طلقنى وأطلق سراحك من هذه الحياة البائسة.

وقع على أيهم كلامها وقع الصاعقة فهتف فى غير تصديق:ماذا تقولين؟!

- لا أريدك أن تستمر فى تعذيب نفسك

وماذا عن حبى؟!

أنه مجرد شفقة على فتاة مريضة ولشهامتك لا تريد تركها ،لذا أنا أعطيك كل الحق فى تركى.

أمسك أيهم برأسها واضعا عينيه فى عينيها ثم قال بغضب:أنظرى يا نضال فى عيناى جيدا،ترى هل هذا الحب الذى يشع منهما لك كاذبا؟!هل هو مجرد شفقة؟!

تركته نضال وإبتعدت خطوات عنه ثم إلتفتت إليه مرة أخرى و قالت فى حنق:أنظر أنت إلى جيدا أنظر إلى وجهى الذى أضاع المرض ملامحه،هذا الحب الموجود فى عينيك كان من حق تلك الفتاة الجميلة وتلك الفتاة ماتت منذ زمن.

أترين حبى لك يا نضال بهذه الهشاشه والسطحية؟!،أترين أنى أحبك فقط لأجل جمالك؟!إننى أرى كل يوم عشرات الجميلات ولكن لم أقع فى حب إحداهن،أتدرين لماذا؟!لأنه لم يكن من بينهن نضال،تلك الفتاة التى يكمن جمالها فى قوتها ،وأنوثتها فى برأتها،نضال تلك الفتاة الجميلة والتى ستظل جميلة،نضال تلك الفتاة التى حاربت سرطان الظلم والإضطهاد وإستعمار أرضها منذ نعومة أظافرها،فكيف ستترك لهذا السرطان أن يهزمها؟!

أنت الرجل الوحيد الذى أحببته،وأخشى أن أسبب لك الألم

بل أنت سبب سعادتى،قبل أن أراك كانت كل أيامى متشابهه،كان الموت قريبا منى ولم أكن أهابه،وبعد أن قابلتك،أصبح لأيامى لون مبهجا ولحياتى معنى،أصبحت أهاب الموت بدونك،ووأرحب به إن كان بين ذراعيك،أنت الفتاة الوحيدة التى أريد أن أحيا معها وأموت بجوارها،ألمى الوحيد هو بعدك عنى ،تعالى لنمسك يدى بعضنا البعض ونناضل سويا ضد سرطانك،تعالى لنهزمه.

قالت نضال وهى تحدث نفسها:لم تكن محقا يا أيهم أنا لست حياتك بل أنت حياتى وألمى الوحيد بعدك عنى أدركت هذا عندما قدر لنا أن نفترق،أنا الآن جثة هامدة فلم يهزمنى السرطان بل هزمنى بعدك.

أخرج نضال من تفكيرها صوت ماريا الآتى من ورائها وهى تقول:حمد لله على سلامتك،مارأيك فى الطعام الذى أمامك

-أتدرين يا ماريا أن رائحة طعامك ذكرتنى بالكثير من الذكريات الجميلة،وهذا جعلنى أفكر ترى طعمه سيكون جميلا مثل رائحته؟

لا أدرى ...ما رأيك نكتشف هذا سويا.

جلسا سويا على المائدة،يأكولان بشراهه يبدو أنهما هما الإثنان لم يتذوقا طعاما أعد فى البيت منذ فترة كبيرة.

قالت نضال وهى تلوك قطعة من الدجاج :يبدو أن مذاق طعامك أكثر جمالا من رائحته.

هذا أقل ما أمتلك من مهارات

هذا واضح... يبدو أنك طباخة ماهرة

لست أنا بل أمى أنا فقط تذكرت كيف كانت تصنع الطعام لى

-كل ما يصنعه الأمهات جميل سمعت بهذا كثيرا لكننى للاسف لم اختبره بنفسى،لاننى لم اكن محظوظة لكى أراها

- هتفت ماريا فى ضيق،أنا آسفة لم أكن أقصد

- لا عليك فالموت حق،أتدرين يا ماريا منذ أن رأيتك وأنا أشعر تجاهك بالراحة كأننى أعرفك منذ زمن.

- وانا أيضا أشعر بذلك

يبدو أننا سنصبح صديقتين

بكل تأكيد

-لكن أيصح أن تكونى صديقتى دون أن أعرف عنك شىء سوى أسمك

- لم تسنح لى الفرصة لكى أتحدث معك

- مارأيك فى هذه الفرصة؟

-حسنا،كل ما فى الأمر أننى مصرية جئت مع عائلتى إلى أمريكا بسبب عمل أبى فهو ملحق إدارى للسفارة المصرية،ولظروف يطول شرحها جئت إلى بافلو لأكمل دراستى.

جيدا جدا أيا كانت هذه الظروف ولكننى شاكرة لها لأنها جعلتنى ألتقى بك.

هذا من حسن خلقك يا نضال.

صمتا هما الإثنين فاجئة وكأن كلمنهما غاص فى عالم يخصه قالت ماريا بتردد:نضال هل من الممكن أن أسألك سؤلا؟

- بالطبع

- هل هناك شيء يزعجك،أو مشكلة تؤرقك؟

باغتها سؤال ماريا وهى لم تكن مستعدة له أو بالاحرى لم تكن تتوقعة،فقالت بتردد لا شيء مطلقا،لماذا تقولين هذا؟

لن أكذب عليك لكن تصرفاتك تبدو غريبة،وكأن شيء ما يثقل كاهلك،أو أنك تفعلين شيء خاطيء،لا ادرى كيف أشرح لك،لكن ما أشعر به أنك تعانين خطب ما

لا تشغلى نفسك بى يا ماريا،فأنا بخير

-حسنا أن لن أضغط عليك،لكن تأكدى إذا أردت مساعدة يوما ما،فأنا موجودة.

أكيدا يا ماريا،صمتت للحظة ثم قالت ماريا أليس إسما مسيحيا.

بلى

إذا لماذا سميت به؟

هذه حكاية يطول شرحها،والوقت تأخر كثيرا يجب أن أنام حتى أستيقظ مبكرا للجامعة.

(٧)
حكاية اسم

عندما تسمع إسمها للمرة الأولى(ماريا) مقترنا باسم والدها (محمد علام)ربما ستطلب منها أن تعيده عليك مرة ثانية خوفا من أن يكون قد خانك سمعك فلم تنتبه له أو ستنظر إليها فى غير تصديق مغلقا عينيك ثم فاتحا إياها العديد من المرات خاصة عندما ترى ملابسها والحجاب الذى ترتديه، أو بعدما تتدارك الأمر ستقول فى سخرية: (تحيا الوحدة الوطنية،أو يعيش الهلال مع الصليب)لكن لا تقلق فقد تعرضت لهذا الموقف العديد من المرات فلم تعد تزعجها السخرية ولم يعد يهمها نظرات الإستغراب التى ترتسم على الوجوه عند سماع إسمها أو رؤيتها،كما يقال أن وراء كل إسم حكاية وكل حكاية لها مغزى وكل مغزى يسعد صاحبه أو يحزنه فهذا الاسم ورائه حكاية حكاية الحب والصداقة نعم تحيا وحدة القلوب والأرواح تحيا كل روابط الحب والصداقة.

ولكن قبل الإجابة على سؤال لماذا سميت ماريا بهذا الإسم المسيحى مع أنها فتاة مسلمة ووالديها مسلمين؟

دعونى أقص عليكم أولا حكاية ثلاثة أشخاص هم أبطال هذه الحكاية(محمد،نجاة،ماريا) كان محمد من عائلة غنية تمتلك الكثير من الأراضى فى محافظة قنا وكانت عائلة نجاة جيرانهم ،كان محمد يكبر نجاة بثلاث سنوات فقط ومنذ الصغر كانا يلعبان سويا لم يكونا مدركين أن هذا اللعب فى الصغر سيتحول إلى حب فى الشباب،لما كان الحب فى الصعيد شبه محرما فقد أحب محمد نجاة فى صمت دون حتى أن يلمح بشىء كان يريدها ان تكون له دون ان تتدخل انفاس الناس فى الموضوع فالناس تفسد كل جميل فالصمت

فى الحب رقى وجمال لكنه ايضا لم يصارح حتى نجاة نفسها بهذا الحب الذى بدا يغزو فؤاده فلم يريد أن يشغلها عن دراستها لكن هذا الحب بات مفضوحا فلمتى سيظل حبه مخبأه فى قلبه؟! فالحب مثل العطر مهما أجتهدت فى تخبأته فستفيح رائحته الجميلة لا محالة.

أنهى محمد دراسته بكلية السياسة والإقتصاد بالقاهرة وعاد إلى قنا وبينما نجاة تدرس فى عامها الأول بكلية التربية،جامعة قنا كانت تلك السنة التى بات حبه لها مكشوفا أمامها لا أدرى بماذا اوصفها ولكنها وجدته متلبسا بحبها ذلك الفتى الوسيم الوقور ذو العقل الصعيدى والملامح السمراء الجميلة كانت الفتيات يتهافتن عليه فى تلك الفترة وكل هذا على مسمع ومرىء من نجاة فكانت كل الفتيات يتمنين أن يعيرهن جزء من إهتمامه وخاصة فتيات عائلته حتى امهاتهن يغالين أمامه فى وصف جمال بناتهن ولكنه كان يتهرب منهم بكل ذوق ورقى دون أن يجرج أحد جاعلا من نفسه مرة أخرى حلم الزوج ليست للفتيات فقط بل لأمهاتهن التى يردنهن زوجا لبناتهن ايضا ،فهو يعلم أن قلبه أثر بالحب منذ زمن أن قلبه ينبض لأجل فتاه واحدة نقش اسمها على جدران قلبه (نجاة)فكانت كأسمها نجاة لقلبه ودواء لجروحه لكن محمد شاب صعيدى من الطراز الأول مهما بدى عليه الحب فلن يصارح به، فحبه مثله عزيز النفس لن يظهر إلا فى الاطار السيلم الذى حلله الدين ولم تتعارض معه العادات والتقاليد،كأنه يفعل كما قال سيد العديسى فى ديوانه أموت لكى يبقى إسمها سر:كأى صعيدى لا أستطيع قول:أحبك وكلما قررت القفز على التقاليد لأقولها خرجت منى: كيف حالك،فأعذرينى لأننى كيف حالك جدا.

فظل طيلة سنة كامل يراقبها من بعيد دون أن يتقرب منها ودون أن يجعل أحد يأتى بسيرتها على لسانه ،ظل طيله سنة يحميها ويرعاها دون أن يشعرها بوجوده لطالما إنتظرها حتى تنهى محاضراتها ليسير ورائها خوفا من أن يضايقها أحد.

لكن نجاة على الطرف الأخر، تلك الفتاة الجميلة ذات البشرة الخمرية والعيون الواسعة ذات القوام الممشوق والملامح الهادئة، كانت تعرف حبه ربما إفترقا فى الشباب لكن ستظل رفقة الصغر شىء لا ينسى،فقد كانت تلمسه كل يوم، كانت تشعر بخطواته البعيدة التى تلاحقها وتشعرها بالأمان تشعر بأنفاسه فتشعر بالدفء.

كانت تريد أن تقول له: ايها الغبى أتظن أن حبك غير مكشوف لى

أرادت أن تقول له :أنا لك وحدك مهما طال الزمن لكن فى العناد والكبرياء لا تسطيع سوى صعيدية التفوق على صعيدى وإن كان حبه عزيز النفس فحبها العزة نفسها وإن كان لن يفصح عن حبه فهى أبعد ما تكون عن مجرد التلميح به .

إذا لاشى أمامها سوى إنتظار الوقت الذى يأتى فيه إليها،وهذا الوقت ليس ببعيد.

كانت ماريا هى أول من لاحظت الحب الذى تفضحه ملامح نجاة هى اول من رأت وجنتيها التى يزينهما الخجل كلما رأته،ماريا صديقتها،صديقة طفولتها وشبابها عاشا معا جميع اللحظات السعيدة والحزينة إذا كانت نجاة القلب فماريا دقاته كانتا أختين لا يفرقهما سوى كنيتهما.

كانت ماريا تضايق نجاة كثيرا حتى تعترف بحب محمد لها، فذات يوما عندما كانت نجاة عائدة من الجامعة مع ماريا فى هذا اليوم لم ترى محمد مطلقا

الأمر الذى جعلها تقف فى الطريق بحجة أنها متعبة ولكن ماريا لم تخدعها هذه التصرفات فقالت لها:لن يأتى اليوم

فقالت نجاة:تقصدين من؟!

أقصد من تتظاهرين بالتعب لأجله الآن

أتظاهر،حسنا هيا بنا وإن حدث لى مكروا ستكونين أنت السبب

لا تقلقين أعراض هذا المرض ليست خطيرة فقط رؤية من نحب كافية لنشفى.

عن أى مرض تتحدثين أيتها الغبية؟!

مرض الإشتياق سيدتى

أنت لا تفهمين شىء

لا بأس،ولكن لا تنتظرينه اليوم لقد سافر اليوم إلى القاهرة فله أوراق بالجامعة ذهب ليسحبها.

كانت نجاة تعلم ان ماريا أمسكتها بالجرم المشهود ولا سبيل لها سوى الإعتراف بجريمتها،أيوجد جريمة أجمل من الحب؟! ولكنها تنتظر الوقت المناسب التى ترفع فيه الستارعن حبها وإلا أن ماريا لا تجيد الإنتظار.

ومرت ألايام والليالى وجاء اليوم الذى تقدم فيه محمد لخطبة نجاة،وقد وافق أبيها وتزوجها بعدما أنهت عامها الأول بالجامعة وبعدها بثلاث سنوات تزوجت ماريا ايضا،لكن فى القاهرة وسط دموع الفراق من نجاة التى لم تفترق عن ماريا حتى بعد زواجها فظلوا اصدقاء لم يفترقا ابدا إلا بعد زواج ماريا.

مرت سنتين على زواج ماريا وهى غير سعيدة بزواجها فلم يكن زواجها عن حب بل تزوجت بأمر من والدها الذى زوجها له، فقط لانه غنى ولكنه كان صعب الطباع وبخيل وكان يسىء معاملتها ، فلم يحبها يوما،لكنه تزوجها

فقط لجمالها وساءت معاملته لها أكثر عندما علم أنها لا تنجب بل كان يخونها كل يوم مع إمرأة مختلفة عن الأخرى وبما أن الطلاق محرما فى الديانة المسيحية فلم يكن أمامها سبيل سوى الصمت لكن كل يوم كانت خيانته تأكل روحها ومعاملته السيئة تذبلها وتضيع ملامحها الجميلة حتى إستحال وجهها الى الإصفر،فلم تعد تتحمل الأمر فصارحته بخايانته المتكررة،وهددته بكشف خيانته أمام الكنيسة لكى تحصل على الطلاق،فما كان منه سوى ضربها وتعذيبها،إلى حين وجدته ذاهب للكنيسة ومعه التحاليل التى تثبت انها غير قادرة على الإنجاب حتى تطلقهما الكنيسة قبل ان تجرأ ماريا على إذلاله أمام الكنيسة.وفعلا طلقتهما الكنيسة وعادت ماريا مرة أخرى إلى بلدها الى بيتها وصديقتها الحبيبة عادت وكأنها الحياة دبت فيها من جديد كانت كل خطوة تخطوها نحو قنا مبتعدة عن القاهرة ترجعها طفلة صغيرة،تعيد إليها جمالها وتغسل روحها المتهالكة الذى لوثها ذلك المسخ كل خطوة كانت تخطوها بإتجاة قنا كانت تعيد إليها ذكريات الحب والصداقة وتبعدها عن ذكريات الخيانة والكره،ربما اصابها الله بالعقم حتى ينقذها من عذاب محتم وحياة تشبه الجحيم،تخليصها من ذلك الوحش لا يكفيه اشعال مائة شمعة تحت اقدام المسيح.

عادت ماريا إلى جذورها إلى حياتها القديمة الجميلة إلى بيتها ،كانت تسير فى الشوارع التى تصل بها إلى بيتها وهى تتلفت هنا وهناك ربما تريد أن تتأكد إذا كانت فعلا تخلصت منه أم مازلت هناك كانت تريد جوابا من الشوارع والبيوت كانت تريدها أن تصرخ بأعلى صوت وتقول :لقد عادت ماريا،كانت تعلم أن لهيب الألسنة سيصيبها حتما سيغرق روحها ويرهق قلبها،فهى تعلم أنها تركت نفسها عارية أمام الناس لكن عارية من ماذا؟!،هل كان هذا زواج اصلا؟! وهل كان هو شريك للحياة ؟!هل نعمت بالحياة التى

تمنيتها؟! وهل كان يستحق الحب الذى كانت تريد أن تعطيه له؟! كل هذه الأسئلة جعلتها قوية صلبة لذلك واجهت تلك النظرات التى كانت تقذفها فى طريق عودتها إلى المنزل،هى تعلم جيدا أنها لن تتعافى من هذه التجربة بهذه السرعة وأن شيئا اصاب روحها لن تستطيع التخلص منه بهذه السرعة وأنها فى نظر المجتمع حاليا لا فائدة منها فهى مطلقة وعقيمة،فهى الآن اشبه بالمنزل المهجور الذى لن يسكنه أحد سوى الحشرات والثعابين السامة،لذا من هذا الوقت تعهدت فقط بخدمة الكنيسة والمسيح ،ربما تستعيد ماريا القديمة.

عندما علمت نجاة بما حدث لماريا حزنت حزنا شديدا ذلك الحزن لم تستطع تخبأته حتى عن ماريا ففى هذه الفترة كانت تحاول أن تخفف على صديقتها هموها وأحزانها لكنها للمرة الأولى تقف عاجزة عن مساعدتها للمرة الأولى ترى صديقتها مدمرة ولا تسطيع إنقاذها من التدمير فقد مرة على وجودها فى قنا أكثر من شهرين لم تنطق خلالهما بكلمة واحدة ،كانت تذهب إلى الكنيسة وتعود منها إلى البيت دون الإلتفات لإحد أو التحدث مع أحد هجرت الضحك والكلام وصاحبت الحزن والوحدة تلك الفتاة ذات الوجه الباسم والعيون الضاحكة التى لم تحمل هما للحياة يوما بل إستقبلتها بكل ترحيب فاتحة ذرعيها دون شكوى أو تذمر تحولت إلى فتاة عابثة حزينة منكفأه على نفسها وكأنها تقول للحياة :تلك الصفعة اطاحت بى وأسقطتنى من سابع سماء إلى سابع أرض و فلم يعد للحياة معنى بعد الأن

فى ذلك الوقت كانت نجاة حامل فى شهرها التاسع وهذا الحمل الذى إستطاعت نجاة الحفاظ عليه بعد إجهاض حملين متتاليين فكانت تدعو الله ليل ونهار أن يتمم حملها على خير وأن يأتى طفلها إلى الحياة بكل خيرا وسلامة،لكن فى إحدى الليالى العاصفة ،قد ذهب محمد إلى القاهرة ليقدم للمرة الرابعة فى الخارجية المصرية وكان سيأتى فى الصباح،لأن محمد بعد موت

والده حدث خلاف بينه وبين أخوته حيث أن محمد كان الأبن الوحيد لزوجة أبيه الثانية حيث أن والده كان متزوجا للمرة الأولى من إبنة عمه تحت ضغط من والده حتى لا يذهب ورثها إلى رجل غريب ولحبه الشديد لوالده قد وافق على هذا الزواج ولكن الحب طرق قلبه للمرة الأولى هذا الحب الذى لم يستطع إلا الإستسلام له لذا تزوج حبه الأول والذى كان محمد نتيجته وعندما فارق والده الحياة حصلت الكثير من المشاكل مع إخوته الذين كانوا لا يكنوا له الكثير من الكرة بسبب تفضيل أبيه له ولوالدته عليهم الأمر الذى جعله يترك لهم البيت دون أن يدخل معهم فى هذه الصراعات الهوجاء على الميراث وخاصة أن والدته تركت له ميراثا كبير فإن كانوا لا يعتبرونه الأخ الأصغر لهم فهم سيظلوا الأخوة الكبار لهم لذا ترك لهم كل شىء وأخذ زوجته وذهب إلى بيت والدته وهذا البيت أكثر قربا من بيت ماريا .

فى هذه الليلة قد آتى لنجاة المخاض وشعرت أنها ستضع طفلها كانت تتألم كثيرا دون أن يكون بجوارها أحد لينقذها لذا فى هذه اللحظة لم تفكر سوى فى شخص واحد وهو ماريا،فثمت لحظات فى الحياة نشعر فيها ان بين الحياة والموت خط رفيع فى هذه اللحظات نلجأ ليس فقط لمن نحب بل من نوقن انه يحبنا فإتصلت نجاة بماريا وهى تصرخ وتتألم فلم تسطع أن تقول ولا كلمة واحدة

مما جعل ماريا تنادى عليها وهى تقول بفزع :نجاة ماذا حدث ماذا حدث؟

ولكن لم يأتها إجابة منها فألقت سماعة الهاتف وذهبت مهرولة إلى بيتها لتجدها ملقاه على الأرض مغشيا عليها،وعندما رأتها على هذة الحالة إتصلت مسرعة بالإسعاف فجاءت الإسعاف وحملتها إلى المشفى كانت حالتها خطيرة،فقد قال الأطباء أن لا أمل فى نجاة طفلها ذلك الطفل الذى تمنته من الله فى كل صلواتها،لكن إرادة الله فوق كل شىء فرزقها الله بفتاه لفظها الموت

لتختبر الحياة لكن هذه الفتاه ولدت ضعيفة وتحتاج إلى نقل دم وفصيلة دمها نادرة ولا توجد فى المشفى وكأن الموت يلعب معها لعبت القط والفأر فلم تمت فى رحم أمها ولكنها ستموت بعدما إشتمت رائحة الحياة وداعبها هوائها،ولكن يشاء الله أن تكون فصيلة دم ماريا هى نفس فصيلة دم الطفلة ولكن ماريا كانت ضعيفة بسبب قلة أكلها فقد كانت تظل كثير لا تأكل بسبب الذى حدث لها من ناحية وكلام الناس من ناحية أخرى لذا سئمت الحياة ولولا خوفها من الله وأن ترتكب خطيئة لا تغتفر لأقدمت على الإنتحار لذا فتبرعها بالدم قد ينهى حياتها فلم يوافق الأطباء على أخذ دما منها إلا أنها توسلتهم أن يأخذو منها ما يريدين من دماء حتى ينقذوا حياة الطفلة فلم يوافقوا إلا بعدما كتبت تعهد على نفسها أن ما يحدث لها هى المسئولة عنه، هذه الصديقة الوفية لم تأبه لحياتها فى سبيل إنقاذ ابنة صديقتها ربما فى هذه اللحظة تجلت الصداقة فى أبهى صورها الصداقة التى لا تهزمها الشدائد ،الصداقة التى تنقذنا دائما من قسوة الحياة ،عندما يكون لدينا صديق وفى ندرك وقتها أن جميع مشاكلنا وألمنا ستقسم على إثنين وأن أفراحنا وسعادتنا ستتضاعف،وفعلا كان لها ما أرادت فقد أنقذت حياة الطفلة ووضعت حياتها فى خطر ظلت العديد من الأيام بين الحياة والموت،فمن ناحية جسدها ضعيف وهزيل ومن ناحية أخرى روحها سئمت الحياة فكانت بذلك قاب قوسين أو أدنى،لكن الله دب فيها الحياة من جديد وكيف لا وهو من يحيى العظام وهى رميم،كما أن الله لم يرد أن يكون بولادة نجاة لهذه الطفلة نهاية لصديقتها وكأنه أشفق علي هذه الطفلة من حمل هذا الوزر الثقيل،لذا كانت ولادة هذه الطفلة فرح وإحتفال وليس حزن وألم فقد خرجت ماريا من المشفى على قدميها وليست فى صندوق خرجت ليكون بخروجها فرحت لنجاة ومحمد أكبر من فرحتهما بولادة طفلتهما ،فهذا اليوم

بالذات زار الفرح بيتهم وأضاءه بالأنوار،فى هذا اليوم إجتمعت العائلة والجيران ليرحبوا بالمولود الجديد بالزغاريد والأغانى وكانت صاحبة الفضل فى كل هذا الفرح ماريا التى حضرت الإحتفال سعيدة مبتهجة وكأنه خلعت أخيرا راد الحزن وإرتدت رداء الفرح عادت ماريا التى تعرفها نجاة وليست ماريا التى أبهت الحزن ملامحها وسرق من وجهها البهجة ومن شفتيها الإبتسامة فى هذا التجمع المهيب،قام أحد أصدقاء محمد وسئله:وماذا ستسمى إذا صغيرتك الجميلة؟

فأجابه دون تردد:ماريا.

تعلقت عيون الموجودين به فى صدمة كبيرة كان الموقف اشبة بمشهد الزروة فى فيلم قام البطل فية بقول كلام صادم ما جعل الموسيقى تتوقف والجمع يشعروا بالصدمة والمخرج يأتى بملامح الصدمة التى ترتسم على الوجوه،لكن كانت أكثر الموجودين صدمة هى ماريا ونجاة فلم تصدقا ما يقوله محمد فهتفت ماريا فى غير تصديق وهى تقول:لا لا يجوز هذا فهذا اسم.....

فقاطعها محمد وهو يقول:مسيحى أليس كذلك؟

أجابته مارية:بلى ماذا لو كانت صاحبة هذا الاسم هى من جعلها الله سبب لانقاذ إبنتى ،ماذا لوكانت صاحبة هذا الاسم هى من كانت مستعدة للتضحية بحياتها لاجل إنقاذ إبنتى؟ماذا لوكانت إبنتى المسلمة سترتبط باسم مسيحى طيلة حياتها نحن نقدس مريم العذراء فقد أنزل لها قرآن بإسمها يتلى على العالمين إلى يوم الدين نحن نحب المسيح ونؤمن بمعجزته كما أن الرسول تزوج ماريا القبطية كل هذا يؤكد أنه لا يشكل فرق تسمية ابنتى بهذا الأسم،فستكون ابنتى دائما رمز للترابط والحب،رمزا للصداقة الحقيقة ، كل ما فعلته من أجل الحب والصداقة من أجل كل جميل هتتسبب به هذه الفتاة المسلمة التى يجرى فى عروقها دم مسيحى،

ماريا هو اسم ابنتى لتظل صداقة زوجتى باقية وخالدة.

(٨)
المفاجأة

كانت الأجواء فى حياة ماريا تسير بروتينية وبطء نضال وتصرافاتها الغريبة البرفسور ألبرت وتلميحاته التى لا يريد منها سوى إثبات أن العرب وبالخص المسلمين شعوب متخلفة لا تستحق حتى الحياة فى أحيان كثيرة كانت ماريا تفقد أعصابها لكن فى آخر لحظة تتماسك ولا تجيبه إلا أن فى محاضرة اليوم قد تخطى كافة الحدود عندما دخل المحاضرة وكأنه فعلا يعلن الحرب عليها وان المحاضرات الفائتة ما كانت إلا هدنة مدروسة فقط ليشن غاراته عليها مرت أخرى.

فوضع حقيبته على المنضدة ثم أمسك القلم وكتب على السبورة لماذا الإسلام دين الإرهاب؟

عندما رأت ماريا العنوان كادت أن تجن من هول ما رأته شعرت أن جميع أعضائها فى حالت ثورة،ثم قال وهو ينظر إليها :فكرت فى هذا اليوم أن أترك القانون جانبا وأستمع إلى أرائكم فى موضوع خطير ما زالت تعانى منه أمريكا حتى الآن.

فأشار إلى أحد الطلاب ليدلى برأية فى هذا الموضوع فقال بنبرة حادة:لانه دين يدعو إلى القتل تحت مسمى الجهاد فى دينهم لن يبلغوا الجنة إلا بقتل الأبرياء.

أشار ايضا إلى أحد الطالبات وما رأيك انت ايضا؟

أنا أجده دينا متخلف جاهل والجهل أول الطرق الى العصبية التى تترك الحقيقة دون إكتمالها وعدم إكتمال الحقيقة يؤدى إلى الارهاب بكافة أنواعه مثلا بعيدا عن القتل يفرض الحجاب على المرأة ولا يجعلها حرة كفاية

لتأخد حقوقها مجرد تغطية جسدها هى الفضيلة الكاملة وما دون ذلك خطيئة يجب أن تعاقب عليها.

ظل البرفيسور ألبرت يتناقش مع الطلبة التى نعت الأسلام بأبشع التهم لا أحد مطلقا وقف فى صفة إلى أن جاء الدور على ماريا التى كانت فى حالة يرثى لها لم تشعر بالضعف طيلة حياتها كما فى هذه اللحظة شعرت بالاختناق كشخص سقط فى بئرعميق لا أحد يراه فيه ولا يسمع صوته،ولكنها لابد أن تتظاهر بالثباب فالعصبية هى ما تضيع الحقوق،فنظرت إلى البرفيسور ألبرت فى تحدى وقالت له قبل أن أجيبك على سؤالك الذى طرحته هل من الممكن أن أسالك هذا السؤال،ماهو تعريف الإرهاب؟

فأجابها ببرود: على الرغم من أن هذا لا يجوز فأنا المحاور فى هذا النقاش إلا أننى سأجيبك على سؤالك:الأرهاب هو تخويف الناس وترويعهم وجعل حياتهم وأموالهم وبيوتهم دائما فى خطر الأرهاب هو أن تقتل النفس البريئة بدون وجه حق.

لقد قولت لتوك أن الإرهاب هو تخويف الناس وجعلهم دائما فى خطر وقتل النفس البريئة بدون وجه حق،أليس كذلك؟

-بلى

- إذا ماذا تسمى ما فعله الجيش الأمريكى فى أفغانستان وفيتنام والعراق؟!أليس تدمير البلاد إرهابا؟!أليس قتل الأبرياء وتشريد الآمنين إرهابا؟!

-ظل مترددا ثم نظر إليها نظرة الفائز بجائزة عظيمة وقال فى لا مبالاة :إن ما فعله الجيش الأمريكى لم يكن سوى حربا على الإرهاب.

لم تكن ماريا تجهل خطاب جورج بوش الأبن ذلك الخطاب الذى سمم عقول الشعب الأمريكى وجعلهم يرون أن العدو الأكبر هم المسلمون لا أحد

سواهم فلابد من الثأر منهم لم يعلموا الغايات السياسية وراء ضرب هذه الشعوب والإستيلاء على خيراتها ولا سيما الذهب الأسود فى العراق.

-إذا قل لى كم إرهابا قتلوا؟

- كان سؤالها كالسهم الذى أصابه فى مقتل فلبث واجما بينما ظل الحضور مشدودا إلى ماريا تلك الخطيبة المفوهه التى هزمت الرجل الذى مازال أشد الأعداء للاسلام ربما أتخذ هذا الموقف منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر تلك الحادثة التى فقد فيها إحدى قدميه نعم فهذا الرجل الذى يسير مستعرض طاقاته الجسدية يسير بقدم حديدية،لكن ماريا لم يكن هدفها الإنتصار فى الحديث،أو الظهور كقائد يدافع عن قضية هامة تلك الوظيفة التى طالما تمنتها وزهدتها الآن،كل ما هنالك أنها أرادت إبداء وجهة نظرها تجاه دين بكل تعاليمه حرم قتل النفس البشرية وإعتبره إفسادا للارض والفطرة

فأردفت ماريا قائلة:يا سيدى أنا لا أدافع مطلقا عن الإسلام،فمعنى أننى أدافع عنه أنه موضع إتهام والإسلام أكبر بكثير من أى إتهام إننى فقط أقول وجهة نظرى فى دين أنا أنتمى إليه بقلبى وعقلى وجسدى،يا سيدى الإرهاب لا دين له هو مرض لعين يصيب الإنسان دون أن يصنفه حسب دينه ولكن له أسبابه القاتلة،فعلى سبيل المثال عندما يأتى شخص ويستغل جهل بعض الشباب بتعاليم دينهم ويقول لهم تعالوا سأعلمكم تعاليم دينكم ويقوم بتحريف آيات الدين ويملء عقولهم بكلام لم ينزل الله به من سلطان فلماذا لا يتبعوا ملته؟!

عندما تجتاح البطالة همم الشباب ويصبحوا عاجزين تماما مع أن جسدهم سليم ويأتى شخص ويقول لهم سأعطيكم المال بالإضافة إلى الجنة

على أن تجاهد فى سبيل الله فلماذا لا يجاهد فى سبيله بإعتباره الإلة الذى أنزل هذه التعاليم.

دعنى أسألك يا سيدى سؤلا آخرا تدعى السياسة الامريكية أنها غزت هذه البلاد فقط للقضاء على الإرهاب صحيح؟والمفروض أن تم لها ذلك.

فلماذا إذا لم ينتهى الإرهاب؟!

-يا سيدى عندما تقتل الإرهابى سيولد من صلبه آلاف الإرهابيين،أما إذا قتلت الأسباب التى تؤدى إلى الإرهاب لن يعانى العالم ولا أمريكا خاصتك منه إلى الابد.

أصاب الجميع الوجوم وكأن ما قالته أصاب قلوبهم قبل عقولهم.

الآن يا سيدى أنا قولت ما لدى دون أن أعمم كلامى على الشعب الأمريكى بل قصدت بكل كلامى السياسة الأمريكية بينما كان العنوان الذى كتبتبه لماذا الإسلام دين الإرهاب يعمم الحكم على دينا كاملا يؤمن به أشخاص من كل بقاع الأرض!!

الأن أنهيت حديثى كما أنتهى وقت المحاضرة فأسمح لى بالخروج.

تعلقت أعين الجميع بماريا وهى تهم بالخروج بما فيهم البروفيسور ألبرت ربما قالت ماريا ما أراد ألا يسمعه ولكنه يوقن أنه حقيقة ،او ربما أراد سماع هذا الكلام حتى ينهى العداوة غير المبررة تجاه المسلمين،كان مشتت الذهن يفكر فيما حدث ولم يكن يتوقعه. الغريب فى الأمر أنه لم يغضب لسماعه مرافعة هذه المحاميه المهارة تجاه هذه القضية التى ظن أنها ستخسرها من البداية ولم يستاء مطلقا لانه خسر قضية مضمونة كهذه ما كان يشعر به شعور مختلط وكأنه الشعور الأبدى بين الخير والشر بداخل الإنسان.

خرجت ماريا من المحاضرة لاهثة تتصاعد أنفاسها لكتمانها البكاء ثم جلست فى إحدى الزوايا بالجامعة وما لبس أن إنفجر الدمع من عينيها كإنفجار نافورة المياه.

لطالما كرهت ماريا العنصرية وتصنيفاتها البالية تلك التصنيفات التى تجعلنا نصدر الاحكام بدون وجه حق فنعطى الجنة لاشخاص دون اشخاص وكأن الجنة خاصتنا ونكفر أشخاص ونلقى بهم فى جهنم وكأننا من نأمر النار بلإشتعال،إنها فقط دعوات الجهل والفهم المجتزء للدين،ففى مصر إعتادت الدفاع عن المسيحين ضد الدعوات التكفيرية التى خرجت بها بعض الجماعات التكفيرية المتطرفة،فمن يفهم الإسلام حقا يعرف أنه دين التعايش السلمى والسماحة هذا الدين كما أعطى مساحة كبيرة للايمان أعطى مساحة أكبر منها للكفر،فمن شاء فليؤن ومن شاء فليكفر لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى من يتأمل هذه الأيه يجد أنها أنهت الجدال الأبدى بين الإسلام وأى دين أخر وخاصة جملة لا أكراه فى الدين حيث أن لا النافيه للجنس تنفى حدوث الشىء ،فكيف لنا أن ننصب أنفسا ألهة على غيرنا ونتهمهم بالكفر أليس هذا عدم فهم للقرآن؟!إلا أنها كانت ناضجة لتفهم أن هذه الجدلات ليس الغرض منها نصرة الأسلام بل الغرض منها نصرة سياسات معينة بمبدء فرق تسد

أخرجها من تفكيرها صوت رجل يقول لها:أنت الأنسه ماريا أليس كذلك.

-بلى

- البرفيسور ألبرت يريد لقائك فى مكتبه فقد طلب منى أن أبحث عنك فى كل مكان فى الجامعة.

إعتقدت ماريا انه حدث ما كانت تخشاه منذ دخولها الجامعة،وأن هذا البرفيسور سيزف إليها خبر فصلها من الجامعة حتى يرى ضعفها ويشمت فيه،ولكنها عزمت ألا تريه ضعفها فليحدث إذا ما يحدث لا يهم،ولكنها أبدا لن تظهر أمامه بمظهر الضعيف الذى سلب منه حقه،بل ستظهر أمامه بدور الفارس المنتصر وإذا كان هو من أعلن الحرب فهى من ستنهيها ولكنها ستخرج منها منتصرة على الأقل لنفسها وما دام لكل حرب خسائر وهذه الخسائر تطول المنتصر والمهزوم فلتعتبر فصلها من الجامعة إحدى خسائر حربها معه.

دخلت مكتبه بخطوات واثقة برأس مرفوع ونظرات ثاقبة.

مرحبا سيدى ،أحد العمال قال لى أنك تريد أن ترانى.

إجلسى يا ماريا.

جلست ماريا وما زالت محتفظة بثباتها الأنفعالى لكن جل ما تخشاه أن تنهار أمامه أثر الخبر الذى هى متوقعة وقوعه فى الأساس.

أطفأ غليونه الذى كان يشعله ثم قال بكل تلقائية وكأنه يزف إليه خبرا عاديا تعرفه مسبقا:هل توافقين على العمل فى مكتبى كمحامية تحت التمرين؟

نظرت إليه ماريا فى إندهاش كبير جعل الكلام يقف فى حلقها ولا يخرج من بين شفاتيها.

فأردف قائلا:إننى أدرك أن بيننا خلاف منذ اليوم الأول الذى رأيتك فيه وربما أنا هو من خلق هذا الخلاف،فأردت أن نبدء صفحة جديدة بيننا عساها أن تساهم فى حل هذا الخلاف

إن ما أعرفه عن شخصية الرجل الأمريكى أنه رجل عملى جدا لا يضعف أمام المشاعر التى تعيقه عن تقدمه،فهل وجدت بى الكفاءة التى تؤهلنى للعمل فى مكتب أمهر محامى فى ولاية بافلو؟!

سأتفق معك للمرة الأولى إنك على حق تماما،ولكننى دائما أراهن على الحصان الرابح ولقد راهنت عليك ،وصدقينى لا بأس لدى إن خسرت الرهان هذه المرة.

أتتمنى لى الفشل من البداية؟

بل أتمنى لنفسى الربح،ولكى أصدقك القول أنا رابح فى كلتا الحالتين،فأن أثبتى كفاءتك سأربح الرهان،وأن أثبت العكس لن أخسر شيء فهذا ما أعتقده أن الشعوب العربية جاهلة لا تصلح لشيء.

ماذا إذا رفضت عرضك؟

لن أخسر شيء،ولكن ربما أحد المسلمين يخسر مستقبله ؟

-إرتعش جسد ماريا لهذا الكلام ثم هتفت فى صدمة:ماذا؟!

فقال بهدوء:سأشرح لك الأمر:منذ حولى أسبوعين جاءت لى فتاة جميلة ربما فى مثل سنك،تستنجد بى لكى أترافع فى قضية زوجها لانه معروف عنى أنى لم أخسر قضية مطلقا ولكنها كانت مسلمة مما جعلنى لا أقبل القضية ولكننى لم أرفضها بل قمت بتعجيزها،لذلك طلبت منها لكى أتولى القضية مبلغ كبير من المال،وإن لم تتولى أنت هذه القضية فسيخسر هذا الشاب مستقبله.

كيف لك أن تفعل هذا؟! كيف لك أن تضع حياة شاب برىء فى يد فتاة لم تمارس المحاماة من قبل؟!

سأصدقك القول يا ماريا ولكن هذا لا يعنى أننى إقتنعت بكلامك،

ولكنك عندما كنت تدافعين عن الإسلام ضد هجومى عليه فى المحاضرة،أدركت أنك تدافعين عن قناعتك ما تريه صواب دون أن يهمك رأى الأشخاص الآخرين أنك تدافعين عن الأشياء بدافع الفطرة ومن كل قلبك،أنك لا تريدين الأنتصار أو المراوغة لاثبات أن رأيك الصواب أنت

تدافعين فقط عن ما تريه بديهيدات وتؤمنين به فى قرارة نفسك،أنا لا أعرف مهاراتك القانوينية وحنكتك بالمحاماة ولكنك تدافعين عما تريه أنه الحقيقة ،وهذا ما تحتاجه هذه القضية،إذا صدقت أن هذا الشاب برىء ستحققى له العدالة فقط بهذه البساطة،واقول لك الحقيقة إنه حقا برىء.

لم يدع أمامها مجال للرفض لذا وافقت على الفور،فحياة هذا الشاب الذى لا تعرفة مطلقا ولا تظن أنها إلتقت به أبدا اصبحت متعلقة بها وبدفاعها عنه

لكن كان الفضول يقتلها لذا قالت: إذا كنت تعرف أنك لن تترافع عن هذا الشاب لانه مسلم فلماذا لم ترفض القضية؟

لن أكذب عليك كنت أريد أن أرى معاناة المسلمين وكيف أن مصير حياتهم فى يدى.

طبعا لن أندهش من إجابتك ولكننى لدى إستفسار آخر لماذا تريدنى أن أدافع عنه؟

إننى لا أغير قناعاتى بسهولة،والدفاع عن الحقيقة إحدى قناعاتى،حتى وإن كانت هذه الحقيقة هستنقذ أعدائى.

خرجت ماريا من مكتب البرفيسور ألبرت وهى لا تدرى ماذا تخبأ لها الايام القادمة فحياة شخص ومستقبله اصبح بين يديها الآن،أكان لابد لها أن ترفض؟ولكنها كيف تفعل ذلك؟! أتتركه يغرق وهى قادرة على إنقاذه؟ ومن هو ذلك الشخص الذى وضعت حياته بين يدها؟،هل تستطيع إنقاذه ؟كانت ماريا فى فى حيرة من أمرها فلا تسطيع تركه وتخاف أن تأتى لتنقذه فتضعه فى خطر،أه يا برفيسور ألبرت إذا كنت تقصد بذلك الإنتقام منى فتحقق لك ما تريده كاملا ولا يوجد أسوء من شعور الخطر الذى وضعتنى فيه فأصبح يأكل

روحى أننى الآن أخاف أخاف على نفسى وأخاف على ذلك الغريب الذى أصبح فأجأه كل ما أفكر به.

***

جلس البرفيسور ألبرت أمام موقد النار ،فى منزلة الذى يشبه قصور الملوك تحت الثرايا اللألماثيه التى تشع بنورها فتملاء المكان بهجة يستمع إلى مقطوعة ضوء القمر لبيتهوفن مشعلا غليونه الذى تطاريرت مع دخانه الكثير من الأفكار وتمثلت أمامه كانت تضايقه كثيرا تسخر منه وتخرج له لسانها تنكر تصرفه مع هذه الفتاة تسخر من جميع مبرراته الواهية التى لا قيمة لها أمام ذكائه الخارق فكيف له أن يقنع عقله أنه يريدها فقط لاجل الإنتقام؟أو كيف له أن يقنع عقله أنه يريدها فقط لأجل الدفاع عن هذا الشاب وإن كان هذا المبرر صحيح ولكنه ليس المبرر الوحيد،إذا ماهو هو السبب الذى جعله يعرض عليها هذا العرض الذى يتمناه جميع دارسى القانون فى هذا البلد؟! أكان حقا يريدها أن تكون بجواره؟! أكان حقا حب.؟!....أنتفض من فوق الكرسى الذهبى الذى كان يجلس عليه كمن لدغة عقرب لهذه الفكرة التى يريد عقلة أن يضعه أمامها وجها لوجه، فكيف يمكن لرجل مثله أن يقع فى غرام هذه الفتاة ؟!وما الشىء المثير فيها فجذبه إليها؟!،إنها حقا فتاة غريبة ولم تكن من هذا النوع من الفتيات التى يفضلهن بل كانت نوعا آخر مختلف تمام كانت من هذا النوع من الفتيات التى تحرك القلب لا العين،هو رجل إعتاد أن يحب بعينيه فيكفى فقط لفتاة أن تدخل غرفة نومه لا قلبه ذلك القلب الذى لم ير يوما أنه يوجد فتاة تستحق أن تدخله، لكن هاتين العينين الواسعتين التى لم تحمل بداخلهما سوى نظرات التحدى له، تلك الشفتين التى لم يخرجا سوى كلاما لمهاجتة،ترى هل أوقعوا به؟! حتى ذلك الرداء الغريب الذى لا يظهر أى شىء من جسدها،مثير وغامض إنها مثل الأحجية

التى تريد أن تحلها لتحصل على الكنز،فكلما نظر إليها تسائل ما هو الكنز الثمين الذى تحاول تخبأته خلف هذا الرداء ؟!كل هذه الأشياء كونت جيشا قويا هزم ذالك الفارس المغاوار الذى لم يخسر معركة من معارك الحب بل أستسلمت جميع ممالك الحب أمامه وتوجته ملكا على عروشها؟!هاهو يخسر هذه المعركة أمام فتاة لم تطء أرض المعركة يوما ،فتاة ذات سيفا بكر لم يسيل على حده دماء العشاق.

إنه رجل إختبر جميع أنواع النساء وتذوق طعمهن جميعا فكيف لهذه الفتاة أن توقع به ؟! كان فى جمالها شىء من السحر الذى لم يعهده من قبل يكفى ففط أن تنظر إليها لتقع فى حبها أن تستمع لصوتها حتى تزداد دقات قلبك حتى أن أنوثتها تكمن فى برأة ملامحها وليس فى منحنيات جسدها فتاة تشبه لوحة فنية لابد أن تنظر إليها فقط دون أن تلمسها،أكان حقا إستفزازه لها لكى تتحدث فقط، لكى يسمع صوتها؟! أكان حقا ليرى تعبيرات وجهها البريئة؟! هذه الفتاة لا تنتصر عليه حين تتحدث بل حين تصمت حين لا يستمع إلى صوتها فهو الخاسر كان من الممكن أن تقتله فقط حينما تتجاهل هجومه لذا كتب ذلك العنوان على السبورة ليست لإهانة دينها ولا للتعالى عليه وإن كانت هذه نيته قبل ان يراها، بل ليجعلها تخرج عن صمتها المطبق طيلة محاضراته ولكنه لم يدرك أنه بما فعله يعلن الحرب على نفسه لم يدرك أنه سيقع فى حب الشخص الذى ظنه العدو كانت نيته أن يفوز بالحرب أمامها ولكنه الأن لن يمانع إذا خسر أمامها فهو يفضل الخسارة أمامها على خسارتها.

بعد أن كان صياد ماهر تقع الفتيات فى شباكه طواعية دون بذل أى مجهود يكفيه نظره ليصيب سهم عينيه أجمل الفتيات فيقعن مقتولين فى حبه فقد حولته ماريا لعاشق سلاحه الورود ترك ساحة الصيد وذهب يشدوا شعرا كمجذوبى السيدة.

وهبها دون أن تطلب أثمن ما يمكن أن يعطيه رجل لإمرأه،فقد أعطاه قلبه،ذلك القلب الذى تمنيت الكثير من النساء الإستحواذ عليه،أعطاه لها دون مقابل وهذا بالنسبة لرجل مثلة لا يعطى شىء دون ان يأخذ ما يفوقه صفقة خاسرة ولكن قلبه لا يقدر بثمن ثمنه الوحيد هو الحب دون ذلك فهو ثمن بخث.

لم تكن المحاضرة هى المرة الأولى التى يراها فيها بل رأها قبل هذا وهى تسير فى الجامعة تتدهادى بخطواتها الرقيقة بفستانها الأبيض الجميل وحجابها البفسجى كانت تشبه فراشأت الحدائق مرت أمامه دون أن تنظر كان مشهدا سنيمائيا بالحركة البطيئة حيث يرى البطل فتاة أحلامة للمرة الأولى ثم تعزف الكامنجات موسيقى آتية من الجنة، لكن هذه الاميرة كانت تنظر للجامعة بدهشة ورهبة الأمر الذى جعل ملامحها الجميلة ترتسم عليها غيمة حزن عميق هذا الحزن لم يقبح ملامحها بل زادها فتنه كانت كلما إقتربت منه إزدادت دقات قلبه أردها أن تلتفت إليه لتلتقى عينيها بعينه، كان فى هذه اللحظة كالمراهق يلاحق إحدى الفتيات.

لقد غزت قلبه وإستحوذت عليه وحطمت قلوعه وحولته من ملك يغزو القلوب ليحكمها إلى ملك مهزوم أسير قلبها.

(٩)
دكتور عبد الرحمن

جلس الدكتور عبد الرحمن على كرسى مكتبه واضعا رأسه إلى الخلف ،مغلقا عيناه فقد شعر هذا اليوم بإعياء شديد كما يشعر فى هذا اليوم من كل عام،ثم قام بوضع إصبعه على زر النداء،لتدخل عليه كرستين الممرضة،فقال لها :هل يوجد مرضى بالخارج؟

-ابتسمت كرستين إبتسامة ساخرة بعض الشىء وقالت:فى هذا اليوم بالذات،ينسى الناس المرض ولا يهيئون انفسهم سوى للإحتفال.

-حسنا فهمت:يمكنك المغادرة،ولا تنسينى فى إحتفالك

-نحن لا ننسى من نحبهم لأنهم يسببون لنا الفرح،والسعادة واحيانا الألم والتعاسة،لكن الحياة لابد أن تستمر،تلك هى الحقيقة المؤكدة

-تظاهر دكتور عبد الرحمن بإنشغاله بالنظر فى بعض الأوراق التى أمامه ثم قال فى حزن:ما فائدة إستمرارها عندما نفقد ما نعيش لأجلة،الن تكون الحياة فى هذه الحالة عبث وعبء ،الن نموت فى اليوم آلاف المرات؟! ما فائدة الحياة وأروحنا دفنت فى الأرض منذ زمن،بينما ظل الجسد عالقا بين مخالب الحياة ،أيوجد فائدة للجسد بدون روح.

- ذفر الدكتور عبد الرحمن وهو يقول:والآن هل انهينا هذا الحديث فقد إقتربت الساعة من العاشرة مساء ،سوف تتأخرين على إحتفالك

-فباغتته كريستين قائلة:أننى من هؤلاء الناس الذين يؤمنون بأن الفرح سيدق ابواب قلوبنا مرة أخرى مهما كان الحزن مستوطنا فيها وآخذها بوضع اليد،هل تتذكر ايها الطبيب العبقرى الشخص الذى قال هذا

الكلام....سأدعدك هذا اليوم تتذكره وأنا لن أفوت إحتفالى مطلقا إذا لم يكن هذا العام فالعام القادم.

شرد دكتور عبد الرحمن بذهنه قليلا،كأنه تذكر نفسه وهو يقول لها هذا الكلام،ثم أخذ نفس عميق كأنه يقول :كيف للحياة أن تغيرنى إلى هذا الحد ؟!،كيف لها أن تصفعنى وأنا أهرول إلى أحضانها كالطفل الصغير الذى يجرى الى أحضان أمه سعيدا فتدفعة غاضبة بعيدا عنها.

أخرجته كريستين عن شروده وهى تقول:يبدو أنك تذكرت ذلك الشخص.

-فهتف بغضب زائف :أعلم جيدا انك لن تصمتين حتى اقوم بطردك.

-حسنا سأذهب،لكن هذا العام سأتمنى لك امنية.

-وبعدها ستذهبين؟

-أومئت برأسها،علامة الموافقة

-حسنا وما هى إذا؟

-أن تنسى.

ثم تركته وذهبت دون أن تتفوه بكلمة أخرى.

خرجت كرستين من مكتب الدكتور عبد الرحمن شريدة الذهن تفكر فى هذا الطبيب التى أنقلبت كل أفراحه أحزان ثم عادت بذاكرتها الى اليوم الذى التقيت فيه الدكتور عبد الرحمن كان هذا اللقاء منذ ثمانية أعوام فقد كانت ذاهبة للتقديم فى وظيفة ممرضة فى إحدى مستشفيات مدينة بافلو ولكى تحصل على هذه الوظيفة لابد من أجتياز الإختبار الذى وضعته المشفى،لكن فى هذا اليوم بالذات كانت والدتها التى تعانى من ألم فى العمود الفقرى يجعلها طريحة الفراش متعبة جدا، ولا يوجد مع كريستين ثمن الدواء،فكانت خائفة عليها مما شتت عقلها وجعلها لا تستطيع إجتياز

الإختبار فوقفت ضائعة مشتته أمام الطبيب الذى قام بإختبارها لا تقوى على تذكر شيء وكأنها وهى إحدى الطالبات المتفوقات فى كلية التمريض تبدو كأنها خرقاء لا تعرف شيء عن التمريض بل لم تسمع عنه فى حياتها،خرجت من غرفة الإختبار وهى تشهق بالبكاء على تلك الوظيفة التى كانت ملاذها الأخير لانقاذ والدتها من براثين الموت ولكنها ضيعتها من بين يدها،انتظرت نصف ساعة مثلما قالوا لكى يعلنوا عن المقبولين بالمشفى لكن عندما قالوا اسماء المقبولين لم تكن من بينهن وهذا جعلها تنهار تماما، فدخلت غرفت مدير المشفى وهى تبكى وتتوسل له واعده اياه أنه لن يشتكى منها وأنها حقا ممرضة على قدر جيد من الكفاءه،وظلت تشرح له كم هى بحاجة لهذه الوظيفة فوالدتها مريضة جدا وهذه الوظيفة هى سبيلها الوحيد لانقاذها من الموت،لكن المدير لم يأبه لتوسلاتها وكاد أن يطردها من مكتبه ،فى هذه اللحظة شعرت أن جميع الأبواب أغلقت فى وجهها،إلى أن دخل احد الأطباء مكتب المدير وهو يقول فى إعتذار:آنسة كريستين حمدلله أنك لم تذهبى بعد كنت سأشعر بتأنيب الضمير طيلة حياتى.

فهتف المدير فى حنق:ما الذى حدث دكتور عبد الرحمن.

-أنا اسف سيدى ،فالذى حدث أن تقرير الآنسة كريستين تبدل بتقرير ممرضة أخرى لم تجتاز الإختبار بنجاح،أما الآنسة كرستين قد إجتازت الإختبار بكفاءة فائقة

-قال المدير فى شك :هل أنت متأكد دكتور عبد الرحمن؟

-نعم متأكد جدا،فأنا من قام بإختبارها

-وهل أنت مدرك أن هذا الخطأ هيعرضك للخصم من مرتبك

-هذا بالنسبة لى أهون بكثير من التسبب فى ظلم شخص ما

-قال المدير :باسم المشفى أعتذر لك آنسة كريستين على هذا الخطأ الفادح وارجو ألا يعلم احد بما حدث فهذا المشفى يسير على قواعد الصدق والجودة وأنا لا اريد أن تتشوه سمعته،وإعتبارا من الغد تستطيعين إستلام وظيفتك.

حدث كل هذا امام كريستين مما اصابها بصدمة عقدت لسانها

فوقفت تنظر بذهول لهذا الملاك الذى هبط على الأرض فقط لانقاذها،لم تستوعب الموقف أو تفهم ماذا حدث؟! فقد كانت مثل السمكة التى القاها أحدهم خارج المياة فظلت تعلو وتهبط محاولة النجاة وفى اللحظة الأخيرة قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة جاء أحدهم والقاها فى المياة مرة أخرى فالحقيقة غير القابلة للشك أن الدكتور عبد الرحمن ليس من قام بإختبارها بل طبيبا آخر

-لكن من هذا الملاك؟ ولماذا فعل ذلك؟!

-فى هذا الوقت خرج الدكتور عبد الرحمن من غرفة المدير،وهو يقول لها مبتسما: حظا موفقا آنسة كريستين.

-فنظرت إليه فى صمت لكن عيناها تسأل الكثير من الأسئلة

فستأذنت المدير وخرجت تهرول وراءه،وهى تنادى علية بصوت منخفض: دكتور دكتور

فأدار لها وجهه المبتسم دائما قائلا:أتمنى أن توفقى فى هذه الوظيفة آنسة كريستين.

فنظرت له بذهول قائلة: لماذا كذبت على المدير-لأجل أمى

-لاجل امك؟!

نعم آنسة كرستين فجميع الأمهات متشابهات فى كافة أنحاء العالم أنهم مثل الوطن إذا ضعف ضعف ابنائه،والأبناء فى جميع العالم متشابهون فهم

إذا فقدوا الام شيعيشون مشردون بلا هوية ،وصدقينى هذا الشعور قاتلا فأنا بعيد عن أمى الآن لذا مساعدتى لك هتنقذ والدتك وانقاذى لوالدتك مثل إنقاذى لوالدتى لذالك لا تعتبرينها مساعدة بل واجب الابن تجاه امه.

هتفت كريستين فى نفسها قائلة: يبدو ان دكتور عبد الرحمن سمع كل شىء داربينى وبين مدير المشفى.

-لا ادرى حقا كيف اشكرك

-إذا سألتينى لن اتردد،فى اخبارك

-بل تطلب ما تريد

-كوب من القهوة،تصنعيه بنفسك

إستغربت كريستين هذا الطلب فهو لا يعرفها كما أنه غريب عنها وعن بلادها ايضا فهو رجل عربى مسلم وفى الوقت الذى إلتقيا فيه كانت هناك مشاكل بين أمريكا وبعض الشعوب الإسلامية لذا بدأ الإعلام الأمريكى فى تشويه صورة المسلمين تماما مما جعل الشعب الأمريكى يأخذ موقفا معاديا تجاههم وما هى سوى فرد من الشعب كانت تخاف منهم لم يصل الأمر للكره لكنها كانت تخاف ،لكن لا تدرى لماذا وثقت به، بل لم تأخذ الكثير من الوقت لكى توافق على طلبه الغريب،فالبنسبة لها من يفعل كل هذا من أجل شخص لا يعرفه لا يمكن أن يكون شخصا سيئا وفعلا ذهبا هما الإثنين إلى منزلها،وعندما وصلو وقف خارج المنزل وطلب منها أن تدخل تستأذن والدتها لدخوله وفعلا حصل هذا وعندما دخل بدت على وجهه علامات الدهشة وقال لها: أتدرين انا منزلك زوقه راق يبدوا أنه جزء من متحف أثرى.

هتفت كريستين فى نفسها فى غير تصديق بيتى أنا المتواضع وأثاثة القديم البالى اصبح جزء من متحف اثرى،وأنا الخائفة من أن يجلس على أحد الكراسى فيسقط به

-فأردف دكتور عبد الرحمن قائلا: أتدرين أن بيتك يشبه كثيرا بيتى فى بغداد كان بنفس القدر من الرقى فقد إختارت والدتى كل قطعة اثاث به فإمتزج حبها بهذا الاثاث مما جعله يبدو بالنسبة لى قطعة فنية ممزوجة بحب أمى،فالحب هو أساس البيت وليس الأثاث

-هتفت كريستين فى نفسها قائلة :هذا ما لم أتوقع سماعه من أحد!

فما كان منها إلا شكره على هذه المجاملة الراقية،التى أراد بها التخفيف من حدة إرتباكها.

-الن تعرفينى على والدتك

- طبعا بكل سرور

فأخذته كما يريد الى غرفة والدتها ،فكانت نائمة على السرير من شدة الالم

-فأقترب منها الدكتور عبد الرحمن وهو يقول:الآن فهمت من وراء هذا الذوق الراقى للمنزل وكيف لا وصاحبته تفوقه جمال ورقى

-أنارت وجه والدتها ابتسامة وديعة لم ترها منذ شهور وهى تقول بصوت متهدج:بل زاد المنزل جمالا بقدوك يابنى.

-ثم قام بفصح والدتها فحصا شمالا ،وعند إنتهاءه من الفحص ظل يغازلها قائلا:لا تقلقى سيدتى الجميلة ،ستكونين بخير ،إن شاء الله،ثم أن المرض له عذره ايضا كيف يجد شابة بهذا الجمال ولا يغازلها لبعض الوقت.

ضحكت والدتها بصوت عاليا هذه المرة ،كان لكلمات دكتور عبد الرحمن فعل السحر على أمها،وكأنها فعلا عادت شابة صغيرة لا يتجاوز عمرها الثامنة عشر،وكأنه هزم مرضها فقد رأت المرض كالجندى المهزوم الذى ينسحب من أرض المعركة رافعا رايت الإستسلام،وبعد هذا اليوم ظنت ان المرض لن يصيبها مرة ثانية.

وبعد إطمأنانه عليها قال لها :سأتركك تستريحين مقبلا يدها ورأسها ثم رافقته كريستين الى خارج الغرفة فقالت له بأرتباك وخجل:صدقنى دكتور عبد الرحمن لا أدرى كيف أشكرك

-فقال لها:أتريدين أن أطلبه منك مرة أخرى.

-فقالت بذهول :ماذا؟!

-فقال فنجان القهوة!!

فهتفت بتوتر اهاا،آسفة، لحظة واحدة،ويكون جاهزا

دخلت كريستين المطبخ لكى تجهز له كوب القهوة الذى طلبه وعندما خرجت لم تجده موجودا،مما جعلها تتعجب،لكن ما الذى فعله حتى الان لا يدعو للتعجب؟!

-لم تفت سوى دقائق معدودة حتى أتى صبيا صغير وفى يده حقيبة بها بعض الأدوية وأعطاها لكريستين وعندما سألته من أعطاها لك.

-اجابها لا أدرى، شخصا أعطانى بعض النقود وقالى لى :أن أعطي هذه الحقيبة للفتاه الموجوده بهذا المنزل.

كان فى هذه الحقيبة بالإضافة الى الادوية ورقة مكتوب عليها مواعيد الدواء كما كتب ايضا :آنسة كرستين والدتك بخير تماما ولن يصيبها مكروة،إذا أحتجتى أى شىء آخر فتذكرى أن لك أخا تستطيعين أللجوء إلية وقتما تشاءين،وبالمناسبة أنا لا أحب القهوة،فهى من الأشياء التى مهما جاهدتى لإضاعة مرارتها تظل عالقة بها .

كلما تتذكر كريستين ما فعله معها دكتور عبد الرحمن وما يفعله مع المرضى،وكيف هو إنسان طيب القلب، يعيش حياته فقط لمساعدة الناس بكل ما يملك،يقدم المساعدة دائما قبل ان تطلب منه،تتعجب من الذى حدث معه،لم يكن يستحق هذا العناء،فيكيف لشخصا يدخل السعادة فى

قلوب الأخرين ان يدخل الحزن قلبة بهذه الوقاحة،لم تكن الحياة عادلة معه ولم يكن يستحق كل هذا الحزن،همت كريستين بعد شرودها الطويل بالخروج من العيادة وهى تقول :أتمنى له أن يكافئه الله فى بداية هذه السنة ببداية جديده،مليئة بالسعادة والبهجة.

***

ظل الدكتور عبد الرحمن هذه الليلة منغلقا على نفسه تاركا العالم يضج خارجيا بل ظل يغلق جميع نوافذ العيادة حتى لا يستمع إلى الأصوات الخارجية التى تتعالى فى هذا اليوم بالذات من كل سنة إحتفالا ببداية عام جديد،مرت ستة سنوات على آخر مرة احتفل فيها بهذا اليوم،إلا أنه بعد أن كف عن الإحتفال به إستغرب من سعادة الناس فى هذا اليوم الذى يعلن عن إنتهاء سنة اى موتها ودفنها الن يفكروا ولو للحظة أن هذه السنة التى يحتفلون بها قامت على جثة السنة الماضية الم يفكروا بأنها مجرمة قتلت قرينتها لتأتى هى ؟كيف يستقبلونها بالفرح وإلاحتفال بدلا من الحزن والعقاب؟! كيف لهم أن يخونوا السنة الماضية يقيمون الإحتفالات بدلا من المآتم؟!

لا يدرى ما الذى حدث لكنه شعر فأجئه بالإختناق داخل العيادة مما دفعه إلى الخروج ،يسير فى الشوارع بلا هدى كعصفورا تائه عن سربه خانه جناحه فسقط من أعلى السماء وخانه الموت فلم ينقذه من حياة أشبه بالموت وتركه عاجزا مكسور الجناحين لا يقوى على الطيران ولا يقوى على العيش بدونه ،أيوجد أتعس حظا من طائر فقط جناحيه،ولم يعتد السير على أقدامه بعد.

بدأت اصوات اجراس الكنائس تدق على وتيرة واحدة وكأنها اوركسترا موسيقى يعزف بقيادة مايسترو واالمفرقعات التى تجوب السماء معلنة بداية

سنة جديدة،وسط رقصات الاشخاص فى الشوارع واصوات ضحكاتهم،مهما كان تصرفات الناس فى هذا اليوم فكل شىء يبعث للفرح ذلك الفرح الذى يحزنه أكثر مما يسعده أحيانا يكون الفرح مؤلم أكثر من الحزن نفسه خاصة عندما يرتبط معنا بحادث أليم أو عندما نتذكر اشخاص كانوا فرحتنا وسعادتنا ورحلو عنا ذلك الرحيل الذى لا أمل فيه للرجوع لكن هناك أمل للقاء وهذا اللقاء موعده لا يعلمه إلا الله.

سار الدكتور عبد الرحمن مبتعدا عن أصوات الإحتفالات رويدا رويد،وبدأت الاضواء فى الخفوت،ليدخل فى شارع مظلم بعض الشىء لا يعرف نهايته مبتعدا حتى عن مكان شقته ،ربما هذه المرة الإولى التى يسير فيها فى هذا الشارع ،ثم بدأت أحوال الطقس فى التغير وكأنها تنذر عن عاصفة قادمة كانت الرياح شديدة وصوت الرعد قويا ولم تمر دقائق قليلة حتى بدأت أمطارا غزيرة فى التساقط وكأنها شلالات وفاجئة دون سابق أنذار يسمع أصوات استغاثة آتية من بعيد فتاه تقول بلهجة أمريكية خائفة: النجدة لم تفت ثوانى معدودة حتى استمع إلى صوت سيارة شوشت على صوت الفتاة من الموقف إستنتج أن هذه السيارة تطارد الفتاة ، ثم بدء صوت الفتاه فى الخفوت واصوات اقدامها فى الإقتراب منه كما ان صوت السيارة إختفى تماما ليسمع فقط أصوات أقدام ترجلت من هذه السيارة ربما لضيق الشارع،وعندما بدأت الفتاة فى الإقتراب منه،قام بجذبها نحوه وراء حائط ووضع يده على فمها حتى لا تصدر أى صوت يجعل من يطاردوها يستدلون على مكانها.

-وبعد ذلك سمع صوت أحدهم يقول:لا يوجد لها أثرا هنا ،هيا بنا نعود الى السيارة ونكمل احتفالنا،فلا داعى لتعكير صفو ليلتنا،بسبب فتاة

-فرد عليه شخص آخر وهو يزمجر بغضب شديد:ربما ساعدها الحظ هذه المرة.

وبعدها سمع الدكتور عبد الرحمن صوت السيارة وهى تتحرك ،فأبعد يده عن فمها،متأسفا على هذا إلا أنها دون أن تنطق بكلمة واحدة سقطت بين يديه مغشيا عليها،فما كان منه إلا أن يحملها ويذهب بها الى عيادته،ثم أخرج هاتفه المحمول من جيب سترته،و طلب كرستين.

فاجابت بسرعة رغم هذا الوقت المتأخر

-فقال بإقتضاب :كرستين أريدك فى العيادة حالا،أرجوك إجلبى معك إحدى فساتينك الطويلة ذات الأكمام

-فجأئه الرد بدون سؤال عن تفاصيل ،أو لماذا؟،او ما الذى حدث:حسنا سآتى حالا

دخل الدكتور عبد الرحمن إلى العيادة حاملا الفتاة بين ذراعيه،فوجد كرستين فى إنتظاره ،وعندما رأته أمسكت معه الفتاه ثم وضعاها على السرير.

-من هذه الفتاه؟جاء صوت كرستين متسألا

-لا اعلم ولكنها كانت مطاردة من بعض الأشخاص،وغابت عن الوعى ربما من أثر الصدمة،من فضلك سأخرج لبعض الوقت،لكى تبدلى لها ملابسها المبتلة،كرستين حاولى الا يظهر من جسدها شىء من شعرها حتى قدميها ثم حضرى لى حقنة مهدئة لكى اعطيها لها لتستريح حتى الصباح،بعدما تنتهين من ذلك نادى على

نفذت كرستين ما طلبه منها دكتور عبد الرحمن،ثم نادت عليه فاعطى الحقنة للفتاه وطلب من كرستين أن تبات معه هذه الليلة فى العيادة حتى

الصباح وبالفعل وافقت على طلبه،وجاءت بكرسى وجلست بالقرب منها وبجوارها الدكتور عبد الرحمن

كل ما فعله الدكتور عبد الرحمن فى هذه الليلة كان تنفيذا لرغبات هذه الفتاة،لا يدرى لماذا لكنه كان يدرك تماما ما يمكن ان يضايقها أو يسعدها دون أن يلتقى بها قبل هذا اليوم وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد يعرف ما تريده او لا تريدة ،لقد عاش معها حياة كاملة فى زمن قصير لا يتعدى الساعة،لذا على الرغم من قرب شقته من ذلك المكان الذى حصلت فيه المطاردة وكان من الممكن أن يأخذها إلى هناك ولكنه دون وعى أخذها إلى عيادته لتخرج تلك العلاقة من الدائرة الحميمية إلى الدائرة الرسمية كما انه طلب من كرستين ان تكون معه حتى لا يخلو بها ،فأهون على هذه الفتاة الموت دون أن تجد نفسها فى شقة رجل غريب باتت ليلة كاملة بمفردها معه حتى لو كان هذا الرجل نواياه حسنة ولم يفعل شيء سوى إنقاذها

ظل الدكتور عبد الرحمن مستيقظا طيلة الليلة يتأمل ذالك الملاك النائم فقد كانت تعقد حاجبيها أحيانا فى ضيق،وكأنها تتذكر ظلال الشيطان التى كانت تطاردها،وأحيانا أخرى تنير وجهها إبتسامة وديعة رقيقة تشبه إبتسامة طفلا ينام فى حضن أمه وكأنها تتذكر انها الآن فى آمان.

تذكر وقتها تلك اللحظة التى وضع فيها يده على فمها حتى لا تصدر صوتا وتلك النظرة الحادة التى تشبة النار التى شبت فى الهشيم منها و التى سبقت كلامه،تلك النظر التى تقول:كيف تجرأ على لمسى

وعندما قال لها،هامسا :لا تخافى أنا هنا لمساعدتك،إستبدلت تلك النظرة بنظرة أخرى تشبة الماء الذى أطفأ هذه النيران وكانت هذه النظرة أشد تأثيرا،وكأنها تقول له:أنا الآن بين يديك يجب عليك حمايتى

كل تلك النظرات جعلت قلبه يرتعش،جعلته حقا يقسم على حمايتها حتى وإن كلفه الأمر حياته فى سبيل ألا يدنس هذا الطهر أحد،فى هذه اللحظة بكل مافيها من قلق ومخاطر كادت ان تودى بحياتها أو تعرضها للاغتصاب كان كل ما يشغلها ألا يسقط حجابها من فوق رأسها كانت تتشبث به بقوة غريبة يبدو ان هذه القوة استمدتها منه كانت مثل الملكة المتربعة على العرش وهذا الحجاب مثل التاج على رأسها ولا قيمة لملكة بدون تاجها لذا تشبثت به ،كل هذه القوة جعلت الدكتور عبد الرحمن يقف مذهولا بل فخورا كونه ينتمى الى نفس دين هذه الفتاة بل الملكة التى تدرك جيدا قيمة تاجها وهذا التاج ليس تاجا ذهبيا أو مرصعا بالياقوت والألماس،ليس سوى قطعة قماش ابتاعتها ببعض الجنيهات لكنه بالنسبة لها ليس اقل قيمة من ذلك التاج بل اثمن بكثير،كان أصلها وهويتها كان جذورها،وكأنها تصرخ بكل قوتها وتقول لهذا العالم الغربى: نعم أنا مسلمة

غابت الفتاة عن الوعى، من أثر الصدمة ولكنها كانت تبعث لدكتور عبد الرحمن برسالة مضمونها :إننى أثق بك،أثق انك لن تؤذينى،وإلا فتاة مثلها كانت تفضل الموت على الإستسلام للغياب عن الوعى فى أحضان رجل غريب.

هتف الدكتور عبد الرحمن قائلا:يالها من فتاه تشبه الجيوكندا فى برأتها وتتفوق عليها فى غموضها،وكأنها تحمل فى عينيها شفرة سرية تبث السعادة فتملاء المكان الذى تتواجد فيه بالهدوء والجمال، وقتها تذكر ابيات شعرية لمحمود درويش يقول فيها:

أخاف العيون التى تسطيع إختراق ضفافى

قد تبصر القلب حافى

أخاف إعترافى

عيونها لم تعبر فقط ضفافى بل غاصت فى أعماقى،جردتنى من كل أسلحتى،التى ظننتها فتاكه وتركتنى عاريا من كل الامى ملتفا بها وحدها نفضت التراب المتراكم فوق قلبى وأخرجتنى طفلا صغير ينظر للحياة بأندهاش ،كان قلبى شريدا ممزقا ،كطفلا عاريا لفظه اهله ،يرتعش من شدة البرد،الآن أشعر بالدفء والآن أخاف حقا إعترافى حتى أمام نفسى بأن قلبى بدء ينبض من جديد ترى هل أكون وقعت فى حبها من النظرة الأولى؟هل هذا معقول،لا يدرى حقا ولكن هناك شيئا ما حدث لقلبه.

استيقظت الفتاة فى الصباح فتحت عينيها بجهد كبير رفرفت أهدابها بقلق محاولة التعرف على المكان المتواجدة به الأن ،نظرت بعينيها فى ارجاء الغرفة لتجد الدكتور عبد الرحمن،ظلت تتأمله فى صمت فقد تذكرت انه ملاكها الحارس الذى أنقذها من براثين الشيطان،ثم نظرت بجاوره فوجدت كرستين ،التى لا تعرفها ولا حتى رأتها قبل هذا اليوم لكن هذا طمئنها أنها لم تبيت ليلة أمس مع رجل غريب بمفردها نظرت الى ملابسها فوجدت أنها تغيرت فأمسكت برأسها الذى مازال ثقيلا من أثر حقنة المهدء التى أخذتها البارحة لكى تتذكر ماذا حدث لكنها بصعوبة تذكرت ما حدث قبل أن تغيب عن الوعى أما ماحدث بعد ذلك لا تتذكره.

وقفت بصعوبة محاولة تمالك نفسها لكنها فشلت فى ذلك ووقعت على السرير مما أحدث ضجة ادت الى استيقاظ كرستين ودكتور عبد الرحمن

حاولى ان تستريحى انستى فلم يذهب تاثير المهدء بعد،كريستين ساعديها على الاعتدال

قالت الفتاه بصعوبة :اين انا ؟

فاجابها الدكتور عبد الرحمن:لا تقلقى انت داخل عيادتى.

فقالت كريستين مبتسمة حمدا لله على سلامتك سأذهب لاتى لكى بملابسك،

ثم أردفت قائلة وانت يا عبدالرحمن أذهب إالى البيت لكى تستريح جيدا فقد كانت ليلة أمس متعبة جدا لك.

حسنا كرستين وانت كذلك لابد أن تستريحى

رمقته كرستين بأبتسامة ثم أومأت برأسها علامة الموافقه على كلامه

شكرا يا دكتور على مساعدتك لى ليلة البارحة

لا شكر على واجب آنسة؟؟.....

-ماريا

ماريا! أليس هذا الإسم غريب بالنسبة لمسلمة مثلك،حسنا ربما هذا الاسم هو الشىء الوحيد التى تمتلكينه يشبة هذا البلد.

هذا ليس صحيح،فإسمى أيضا مصرى مثلى،ألا تدرى أنا ماريا القبطية التى تزوجت الرسول عليه الصلاة والسلام وأنجبت منه سيدنا إبراهيم عليه وعلى رسولنا الكريم رحمة الله كانت مصرية.

نظر الدكتور عبد الرحمن إلى ماريا وكأنه ينظر إلى زهرة برية فاتنة الجمال وهو يقول:معك حق آنسة ماريا

طرقت كريستين الباب طالبة الإذن بالدخول

تفضلى كريستين

سأتركك تبدلين ثيابك،ساعديها يا كريستين

حسنا

مرت حوالى ربع ساعة،وسمع الدكتور طرقات على باب مكتبه

فقال :تفضلى يا كريستين

فقالت كريستن لست بمفردى،هذه المرة

نظر الدكتور عبد الرحمن ناحية الباب الذى كان دائرا له ظهره،ثم قال آنسة ماريا تفضلى

قالت مبتسمة:لا أدرى كيف أشكرك،مهما أمطرت بكلمات شكر سيظل هذا قليل ولن يوفيك حقك

فقال دكتور عبد الرحمن:إذا أردت شكرى لا تخرجى فى وقت متأخر مرة أخرى فهذا البلد غريب عنك،ولا أريده أن يتركك تتألمين.

أرادت ماريا أن تقول له :لم أكن أدرى أن فى هذا البلد الغريب شخصا غريبا أنقذنى من الألم.

ولكنها إختصرت كل هذا الكلام،وهزت رأسها مبتسمة

ثم إستأذنت دكتور عبد الرحمن للذهاب الى منزلها وشكرت كريستين على الإعتناء بها فى هذه الليلة ثم ذهبت

تعلقت عيناى دكتور عبد الرحمن بماريا حتى توارت خلف الباب.

قطعت كريستين شروده قائلة:يبدو أن الأمنيات تتحقق سريعا

-هتف دكتور عبد الرحمن فى إرتباك: ماذا تقصدين؟

-أتحبها.

-هتف الدكتور عبد الرحمن فى توتر:لا لا ،ماريا فتاة كانت فى خطر وكان لابد أن اساعدها.

لم أقل ماريا

نظر اليه الدكتور عبدالرحمن بإرتباك دون ان ينطق بكلمة واحدة

-أقول لك سرا ،ولا تخبر احدا

-ماذا ؟

كنت طيلت الليل أتظاهر بالنوم ،لكننى كنت اراقبك وانت تنظر اليها وتلك اللمعة التى زينت عينيك ،تلك اللمعة لا تظهر الا بالحب ولأجل الحب ولمن نحب فقط

حاول الدكتور عبد الرحمن أن يبرر ما فعله فقال:كل ما تقولينه من وحى خيالك ،كل ما فى الأمر أن النوم هجرنى فى هذه الليلة كما هجرتنى الكثير من الأشياء،كما أننى كنت أنظر إليها لكى أطمئن عليها لا أكثر ولا أقل،كفاكى فرجة على الأفلام الرومانسية ،أنا لم أرى ماريا سوى الليلة الماضية لقاء واحدا لا يكفى لكى أقع فى الحب. الحب يا سيدى لا يحتاج وقت هو يحدث لنا فقط دون سابق إنزار،يأخذنا بين جناحية يرينا جمال العالم كله فى لحظة يجعلنا نعشق الألوان ونرقص بين الورود يطهر قلوبنا ويعلمنا لغة العصافير بالحب نكون كائنات مضيئة تنشر البهجة ،يمر الوقت مسرعا فى وجود من نحب ويمر ببطء عند غيابهم،لا الحب لا يحتاج وقت ولا مكان الحب يحدث فقط.مثلما حدث لك.

أخذ يفكر دكتور عبد الرحمن فى كلام كريستين فى هذه اللحظة أراد أن يقول لها :أن كل من قاتله صحيح،وانه فعلا أحبها ولكنه فضل السخرية من كلامها قائلا:كل ما تقولينه هراء يصلح فى الروايات لا على ارض الواقع.

فقالت كريستين فى عدم إستسلام:حسنا لن أجادلك كثير لكن هل أقول لك سرا آخر هى ايضا تحبك

-إنتفض دكتور عبد الرحمن من على كرسيه فى حماس وهتف فى غير تصديق:صحيح!!

نظرت إليه كرستين وإبتسامة تعلو وجهها كشخص فاز برهان:نعم

تدارك دكتور عبد الرحمن حماسه لذا جلس مرة أخرى وقال مدعيا اللا مبالاة:يبدو أنك لست واعية لما تقولينى

-إننى يا سيدى فتاه،ولا يوجد سوى فتاة تفهم فتاة أخرى ،هذا الصباح وأنا أحادثك ناديت عليك بدون ألقاب،وتظاهرت بالإهتمام بك بطريقة مبالغ فيها وأنت ايضا فعلت ذلك الأمر ليس غريب علينا فهذه طريقة معاملتنا فمنذ أن تعرفنا ونحن نتعامل ليس كصديقين فقط بل كأخوة،لكن عندما يرانا أحدا غريبا عنا لابد له أن يتسائل كيف لممرضة الأ تتعامل برسمية مع الطبيب الذى تعمل عنده؟! وخاصة إن كانت فتاة تحب هذا الطبيب،كنت أريدك أن ترى كيف تغيرت ملامحها فى هذه اللحظة؟كيف غلفت الأسئلة عينيها،أنا أوكد لك أنها تتسأل الآن عن نوع العلاقة التى بيننا.

شرد دكتور عبد الرحمن قليلا ثم قال فى سخرية:كريستين إذا كنت أنتهيت من كلامك فلتذهبى الى البيت يبدو أنك بحاجة ماسة إلى الراحة.

فأجابته قائلة:حسنا سأذهب ولكن قبل أن أذهب سأسدى لك نصيحة،اطلق العنان لقلبك وأحب وكأن قلبك لم يتألم مطلقا وكأنه لم يعرف الحزن يوما فالحياة ليست كريمة لتعطى الكثير من الفرص،وبالرغم من ذلك فقد أعطتك فرصة أخرى لكى تحب،لكى تحيا.

ثم تركته وذهبت متخبطا فى افكاره وحيرته بين قلبه وعقله،قلبه الذى يريد الحب وعقله الذى يرفضه ويعتبره خيانة لزوجته وإبنته وخيانة لهذه الفتاه البريئة،أيضا

اه يا كريستين كيف تفهمينى إلى هذه الدرجة؟!كيف تفهمين ما يعتمل فى قلبى؟! كيف تفهمين نظراتى سكوتى وحديثى وكأنك تعرفين كل شىء عنى عن ذلك الرجل المجهول الذى تعرفت عليه صدفة، فمنذ هذا الوقت إتخذتك أختا لى شاركتينى فى أفراحى وأحزانى تفهمت وجعنى وتحملتى معى ظلم الحياة وكأنك تلك الأخت التى لم تنجبها أمى ،تركتى كل شىء ورائك لاجلى حتى لا تتركينى وحيدا عندما خاننى كل شىء من دونك كانت سيقتلنى الحزن لا

محالة،أيتها الامريكية كيف لك أن تعتادى على حياتى إلى هذا الحد؟! كيف لك أن تكونى أكثر إسلاما منى وانت مازلتى على دينك.

عندما طلبت منك ليلة البارحة أن تأتى العيادة ومعك بعض من ملابسك لم تجادلينى مطلقا كنت على يقين أننى واقع فى مأزق ثم نمت طيلة ليلة كاملة على كرسى بجوار ماريا لانك فهمتى أنه لا يجوز أنا أكون بخلوة معها وعندما دق قلبى من جديد، كنت أول من علم بالأمر،حتى أنك ضحيت بوظيفتك ومرتبك الكبير لتتبعى طبيب محطم تم طرده من عمله دون وجه حق،مازلت أتذكر ذلك اليوم المشؤم التى تم طردى فيه من المشفى عندما وقفتى أمام مدير المشفى تقدمين إستقالتك فسألك لماذا؟

-فأجبته قائلة كأنك مدافعة عن حقوق الإنسان:المشفى التى تقوم على العنصرية لا الكفاءة لا تحتاج إلى أطباء أو ممرضين بل سياسين.

- أتضامنين مع هذا المسلم الإرهابى.

- الرجل الذى يساعد الأشخاص وهم ليسوا من دينه أو بلاده لا يمكن أن يكون إرهابى،الرجل الذى ينقذ الناس لايمكن أن يتسبب فى قتلهم.

- صمت المدير وقتها لحظات حتى إستجمع قوته للرد فقال لك :حسنا قبلت إستقالتك

- هذه الوظيفة توسلتها منك ولم تعطنى إيها فكانت هدية من رجل لم يكن فى قلبه إلا الخير أتدرى من هو هذا الرجل؟! إنه الدكتور عبد الرحمن الذى كذب عليك لكى يساعدنى فلم أجتاز الأختبار أبدا،هو من له حق قبول إستقالتى أو رفضها أما أنت جئت لكى أبلغك بقرارى سواء قبلت إستقالتى أم لا فلا فرق الأن استطيع أن أقولها بكل صدق لولا وجود كريستين فى حياتى لمت منذ زمن.

(١٠)
قدر

عاد الدكتور عبد الرحمن الى شقته فقد كان يشعر بالإرهاق الشديد،لكنه كان مثل الذبيحة التى تكالبت عليها الذئاب فقد أتى ليريح جسدة من الإرهاق فلم يسلم من ارهاق الذاكرة التى بدأت تذكره بكل شى حدث قبل ٧ أعوام،وكيف كانت حياته وإلى أين وصلت،وكيف لهذا الشاب الطموح ذو الواحد والعشرون عاما الذى جاء من بغداد إلى أمريكا بمنحة تفوق لدراسة الطب ومع مرر الوقت أصبح له بيت وأسرة ووظيفة فى أكبر مشفى فى ولاية بافلو،وما آلت إليه ظروفة الآن صدق واسينى الأعرجع عندما قال،(الذاكرة ملعونة تضعنا أمام جراحاتنا فى الوقت الذى تشاء)

دخل البيت وتذكر كل شىء زوجته وإبنته الصغيرة زينب ذات الثلاث أعوام شعر بهما فى كل أرجاء المنزل فهنا كانت تلعب زينب،وتلك الأورجوحة المعلقة كانت هديته لها فى عيد ميلادها الثالث الذى يوافق ليلة رأس السنة ١ يناير كان يدخل عليها فى هذا اليوم مرتديا ملابس البابا نويل ليحقق جميع أمنياتها كانت تهرول ناحية الباب لكى تحضنه فيحملها بين ذراعيه ويقول لها: ماذا تريدين يا اميرتى الصغيرة.

فتطبع غلى وجنته قبلة وديعة وتقول له بكل براءة:أريد هدية عيد ميلادى.

كانت صغيرة جدا بريئة جدا تأخذ لون عينا والدتها وشعرها الذهبى وتأخذ منه لون بشرته السمراء تأخذ من والدتها لكنتها الأمريكية وتأخذ منه كنيته وأسم والدته،كل شىء بقى ولكنها ذهبت كل ألعابها موجودة ولكن من سيلعب بهم كل ملابسها نظيفة لكن من سيرتديها.

هتف دكتور عبد الرحمن فى حنق: مازلت أتذكر يوم ميلادها الذى يأتى كل عام مع بداية عام جديد ووقوفنا فى شرفة المنزل لنرى الألعاب النارية التى تحلق فى الفضاء معلنة سنة جديدة تمر على وجودها فى حياتنا،كل شىء يعود إلا هى فقد ذهبت دون عودة.

وزوجتى الجميلة التى تزوجتها على سنة الله ورسولة تلك العذراء النقية التى لم أنو حبها لكنها إمتلكت قلبى وحاربت أهلها لتتزوجنى.

فلم تقبل عائلتها بى زوجا لابنتهما الوحيدة وذلك لأننى عربى كما أننى مسلم وفى عرفهم كلما زادت الإختلافات بين الزوجين كلما قلت فرص التفاهم لذا لا يستطيعوا العيش معا فما بالك إذا كانت الإختلافات جوهرية كالدين والوطن،ولكن حبنا كان أقوى من مبرراتهم لذا تزوجنا.

كانت المرة الأولى التى يرى فيها دكتور عبد الرحمن ستيلا زوجته كانت فى الجامعة فقد كانت طالبة فى كلية الفنون الجميلة وهو طالب فى كلية الطب،وقتها كانت تزور إحدى صديقاتها فى كلية الطب وهنا كانت الشرارة الأولى للحب عندما إلتقت عيناهما فحاول إشاحت نظره الذى تعلق بها إلى ما يقارب الدقيقة،ثم سار مبتعدا عنها إلا انه فوجئ بأحد ينادى عليه وعندما أدار وجهه لها كانت ريموندا إحدى زميلاته فى الكلية تقول له: أن ستيلا تريد أن تتعرف عليك

وقتها أصابه التلعثم وبدء جبينه يتصبب عرقا خوفا فقد فكر أنها تريد أن توبخه بسبب نظرته الطويلة لها.

فإعتذر لريموندا متحججا بأنه على جعلة من أمره لكن ستيلا إقتربت منه فى هذه اللحظة وهى تقول:إسمك (ابدوالرهمان)اليس كذلك.

فقال لها:بلى

فقالت له: ملامحك العربية جذبتنى وأريد أن أرسم لوحة لك،هل توافق؟

صدم دكتور عبد الرحمن من طلبها ولم يدر بنفسه إلا وهو يهز رأسه علامة الموافقة على طلبها الغريب.

ومنذ ذلك اليوم وهما يلتقيان بعد إنتهاء المحاضرات ولكى ترسمه وبعد ذلك بدئا يلتقيان دون سبب شعرا بشىء جميل يجمعهما ،لكنه كان يخاف الإعتراف بحبه لها وذات يوم إستجع شجاعته وذهب لكى يصارحها بحبه فكانت تبادله نفس الشعور وفعلا تكلل حبهما بالزواج.

عاشا سويا أربعة سنوات من السعادة،حياة هادئة مستقرة،كان دكتور عبد الرحمن يحبها كل يوم أكثر من اليوم الذى قبله ،وزاد حبه لها عندما أنجبا زينب بعد سنة من زواجهما،شعر وقتها أن الله يعوضه عن كل الحزن الذى عانه فى صغره،لكن الفرح دائما ما يفتح لنا ذراعيه على مصرعيه ويجعلنا نركض بإتجاه حتى تنقطع أنفاسنا ثم بمنتهى الغدر يغلقهما عندما نظن أننا إمتلكناه إلى الأبد.فقد جاء ذالك اليوم الذى غير حياته الذى دلق الحبر على لوحة حياته الجميلة وشوهها وأخفى ملامحها،فقد كانا يذهبا كل شهر منذ زواجهما إلى مدينة نيويورك لزيارة حمواه حيث أنه منذ أن أنهى دراسته فى جامعة نيويورك قد إستقر فى بافلو حيث مكان عمله كانا يقضيا معهما اليوم بأكمله ثم يذهب فى الصباح،كان فى هذه الفترة يقترب رويدا رويدا من حمواه حتى أدركا أن نظرتهما له فى غير محلها فإستطاع أن يفوز بقلوبهما فمثل لهما الإبن الذى لم ينجبوه،ومثلوا له والديه فى الغربة،لكن الذى كان يعيشه مجرد حلم جميل إخترق واقعه القاسى لفترة قصيرة من الزمن ليستيقظ منه على واقع أشد قسوة وكأن واقعه يعاقبه على تركه له،فهذا اليوم غير حياته إلى الأبد جرده من كل شىء تركه وحيدا وأعاده يتيما

مرة أخرى،كان يتمنى ألا يعيش ليدرك هذا اليوم وفى الحقيقة كان ميت لا محالة ولكنه القدر ،فقد كان من المفروض أن يذهب الى نيويوك مع زوجته وأبنته لزيارة حمواه كالعادة لكن فى ذلك اليوم كان لدية عملية خطيرة بعد خمس ساعات من موعد القطاروكان سيتأخر كثيرا لذا طلب منهما أن يذهبا ثم يلحق بهما بعدما ينتهى،لكن ستيلا غضبت منه كثيرا وزينب أبت أن تذهب بدونه ولكن بعد إلحاح منه وافقا ،ذهب لكى يوصلها إلى محطة القطار بالسيارة،لكنه لاحظ أن ستيلا مازالت غاضبة منه فقال لها مفتعلا الحزن:اليوم لن تنجح العميلة،التى سأجريها.

فهتفت ستيلا فى حزن:لماذا؟!

فقال مغازلا إياها :لان زوجتى غاضبة منى،فكيف ستنجح العملية وهذا اليوم لم أرى إبتسامتها الجميلة لذا مستقبلى وحياة المريض بين يديك.

فبدءت تنير وجهها إبتسامة خجولة هى تقول: أنت تعلم أنك كل حياتى،ولا أستطيع الإبتعاد عنك أبدا.

ولكننى لن أذهب لاى مكان سألحق بكما سرعان ما تنتهى العميلة

ستأتى حقا

بكل تأكيد

لا أدرى لماذا لكننى أشعر أنك ستتأخر علينا هذه المرة

لا لن يحدث ذلك

اتعدنى بذلك

أعدك

ثم وصلوا إلى محطة القطار فقامت ستيلا بإحتضانه بقوة وكأنها المرة الأخيرة التى ستحضنه فيها ثم تشبثت زينب بيده فقام بطبع قبلة على جبينها ثم ذهبا كان يريد ألا يتركهما ويذهب،ولكن واجبه حتم عليه ذلك.

بعدما إنتهى من إجراء العميلة بنجاح قام بالإتصال بستيلا لكى يطمئن عليها هى و زينب فقالت له: أنها ذهبت كالعادة لكى تشترى هدية لوالداها بمناسبة عيد زواجهما هذ الشهر

فقال لها:اشتقت لك كثيرا

أبهذه السرعة.

بل أشتاق اليك وأنت بجوارى

فإبتسمت إبتسامة رقيقة كعادتها عندما تخجل ولا تستطيع الكلام،ولكنها قبل أن يسمع صوتها مرة أخرى سمع صوت أنفجار مدوى

فهتف بذعر:ستيلا ماذا حدث؟

(ابدوالرهمان).....وإنقطع الخط

الو..الو..الو

ولكن ما من إجابه،فى هذه اللحظة دخلت عليه كريستين وهى تلهث:دكتور عبد الرحمن حدث انفجار فى مركز التجارة العالمى بنيويوك

فقال بصوت عالى :ستيلا..زينب

فركب سيارتى لا يدرى كيف يقودها يدعو الله بكل جوارحه الا يحدث لهما مكروه،ظل يتصل بحماواه دون أن يجد رد إلى أن جائه إتصال من حماته وهى تشهق بالبكاء:عبد الرحمن،ستيلا.. زينب،ثم لم يأتيه كلاما آخر سوا بكاء

لا... لن يحدث هذا إنهما بخير.

إلى أن وصل إلى المشفى:فوجدت حمواه يغلب عليهما الحزن والأسى كل هذا وهو لا يصدق أن يكون حدث لهما مكروه

فخرج الطبيب من غرفة العمليات وهو يقول :من منكم هو عبد الرحمن

فتهفت فى قلق:أنا

يؤسفنى أن أبلغك أننا لم نستطيع إنقاذ إبنتك،وزوجتك فى حالة خطيرة وهى تريدك الأن.

شعر بلإنهيار كبيت قديم أهلكته الزلازل،شعر أن قلبه يتمزق ألم يرفرف كالطير المذبوح،رأى فى هذه اللحظة زينب تركض نحوه جريحة غارقة فى دمائها ولكنه لم يستطيع إنقاذها،صرخ بأعلى صوته:زينب،ثم جلس قليلا ليتمالك نفسه ثم دخل على زوجته غرفة العمليات فإلتقته كعادتها بإبتسامة رقيقة وهى تقول بصوت وهن متقطع:زينب...

فقاطعتها حتى لا تبذل الكثير من الجهد:لا تقلقى إنها بخير.

أنت بجوارى إذا كل شىء بخير

ثم أمسكت يده وقالت:أشكر الله أنك لم تف بوعدك هذه المرة

وفارقت الحياة ولا تزال إبتسامتها الوديعة تنير وجهها،كأنها كانت تنتظر أن تطمئن على زينب،ثم تنام بسلام.

كان فى هذه اللحظة كما قال طاهر أبن جلون(لبثت صامتا،لم أكن أفكر فى شىء كنت أحاول أن أتلاشى فى العدم فلا أسمع شيئا ولا أشعر بشىء)

فهتف بحزن وهو يغلق عينيها:أنا لم أكذب عليك يا ستيلا فزينب ذهبت لمكان لن تكون فيه إلا بخير،وأنت ذهبتى الآن إلى ذلك المكان وتركتمانى وحيدا أعانى الحزن والألم.

كان هذا اليوم هو يوم الحادى عشر من سبتمر سنه ألفين وواحد ذلك اليوم الذى أتى بالخراب على الكثير من الناس فى أمريكا وخاصة المسلمين هناك ،فقد قامت ثورة عارمة من الأمريكون الثكلى على المسلمين الذين يعيشون فى أمريكا فقد كانوا يدمرون محلاتهم ويضربونهم بل وصل الأمر إلى خلع الحجاب من على رؤس المسلمات الأمر أصبح مرعبا حد الجنون كانت

ثورة هوجاء طالت الكثير من مسلمى أمريكا الأمر الذى جعل الكثير منهم يتخلون عن مظاهرهم الدينية كخلع الحجاب وحلق اللحية ومن ثبت على موقفه وجد الكثير من المعاناه والدمار،لكن مهما حدث فقد كان نصيب الدكتور عبد الرحمن هو الأكبر من المعاناة،فإن من إتهمه بلإرهاب والقتل لم يكن غريبا عنه،بل كان والد زوجته الذى كان الأمس والده وهو إبنه البار.

فقد قالها بكل قسوة أثناء مراسم دفن ستيلا:هذا هو المجرم،هو من قتل إبنتى الصغيرة،لم أكن مخطئا بشأنك،المسلمين مجرمين،جميعهم قتلة.

سمع هذا الكلام وهو جروحه لم تلتئم بعد مازلت نيئة ودموعه لم تجف،ما أبشع هذا الإتهام الباطل،حقا ما أبشعة،كانت كلاماته تنزل على قلبه كالحديد الذائب،كانت تقتله وتعذبنه.

إنتفض يهتف كالمجنون عند تذكره لهذا الكلام:أأنا من قتل زوجتى وأبنتى،أنا من دمر عالمى الهادىء،لا أدرى حقا من فعل هذه الفعلة الشنيعة ولكن أيا من يكون فهو ظل من ظلال الشيطان لا ينتمى إلى دين ولا يعرف بالإنسان.

لم يكن هذا فقط نصيبه من المعاناة بل كانت البداية فقط ،فقد تم طرده من المشفى وحقا الآن لا يخفى السبب،ماذا عليه أن يبكى الان أيبكى زوجته وأبنته؟ام يبكى دينه الذى أتهم بأبشع التهم؟،أم يبكى حياته التى تدمرت؟كل شىء الآن أصبح باهت وروتينى لا طعم له.....

لكنه شعر بسعادة غريبة عندما إلتقى بماريا لم يلتقيها قبل هذا اليوم ولا يعرف عن حياتها شىء،ولا يعرف حتى أن كانت متزوجة أم لا ولكنه شعر بالسلام لرؤيتها،هذا القلب الخائف المرتجف أصبح يدق من جديد،لا يدرى حقا إن كان حبا أم لا،لكنه لا محالة هناك شىء يجذبه بكل قوة إلى هذه الفتاه،ولكن أليست هذا خيانة لزوجته؟!تلك الفتاة التى حاربت لاجله

كثيرا،كيف يعطى قلبه لغيرها؟!كيف لا يظل وفيا لذكراها طوال حياته؟! خطرت كل هذه الأسئلة فى عقله وقتها تذكر كريستن عندما قالت له :هل جربت يوما أن تظل فترة كبيرة فى الظلام؟!عندما تظل فترة كبيرة فى الظلام ثم تخرج إلى النور ستجد نفسك لا محالة تخاف النور بل ستغلق عينيك حتى تبعد هذا النور عنك،القلب يا سيدى هكذا عندما يعتاد الحزن والالم يخاف كثيرا من الفرح ويحاول جهده لكى يبتعد عنه حتى لا يخذل مرة أخرى.

ولكننى لا اخاف على قلبى فقط بل أخاف على ماريا من هذا القلب،فكيف أمنحها هذا القلب الذى أصبح مثل الخرقة الدائبة التى لا تصلح للارتداء مجددا.

****

عادت ماريا إلى الشقة ثم دخلت غرفتها واغلقتها و بدأت تفكر فى الذى حدث معها الليلة الماضية؟ومن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يطاردونها؟!وماذا يريدون منها؟

كانت ستقول أنهم مجموعة من السكارى الذين وجدوا فريسة يريدون أن ينهشوا من لحمها تحت غطاء الليل لو لم تسمع أحدهم يهتف بصوت سكر:إنها ماريا.

هتفت ماريا فى محاولة التذكر:هذا الصوت ليس غريبا علي،وكأننى سمعته قبل هذا اليوم،ولكننى لا اذكر من صاحب هذا الصوت،ربما من أثر الصدمة.

كان هذا اليوم مهلك بالنسبة لها كان من الممكن أن يمثل نهايتها نهاية فتاة ظلت طيلت حياتها القصيرة تدافع عن قناعاتها ما تراه صحيحا،كانت اليوم ستموت بالداء الذى حاربته دائما وهو الظلم وإن كان التحرش هو أسوء أنواع الظلم الذى يستحل فيه الرجل جسد المرأه وكأنها خاصته يفعل

فيها ما يريد،كانت اليوم ستقع فريسة لهذا الظلم الذى إذا وقع على إمرأة كانت هى الظالمة وهى المذنبة وهى من حركت شهوات الرجل،فيتفوه المجتمع بالهراء إنحيازا للرجل فمثلا يقول:أن هذه الفتاة تعرضت للاعتصاب بسبب ملابسها العارية.

أو إن هذه الفتاة تغرى الرجال وتجعلهم يقبلون عليها

هذه الفتاة تستحق ما جرى لها فلماذا تأخرت فى العودة إلى المنزل!!

هذه الفتاة هى المذنبه فما الذى جعلها تذهب إلى ذلك المكان بمفردها؟

كل هذه المبررات تنتصر للرجل وتظلم المرأءة تنصف الظالم وتنكل بالمظلوم،وكل من يبرر جريمة الإغتصاب فهو مشارك بها سيحاسب أمام الله ،فإن كان جسد المرأة هو ما يحرض الرجل على إغتصابها، فما هو المغرى فى جسد طفلة حتى يتم إغتصابها؟! وإذا كانت بعض النساء يرتدون ملابس عارية وسلوكهن غير سوى أهذا يجعل للرجل حق إعتصابها او التحرش بها؟! إن الله أمر المرأة بالإحتشام وألا تظهر عوراتها للغرباء ولكنه أمر الرجل أيضا بغض البصر فإن لم تلتزم بعض النساء بأوامر الله أهذا مبرر للرجل بألا يلتزم بما أمر به.

سمعت ماريا طرقات على باب غرفتها فهمت بفتح الباب،فكانت نضال التى يظهر على وجهها علامات القلق،فهتفت بتوتر:ماريا أين كنت ليلة البارحة لقد أقلقتينى عليك،فأنت لم تأت،ولم تجيبى على إتصالاتى.

وقتها تذكرت ماريا ما حدث لهاتفها ليلة أمس حيث أخرجته من حقيبها حتى تتصل بأحد ليأتى وينقذه وبينما كانت تركض إنفلت من بين يدها على الأرض فلم تستطع إلتقاطه.

حاولت ماريا التهرب من جميع أسئلة نضال فقالت لها:لا تقلقى على يا نضال فهاتفى معطل منذ البارحة.

فلماذ إذا تأخرت؟!واين قضيت الليلة الماضية؟

-لا شيء فقد قالبت الليلة الماضية إحدى صديقاتى القدماى وقد قضيت الليلة الماضية فى شقتها.

- نظرت نضال إلى ماريا نظرات توحى بعدم تصديقها ثم أردفت:حسنا يا ماريا أنت لا تقولين الحقيقة لكنى لن اجبرك على البوح بها ،إن فتاة مثلك لن تبيت فى بيت أيا كان طالما لها منزل خاصتها،ثم من أين أتت هذه الصديقة القديمة لك فى أمريكا.

- أشاحت ماريا بوجهها بعيدا عن نضال حتى لا تتلاقى عينيهما ثم قالت: أنت يا نضال من لا تقول لى الحقيقة إننى أريد أن أخفف عنك هذا الألم الذى تشعرين بة ويظهر فى عينيك ولكنك تهربين منى فعن أى حقيقة تريدين أن أخبرك بها؟!

- ثمت آلام يا ماريا من الأفضل أن تظل بداخلنا فقط،إذا بوحنا بها ربما تؤلمنا أكثر.

- لا يا نضال عندما نبوح بآلمنا تخف حدتها ،لا تؤلمنا أكثر.

- الألم يظل لصاحبة فقط حتى لو حاكاه للعالم كله

- حسنا يا نضال ولكننى سانتظر اليوم الذى تبوحين لى بالذى يثقل كاهلك ويدمع عينك الآن.

إبتسمت نضال إبتسامة مترددة ثم قالت وأنا سانتظر اليوم الذى تحكى لى قصة صديقتك القديمة.

فقالت ماريا بإستغراب:أى صديقة قديمة؟!

تلك التى بت فى شقتها ليلة البارحة.

قالت ماريا فى إحراج:اها حسنا.

بعدما خرجت نضال من غرفتها قالت ماريا محدثة نفسها:ماذا أقول لك يا نضال وانا نفسى لا أفهم ما حدث معى ليلة البارحة،فقد كنت مثل الغريق اللى يلفظ أنفاسه الاخيرة إلى أن أتى أحدهم وسحبه من الماء بكل قوته ليكتب الله له عمر جديد،هذا بالفعل ما حدث معى،كان مشهدا دراميا يؤد على خشبة المسرح،كل الممثلون يؤدون أدوارهم بإتقان،وكنت أن البطلة والضحية فى نفس الوقت وتقترب المسرحية من النهاية وإعتقد الجمهور أن النهاية مأساوية إلى أن جاء مشهد النهاية فإقترب الأشرار من البطلة رويدا رويدا إلى ان كادوا يمسكون بها ثم يأتى شخص من اللامكان واللازمان لينقذها ،هذا الشخص لم يكن ممثلا فى هذه المسرحية وحتى الدور الذى أداه لم يكن مكتبوبا ولكن قدر له أن يصنع مشهد النهاية وان يسدل الستار عليه ليكون هو البطل اللا متوقع فى حياة هذه البطلة.

ظلت ماريا تتذكر ما حدث معها ليلة البارحة،فقد كانت عائدة من مكتب البرفيسور ألبرت وقد تأخرت على الميترو وبما أن البارحة كانت ليلة رأس السنة فكانت كل أمريكا تحتفل فسارت فى الشوارع خائفة محبطة لا تدرى ماذا تفعل ثم جاءتها الفكرة بان تتصل بنضال حتى تنقذها من تلك الورطة ولكن نضال لم تجيب على إتصلاتها المستمرة وهذا جعلها تشعر باليأس،فخرجت من محطة المترو،عساها تجد أى وسيلة مواصلات تنقلها إلى مكان سكنها ولكن اليوم رأس السنة الجميع فى إحتفال وفجأة ظهرت سيارة بها بعض الأشخاص الذين يلبسون أقنعة غريبة على وجوههم وكأنهم ذاهبون إلى حفلة تنكرية ثم سمعت أحدهم يقول انها ماريا عندما سمعة إسمها على لسان ذلك الشخص بدأت تركض بكل قوتها ثم مالبث أن وجدت السيارة تطاردها،كان حال الجو وقتها عاصفا ينبأ بسقوط الأمطار وبالفعل بدأ المطر فى التساقط وبينما هى تركض وتصرخ بكل قوتها ساعدونى،ظهر

شخص من اللاشيء سحبها إليه بكل قوة ثم على الرغم من أن الشارع كان مظلما بعض الشيء إلا أنها مازلت تتذكر وجهه المضيئ الذى تزينة لحية مهذبة تعلن عن رجولة كاملة وشجاعة غير عادية،أنه فارس خرج من الاساطير القديمة فقط لأجلها ،فعندما قال لها:لا تخافين أنا هنا لإنقذك سلمت نفسها له بل وشعرت انها فى أيدا امينة وإذا قدر لأحد إنقاذها فسيكون هذا الشاب،ولا احد غيره،هذا كل ما تتذكره فى هذه الليلة إلى أن إستيقظت فى الصباح لتجده نائما على كرسى بجوارها فأخذت تتأمل فيه عن قرب كانت كل مرة تنظر فيها إليه يشع وجهه نورا غريبا،ثم أدارت نظرها بعيدا عنه قليلا لتجد فتاة أخرى نائمة على كرسى بجواره،فتركت فأجاة كل ما كانت تفكر به وأخذت تفكر،ترى من تكون هذه الفتاة؟لا تدرى لماذا شعرت بشعور غريب شعور يشبة شعور الغيرة،لا تدرى على ماذا ولكن هذا الشعور بدء يراودها أكثر عندما عرفت أنه طبيب وأن هذه ممرضة أسمها كريستين تعمل معه فى عيادته ولكن كريستين هذه يبدوا أنها بالنسبة له أكثر من مجرد ممرضة فكيف لممرضة أن تنادى الطبيب الذى تعمل لدية بدون ألقاب هذا الامر جعلها تشعر بالغيرة الغير مبررة فكيف لها ان تغير على شخصا لا يعنى لها شيء وهى لا تعنى له شيئا؟! ولكنها شعرت بالغيرة إلى درجة انها كانت تريد أن تصفع كريستين صفعة صعيدية تجعلها تقفد الذاكرة ولا تتذكر حتى أسمها ولكن شيء من الوقار أوقفها.

****

(١١)
حلم جديد

جلست ماريا خلف مكتبها الفاخر القريب من مكتب البروفيسور ألبرت ترمق ملف القضية التى وكلت إليها رغم عنها فى ضيق وخوف لا تريد أن تتصفحه وكأنه يجسم بين صفحاتها وحش كاسر سيلتهمها دفعة واحدة،زفرت بضيق محاولة طرد هذه الطاقة السلبية التى تعبء صدرها وتكتم أنفاسها.

منذ أن وكل البروفيسور ألبرت لها هذه القضية وهى لا تستطيع النوم كل شيء فى حياتها إنقلب رأسا على عقب لا تفكر فى شيء سوى ذلك الشاب وخاصة بعدما قص عليها البروفيسور البرت سبب حبسه ،ترى سيكون بريء؟! أم أنه مجرد شابا عربيا آلت به الظروف أن يترك بلاده ويركض وراء حلم عبثى فى بلاد غريبة فإنحرف عن الطريق الصحيح وأصبح يتاجر بالموت؟!وبما أنه صيدلى فقط أصبح طريق الإنحراف معبدا بالنسبة له لكى يتخذ من صيدليته ستار يحميه من يد القانون ولكنه كشف فى النهاية،كل ما فى هذه القضية يؤكد إدانته ويؤكد أيضا أنها قضية خاسرة وأنه لا أمل فى خروجه من السجن،لا شيء يؤكد براءته سوى إحساس غريب يسيطر عليها يصرخ بأعلى صوته أن ذالك الشاب بريء وأنه ضحية مؤامرة شنيعة دبرت له ووقع فى شباكها وبما أنه شخص عربى مسلم فهذا إلى حد ما يكشف السبب وراء إتهامه،ولكن إحساسها لا قيمة له فالمحكمة بحاجة إلى أدلة ولكن من أين لها بهذه الأدلة؟

أمسكت برأسها من كثرة التفكير وكادت أن تفر من عينيها دمعة حبيسة ترفض إطلاق سراحها فهتفت فى ضيق وحنق:يا إلهى أكاد أن أجن.

فمنذ أن جاءت ماريا إلى بافلووقد تكالبت عليها الهموم والمصائب بداية بإقامتها فى منزل العم يوسف مرورا بتعامل البرفيسور ألبرت الفظ معها ثم هذه القضية،كل هذه المصائب ولا تجد من يواسيها فكرت أن تتصل بوالدتها وتأخذ منها الدعم ولكنها لا تريد أن تقلقها عليها،لذا لابد أن تخوض ضمار هذه المعركة وحيدة تماما. ولكنها لكى تدافع عن هذا الشاب هناك خطوة لابد أن تخطوها قبل كل شىء،هذه الخطوة ستحدد ما إذا كانت ستتولى هذه القضية عن إقتناع أم ستتركها أيضا عن إقتناع.

أخرج ماريا عن تفكيرها صوت ليليان وهى تقول:آنسة ماريا البرفيسور ألبرت يريد رؤيتك.

همت ماريا دون أن تجيبها إلى الذهاب إلى مكتبه،فإعتبرته ليليان تجاهلا منها وهذا أغضبها كثيرا ،فهى لا تدرى كم الحيرة التى هى فيه ،فقالت فى سخرية:يبدو أن البروفيسور ألبرت معجبا جدا بك

فهتفت ماريا فى إستياء :ماذا تقصدين؟!

فأجابتها ليليان فى مراوغة:أقصد معجبا بموهبتك فى المحاماة

ذمت ماريا على شفتها السفلية فى ضيق وكأنها فهمت ما ترمى إليه تلك الخرقاء من تفاهات فهى تظن أن هناك شىء يربطها بهذا البروفيسور،حمقاء لا تعلم أن ما يربط بينهما هو العداء فقط لا غيرولا شىء آخر من الممكن أن يربط بينهما،فهما طريقان مختلفان أشبه بضفتى النهر لا يمكن أن يلتقيان.

ليليان مساعدة البرفيسور البرت ومديرة مكتبه منذ أن عملت ماريا فى المكتب وهى لا تطيقها ولا تعاملها بشكل لائق،كلما رأتها رمقتها بنظرات الكره والإحتقار،لا تدرى ماريا لماذا؟! لكنها تعودت ألا تأخذ تصرفاتها على محمل الجد.

***

خلع البروفيسور ألبرت نظارته ليشاهد الحورية التى تدخل مكتبه راسمة العبوس على ملاحمها الفاتنة

-ماذا تريد يا سيدى

-أريدك

-ماذا؟

هتف البرفيسور ألبرت فى إرتباك:اقصد أريد أن أتحدث إليك بشأن القضية،ما الذى توصلت إليه؟

أرادت أن تقول له أنها بأمس الحاجة إلى مساعدته،أرادت أن تقول له كف عما تفعله بى وحقق إنتقامك بطريقة أخرى فما ذنب هذا الشاب المسكين،أرادت أن تعتذر له وتتوسل إليه أن يعفو عنها ويتولى هو الدفاع عن ذلك الشاب،إلا أنها كعادتها عندما تتحدث إليه تتدعى القوة وتنبذ ضعفها الأمر لا يتعلق بإضطهاده للاسلام فهذا ما كانت تتوقعه منذ وطأت قدماها هذا البلد ،لكن هذا الرجل وضعها أمام نفسها جعلها تراجع حساباتها جعلها تزن قوتها بميزان الذهب،جعلها تسأل نفسها جميع الأسئلة التى إستمرت فى الهروب منها وأهمها،هل أنا فعلا أستطيع؟ هل أنا فعلا بهذه القوة التى أظهرها؟ هذا الرجل تركها عارية تماما من غرورها وهى الفتاة التى لم تظهر ضعفها لاحد جعلها تعترف امام نفسها بضعفها بل ومواجه هذا الضعف الذى تتهرب منه ومواجهة الضعف هو أول طريق القوة لان الضعف عدوا لدود ومعرفة العدو هو أول الطرق إلى هزيمته،لاتدرى أتشكره على هذا أم تلعنه لان الثمن مستقبل شاب ليس له ذنب سوى أنه ينتمى إلى نفس دينها.

فقالت له:إستلمت القضية،ولكننى حتى الأن لم أطلع عليها

لماذا؟!

حتى اتولى هذه القضية عن إقتناع أريد منك طلب

تفضلى

أريدك أن تأخذ لى تصريح بمقابلة هذا الشاب فى السجن

هذا شىء مفروغ منه لانك محامية الدفاع فى هذه القضية

لا لست محامية الدفاع حتى الآن هذه المقابلة ستحدد ما إن كنت سأتولى هذه القضية أم لا.

أتشكين فى براءته

ربما....ولكن إحساسى يخبرنى بعكس هذا

وماذا ستستفيدين من هذه المقابلة؟

سأعرف ما إن كان إحساسى صادق أم لا

وهل مقابلتك له كافية؟ أليس من الممكن أن يكون ممثلا محترف ويوهمك ببراءته؟

من الممكن...ولكننى لا أدرى ،شيئا ما يشعرنى بأن هذه المقابلة هتجيب على الكثير من أسئلتى

وماذا إن كان مذنبا

سأترك القضية بالتأكيد

أتتخلين عن شخص ينتمى إليك دينا واصولا

سأتخلى عنه إن كان مجرما حتى وإن كان فردا من عائلتى.

حسنا لك ما تريدين سأجعلك ترينه

شكرت ماريا البرفيسور ألبرت وأنصرفت.

بعدما خرجت ماريا من مكتب البرفيسور ألبرت ظل يفكر فيما يحدث معه فقال فى أسى محدثا نفسه:إلى متى يا ماريا سترمقيننى بنظرات الكره والعداء،إلى متى ستظنين أن ما أفعله معك بدافع الإنتقام،إن ما أفعله معك

ليس له دافع سوى الحب،الإنتقام لا يستحق كل هذا العناء،الحب فقط هو ما يستحقه،إن كنت أريد الإنتقام منك لكنت تسببت فى فصلك من الجامعة وقضيت على مستقبلك ولكن أى نوع من الإنتقام ذلك الذى يساعدك على بناء مستقبلك؟!

أخرج البرفسسر ألبرت من تفكيره رائحة عطر صارخة تركض أمام صاحبها بخطوات سريعة فتقتحم أنف البروفيسور الذى أداركرسية ناحية الأمام،فكانت ليليان بثوبها القصير عارى الرقبة والأكمام تترنح فى مشيتها فتسفر عن أنوثة طاغية ينسدل على كتفيها شعرها الأصفر الطويل وكأن الشمس أعارتها أشعتها ترمق البروفيسور ألبرت بعينيها الزرقويتين فتنبث شفتيها عن إبتسامة فاتنه

-هناك بعض الأوراق التى أريد إمضائك عليها

حسنا،إعطينى إياهم

نظرت إليه ليليان بإستغراب ثم قامت لتقف خلف مكتبه فمالت برأسها حتى لامس شعرها كتف البرفيسور،إلا أنه قام بإمضاء الأوراق دون أن يعيرها إهتمام

يبدو أنك تغيرت كثيرا

ومن منا لا يتغير

لكل تغيرا أسبابه،ترى ما هى أسباب تغيرك،دعنى أخمن،إنها ماريا أليس كذلك؟!

-ضحك البرفيسور ألبرت بسخرية،ثم قال:أنها فقط محامية مجتهده.

-أريد أن أصدقك

وما الذى يجعلك لا تفعلين

أننى أعرفك منذ مدة كبيرة أعى جيدا مدى كرهك للمسلمين،فما الذى تغير الآن؟

أنت تعلمين جيدا أنها هنا فقط لاجل قضية الشاب المسلم

كان من الممكن أن ترفض القضية

إننى قبلت هذه القضية لأجل الحق أعى تماما أنه برىء

لاجل الحق أم لأجل ماريا؟

لم يجيب على سؤالها هذا فهو يعى تماما أنه يحبها ولكنها لا يريد أن يظهر أمام ليليان بكل هذا الضعف رجل فى الخمسين وإن كان يبدو أصغر من ذلك يعشق فتاة فى نصف عمره لا تعيره أى إهتمام.

لاحظت ليليان صمته فأردفت قائلة:أخشى أن يكون ما أراه فى عينيك كلما نظرت إلى هذه الفتاة صحيحا

وماذا ترين إذا

الحب!!

صمت مرة أخرى مما جعل ليليان تعانقه من الخلف بشدة ثم تطبع على خده قبلة تركت بعض أثار أحمر الشفاه فقالت بإنوثة:منذ أن ظهرت ماريا فى حياتك وأنت لا تعيرنى أى إهتمام،أنا إشتقت إليك كثيرا إشتقت إلى رائحتك لمست يديك كل شىء،أخشى أن تكون هى من أخذت مكانى فى حياتك

لا تقلقى يا ليليان ماريا لا يمكن أن تأخذ مكانك فى حياتى

أهذا مدح أم سخرية.

تظاهر بعدم سماعه لكلامها.

فهتفت بغضب:إذا أى تعويذة ألقتها عليك،ماذا فعلت لك هذه الفتاة لا أستطيع أنا فعله؟

ربما ما جعلنى انجذب إليها وأقع فى شباكها طواعية هو أنها لا تستطيع أن تفعل ما تستطيعين أنت فعله معى.

شعرت ليليان بإهانة بالغة فى كلام البرفيسور ألبرت هذا ما جعلها تهتف بغضب قائلة:للمرة الأولى أشعر بغباءك،أنها مسلمة وواضح من مظهرها أنها متمسكة بطقوس دينها،فلن تتلاشى المسافة بينكما أبد

فضحك البروفيسور ألبرت ثم قال:ربما المسافات أفضل حجة للإقتراب

لن تحصل عليها أبدا

فتاة مثلها مكانها ليس غرفت نومى بل قلبى وقد سكنته منذ فترة كبيرة.

أؤكد لك أنك ستندم لا محالة،ثم تركت المكتب وذهبت

***

خلف قطبان السجن الحديدية وعلى أرضيته المبلطة ذات اللون الأبيض فى جو شديد البرودة يقبع شابا يرتدى بذلة السجن برتقالية اللون،يعطى ظهره إلى واجهة الزنزانه،وكأنه يخاف هذه القضبان الحديدية،أو تشعره بالضيق،بينما تشعره الجدران بالأمان

هتف الظابط بصوته الجهور:أيها المسجون هناك من يريد رؤيتك.

بتكاسل تام ودون أن يأبه بكلام الضابط،بعدما أدار وجهه ليقابل وجه ماريا دون أن ينظر إليها ثم أمسك بالهاتف لكى يتحدث معها،وفاجأه كمشهد زروة يؤدى على خشبة المسرح تنطفء فيه جميع الأنوار ليظهر ضوء قوى يسلط فقط على مارياوهذا الشاب،فتنظر إليه ماريا فى ذهول وعدم تصديق ثم تعود بذاكرتها خمسة عشر عاما للوراء ويخرج من وجه هذا الشاب طفلا ذا ثلاثة عشرة عاما فى جو صيفى حارق وصوت طلقات الرصاص تملىء

المكان،بينما يصرخ هذا الطفل بملىء صوته أركض يا ماريا،إلا أن ماريا تقع على الأرض مغشيا عليها ويستحيل كل شىء إلى ظلام دامس

هتفت ماريا بصوت أوشك على البكاء:أيهم؟!

نظر إليها الشاب بدهشة شخص يسمع إسمه من شخص غريب يدعى معرفته،ثم قال:هل تعرفيننى؟!

فهتفت ماريا بسخرية:يبدو أن ملامحى تغيرت كثيرا إلى درجة أنك لم تتعرف على ربما ساعد الحجاب فى تغييرها أكثر فأنا لم اعد تلك الفتاة ذات الطفائر،لكنك يا أيهم مازلت كما أنت بوجهك الطفولى حتى أن هذه اللحية التى تزين وجهك وهذه النظارة التى تخفى عينيك لم تغير شىء،لم تغير ذلك الطفل الصغير الذى كنت ألعب معه وأذهب معه إلى المدرسة فهو لم يكن جارى الجديد فى فلسطين بل أصبح صديقى الوحيد،لم يتغير ذلك الطفل الذى كان يخاف على أكثر من أخى،لم يتغير ذلك الطفل الصغير الذى ضرب جندى إسرائيلى ذات يوما كان يطاردنى

فهتف فى غير تصديق:ماريا!!

نعم ماريا تلك الفتاة تعيسة الحظ التى عاشت حياتها تحمل ذنب أنها تسببت فى قتلك

يا إلهى أيعقل أن نلتقى بعد كل هذه المدة

فقالت ماريا بصوت باك وشفاه مبتسمة:لدينا مثلا مصرى يقول،"مسير الحى يتلاقى"

-ولكن ماذا تفعلين هنا

-جئت لكى يتحول ذلك الكابوس الذى كان يؤرقنى إلى حلم جميل

-ماذا تقصدين؟

-أقصد أننى محامية الدفاع عنك

-أصبحت محامية!!

نعم ولك أن تتخيل أن قضيتى الأولى ستكون أهم قضية فى حياتى،فهذه القضية ليست إنتصار للحق بل للصداقة ايضا

والأن اصبحت هذه القضية مصيرى إما أن أكسبها أو أخسر نفسى.

لكن أريدك أن تحكى لى كل ما حدث معك بالتفصيل،وكيف لفقت لك هذه القضية؟!

ولكن قبل هذا أريدك أن تحكى لى أين كنت بعد الحادثة التى حصلت لنا،فقد قالت لى أمى أنهم لم يعثروا عليك،لذا ظنوا أنك إعتقلت على يد الجنود الإسرائيلين.

لا يا ماريا أنتم غادرتم فلسطين مسرعين قبل أن يجدنى أهلى بالمشفى فما حدث وقتها أنى أثناء القصف وأنا أركض وامسك بالحجارة وألقيها على الجندى الذى كان يطاردك وقعت على الارض لم أدرى بنفسى سوى فى المشفى نقلتنى إحدى الطبيبات التى تطوعت لإنقاذ المصابين حيث أنها ومجموعة من الممرضين بعد إنتهاء القصف بحثوا فى الشوارع على المصابين الذين لم يفارقوا الحياة بعد فوجدونى مغشيا على لكن مازال نبضى يتحرك لذا قاموا بإسعافى ولم أتعافى تمام إلا بعد شهر تقريبا لان ما حدث أن شظايا رصاصة إخترقت رأسى وبعد أن أستعدت عافيتى سألت أمى عليكم فقالت لى: انكم عدتم إلى مصر

لا أصدق كل ما حدث معنا الأمر الوحيد الذى جعل روحى تعود إلى جسدى من جديد هو أننى وجدتك بعد أن ضيعتك ولكن ما يدمر فرحتى أننى وجدتك هكذا مسجون.

إن الحياة يا ماريا ليست سوى جهاد،تركت جهادى ضد الصهيونين فى فلسطين لآتى إلى هنا وأجاهد ضد الفساد و الإتجار بأرواح الشاب وكالعادة أنا الجانى والمجنى عليه فى قضية أبدية هى الفساد.

قالت ماريا فى حزن:كلنا هذا الشخص يا أيهم نجاهد ضد شىء ما ولكن أتدرى ما هو اشد أنواع الجهاد وطاءة؟ الجهاد ضد نفسك ألا تسرقك الأمواج وتذهب مبادئك فى مهب الريح ألا يموت ضميرك تصبح نسخة عن الذين تحاربهم الجهاد الأكبر يا أيهم ألا تتغير وتصبح شخصا سيىء فى عالم يجبرك على ذلك.

مسحت ماريا دموعها التى كانت ستتدفق لولا إن إعترضت يدها طريقها ثم قالت: الآن أحكى لى ماذا حدث معك بالتفصيل؟

عندما أتيت إلى أمريكا قبل ثلاث سنوات كنت قد حولت كل المبلغ الذى تركه لى والدى رحمه الله إلى بنك فى أمريكا وعندما أتيت إشتريت شقة وقمت بتأجير محل صغير لأفتتح به صيدلية صغيرة وتم لى ذلك وكنت أعيش حياة مستقرة أنا وزوجتى إلا أن إيراد الصيدلية لم يكن يكفى متطلباتنا مما جعلنى أبحث على عمل آخر أحسن به دخلى بلإضافة إلى ايراد الصيدلية وشاء القدر أن أجد مصنعا للأدوية يريد صيادلة للعمل به وفعلا قدمت أوراقى وقد قبلت للعمل فيه ،تحسن دخلى وأصبحت أعيش حياة كريمة كنت سعيد بهذه الوظيفة وخاصة أنها كانت إحدى أمنياتى أن أفتتح مصنعا للأدوية،لكننى منذ حوالى شهرين لاحظت تحركات غريبة فى المصنع شىء مريب يحدث من بعض العاملين فيه مما جعلنى أراقبهم جيدا فإكتشف أنه يتم فى هذا المصنع إنتاج بعض الحبوب المخدرة التى تساعد على الإدمان،إستطعت أن أجمع الأدلة على هذا بل وإستطعت أيضا أن أحصل على بعض الملفات التى تثبت كلامى،لذا قمت فورا بإبلاغ صاحب المصنع بما

يحدث فى مصنعه وهو غافلا بل وأعطيته ما يثبت ذلك ،ولكننى إكتشفت أنه على دراية بكل ما يحدث وأنه مشارك فيه،فقام بتهديدى إذا أفشيت هذا السر سيقوم بتدمير حياتى،لكننى لم أخشى تهديده وقدمت إستقالتى وعزمت على إبلاغ الشرطة بما يحدث إلا أنه دبر لى مؤامرة قبل أن أتمكن من هذا فوضع لى بعض من هذه الحبوب فى صيدليتى وبلغ الشرطة إننى أتاجر فى المخدرات،هذا كل ما حدث معى.

ما اسم صاحب المصنع؟

جاك إيمانويل.

عقدت ماريا عينيها كأنها تتذكر شيء ما ثم هتفت فى ذعر،أأنت متأكد من هذا الاسم؟!

نعم يا ماريا وكيف لى أن أنساه؟

يا إلهى أيعقل هذا؟!

ما خطبك يا ماريا أتعرفين صاحب هذا الاسم

نعم أعرفه،ولكننى بحاجة إلى التأكد،الى ذلك الحين سأقطع على نفسى وعدا لك،سأبذل قصار جهدى حتى أخرجك من هنا

إذا كانت المحامية هى أنت فمن يا ترى قادرا على إبقائى فى هذا السجن؟!

إبتسمت ماريا لكلام أيهم ثم دعت الله فى سرها أن يعطيها القدرة والبصيرة على إنقاذه.

آنسة علام موعد الزيارة إنتهى،جاء صوت الضابط حتى ينبه ماريا

فودعت ماريا أيهم وهى تقول:سنلتقى قريبا يا أيهم ولكن ليس فى هذا المكان.

أرتسمت على وجه أيهم إبتسامة وديعة وهو يهز رأسه مؤيدا كلامها

***

خرجت ماريا من السجن تهيم على وجهها لا تصدق ما يحدث لها، تهتف فى غير تصديق أيعقل أن أرى أيهم بعد كل هذه السنوات بعدما ظننت أننى تسببت فى قتله؟!أيعقل أن أراه مسجونا وأن أكون أنا محامية الدفاع عنه؟! كل ما يحدث الآن هو إرادة الله وعندما يريد الله يصبح كل شىء سهل حتى وإن كان حسب تفكير البشر مستحيل.

لن تنسى ماريا هذا اليوم مطلقا كانت فى العاشرة من عمرها، كانت الشمس حارقة والساعة تقترب من الواحدة ظهرا ولا يوجد أحد بالشارع حزرتها والدتها من الخروج إلا أنها لم تسمع كلامها وإستغلت فرصة خلود والدتها للراحة وخرجت من الشقة للعب مع أيهم،إلا أنهم إبتعدوا كثيرا عن مكان سكنيهما فى هذا الوقت كانت ماريا وأيهم يلعبون لعبة الإختباء وجاء دور أيهم فى الإختباء مما جعل ماريا تبحث عنه فى كل مكان ولكنها أيضا إبتعدت كثيرا عن المكان المختبأ فيه فى هذه اللحظة جاءت إحدى السيارات بسرعة مما أفزعها وجعلها تختبأ وراء أحد البنايات وتشاهد ما يحدث فقد كان شابا ملثما يحمل فتاة فوق كتفه ويركض بها إلى أحد البنايات،ولم يمر وقت طويل وسمعت صوت ضجة عالية وكأن شىء سقط من فوق فكانت هذه الفتاة التى كان يحملها الشاب لبثت وقتها تنظر إلى الفتاة وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة لبثت مذهولة من أثر الصدمة حتى أنها أرادت أن تركض خائفة تلقى نفسها فى حضن والدتها ولكن شىء ما كان يكبل قدميها،وفجأة سمعت صوت إنفجارات وصوت طلقات رصاص فعمت الفوضى فى المكان وإمتلء الشارع بالبشر حيث أن بعض الجنود الإسرائيلين أطلقوا الرصاص على بعض الفدائيين وبدأ الكل يركض أو يمسك حجارة يضرب بها الجنود ،وقتها رأت ماريا أيهم وهو يقاوم جندى إسرائيلى يسحبه على الأرض ويصرخ ملء صوته:

أركضى يا ماريا، فجأة أصبح المكان مظلم لم يعد هناك بشر ولا أصوات فقط الظلام فقد غابت ماريا عن الوعى،كل هذا حصل فى مدة قصيرة جدا وكأن القيامة حدثت بالفعل،وبعد ذلك إستيقظت ماريا لتجد نفسها فى غرفة نومها وبجوارها الدتها تبكى بحرقة لا تدرى ماذا حدث ؟كل ما يعلق بذاكرتها هذا المشهد الدمارى.

هتفت والدتها فى سعادة ممزوجة بفيض من الدموع:أشكرالله أنك بخير يا إبنتى،لم أكن لأحتمل أن يحدث لكى مكروه.

وهتف والدها بصوت مرتجف:هل هناك شىء يولمك يا عزيزتى

حاولت ماريا أن تتحدث كانت تفتح شفتيها على مصرعيها و تصرخ لكن دون أن يخرج صوت من حلقها بدأت الدموع تنهمر من عينيها وهى تجاهد لكى تنطق بكلمة

صرخت والدتها:ماذا بك عزيزتى؟

اسرع والدها ليأتى بالطبيب وعندما فحصها قال لهما يبدو أن إبنتكما فقدت صوتها من أثر الصدمة التى تعرضت لها

فهتفت والدتها بصوت مرتجف:أمن الممكن ألا يعود لها صوتها؟

الأمر نسبى من الممكن أن يعود لها قريبا ومن الممكن أن يأخذ فترة طويلة ويعود ومن الممكن ألا يعود مطلقا،ولكننى أنصحكما بشىء ربما هذا يساعد فى شفاءها،أتركوا هذا المكان سريعا وعودوا إلى مصر ربما تتعافى بعد أن تترك كل شىء متعلقا بالشىء الذى سبب لها هذه الصدمة.

أذعن والدها لكلام الطبيب وطلب من السفارة المصرية أن يترك إسرائيل ويعود إلى مصر وقد وافقت السفارة بعدما إطلعت على أحوال ماريا الصحية

ومنذ ذلك اليوم إلى الأن ويراود ماريا من فترة لأخرى هذا الكابوس المؤلم،الذى يؤرقها ويذهب نومها وتعيش بسببه مؤنبت الضمير.

ظلت ماريا ثلاث سنوات فاقدة للنطق إثر هذه الصدمة،كانت تجلس فى غرفتها دائما مالت إلى الإنطواء أكثر،كانت حياتها باهته تماما خالية من مرح الأطفال فطفلة فى عمر العاشرة تعرضت لصدمات كثيرة جعلتها تخشى الحياة تخشى الناس،تخشى التعلق بأحد فكانت تشعر أنها لعنة على كل من يعرفها لعنة تخشى أن تصيب أحد آخر فكلما تعلقت بأحد وأحبته ذهب بعيدا عنها فى أول الأمر ماما ماريا صديقة والدتها التى كانت تحبها مثل والدتها ولآن أيهم الذى إعتبرته منذ وطئت أقدامها فى فلسطين أخا وصديق أبدى ولكن ها هو تصيبه لعنتها،إلا أنه مهما كان الظلام دامس سيولد من رحمه النور ومهما كانت الحياة ظالمة فالله هو العدل فتلك الحياة الباهته التى كانت تعيشها ماريا طوال ثلاث سنوات تلونت بجميع ألوان الطيف،تلك الوردة التى ذبلت قبل أوانها آن لها أن تزهر،فقد حدث تغير كبير فى حياة ماريا عندما أنجبت والدتها على فقد أعاد على البسمة إلى شفاه ،أصبحت تفرح عندما يضحك وتحزن عندما يبكى عادة إليها الحياة راغبة كان على ذلك الشعاع الذى أنار حياتها وجعلها تقترب من الحياة مرة أخرى حتى أن صوتها بدأ يعود إليها شىء فشيئا حتى إستعادته كليا،ربما مولد على،كان يستحق كل هذا العناء الذى تحملته والدتها ووالدها طوال فترة الحمل.

***

جاءت نضال إلى شقتها مبكرا على غير عادتها ولكنها كانت تبدو على ملاحها علامات الصدمة فقالبلتها ماريا التى كانت تجلس بالصالة ممسكة بقضية أيهم،وعندما رأتها هتفت مهللة: اهلا يا نضال.

إلا أن نضال لم تعيرها أى إهتمام وذهبت إلى غرفتها،مما جعل ماريا تذهب ورائها حتى تعلم ما خطبها،فوجدتها جالسة على السرير ممسكة بألبوم صور وعينيها مغرورقة بالدموع

فسألتها ماريا:ما خطبك يا نضال

فأجابتها نضال بصوت حزين هش:لقد تم طردى من عملى

-ماذا؟!

فقالت لها نضال وهى شبه منهارة من البكاء:أتدرين يا ماريا أننى سئمت حياتى،منذ طفولتى وأنا أخرج من حفرة أقع فى حفرة أخرى ألا أننى كنت أخرج منها قوية أستكمل طريق حتى لو بقدم مكسورة،أركض مرة أخرى لكى أثبت لنفسى أن المصاعب خلقت فقط لكى أتغلب عليها إلا أننى الآن أشعر بالأرهاق لأول مرة هذه الحفرة لم تكسر قدمى بل كسرة إرادتى،هذا العالم سيء جدا ،لا أدرى ماذا أفعل الآن؟ وأى باب على طرقه كى أستطيع إنقاذه؟ لقد فعلت المستحيل لكن لا فائدة ،سيضيع منى يا ماريا.

ما كان لماريا سوى أن تحتضنها بقوة وهى تهتف فى حزن: إهدئى يا نضال وأخبرينى لماذا تم طردك من عملك؟ومن هذا الذى تحاولين إنقاذه؟ أخبرينى يا نضال فلربما أستطيع مساعدتك،أخرجى ما فى قلبك لى فإن لم أستطع مساعدتك فلن أتسبب فى أذيتك.

فى هذه اللحظة بالذات ،تحتاج نضال لصديق يواسيها تحتاج إلى يد لتربت على كتفيها،وتخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام حتى وأن كان كذبا وإن كان هناك شخص فى هذا العالم يصلح لهذه اللحظة فهى بكل تأكيد ماريا،لم تخبرها نضال بالحقيقة خشية أن تترك الشقة بعدما تعرف أن زوجها سجن فى قضية إتجار بالمخدرات فلا تستطيع أن تجد مستأجرة فى مثل أخلاقها الكريمة،لكن الآن لا شيء ظل لتخسره

فقالت لها والدموع تنهمر من عينيها:ماذا أقول لك يا ماريا،أقول لك أننى فتاة تعيسة الحظ زوجها ملقى فى السجن بتهمة باطلة،وعندما ذهبت إلى محامى شهير فطلب منى مبلغ كبير حتى يتولى القضية،أقول لك أننى لكى أدبر هذا المبلغ عملت فى مطعم وهذا المطعم يتحول بالليل إلى ملهى ليلى ولكى أحصل على العمل لابد أن أعمل فى هذا الملهى أقول لك أننى خلعت الحجاب وحملت بين يدى الخمر وإشتميت رائحة المخدرات،أقول لك أن هناك شخص حقير حاول العديد من المرات لمسى واليوم حاول التحرش بى وعندما صفعته تم طردى، أقول لك أن كل ما فعلته خطأ ولابد أن أعاقب عليه

إزدادت دقات قلب ماريا وهتفت بصوت مرتجف :ما اسم زوجك؟

أيهم.

شعرت ماريا أن قدماها لا تسطتيعان حملها فجلست على كرسى بجوار السرير من هول المفاجأه،فهتفت فى غير تصديق يا إلهى نضال هى زوجة أيهم!!

فإحتضنت نضال بقوة وهى تقول:إن الله غفورا رحيم سيسامحك إن شاء الله،ربما أراد لأيهم أن يخرج من السجن ليس بمال حرام،ربما أراد أن يحررك من ذلك الإثم الذى إرتكبتيه،ربما طرقتى جميع الأبواب دون أن تطرقى بابه فأراد أن يردك إليه،أما الأن فسأزف لك خبر سيجعلك تطيرين فرحا.

لا شىء عاد يفرحنى

ربما هذا الخبر

ماذا

لا تقلقى من نقود المحامى فهذا المحامى الذى سيتولى القضية لن يأخذ أجرا مطلقا

ماذا تقولين؟!

إنها الحقيقة

وكيف تعرفين ذلك؟! وكيف تعرفين ذلك المحامى

لا أحد يعرفه مثلى

كيف ذلك؟! أنا لا أفهم شيء مطلقا

إنها حكمة الله وتدبيره التى يعجز البشر عن فهمها،وأحيانا تكون الحقيقة أغرب من الخيال.

لا تحدثينى بالألغاز يا ماريا،فألبرت المحامى الذى وكلته أشهر محامى فى الولاية ومحال الأ يأخذ أجر

ومن قال أن ألبرت هو من سيتولى القضية

فهتفت ماريا فى إستغراب إن لم يكن ألبرت،فمن إذا؟!

-أنا

إتسعت حدقت عينى نضال وهتفت بإستغراب:أنت؟! كيف؟! وماذا عن ألبرت؟!

هذا كله يطول شرحه،كل ما أستطيع قوله لك إننى محامية تحت التدريب فى مكتب البرفيسور ألبرت وقد كلفنى بتولى هذه القضية.

يا إلهى،كل هذه المدة تمكث فى شقتى المحامية التى ستدافع عن زوجى،وأنا أتجاهل الحديث معها

كل شيء يا نضال يحدث فى الوقت المحدد له.

****

لم تنم ماريا طيلة الليلة إنها عادة سيئة تلازمها منذ نعومة أظافرها كلما كان هناك حدث جديد فى حياتها فقد كانت كل إمتحان تظل مستيقظة خوفا من الإمتحان تجاهد لكى تنام دون فائدة إلى أن يتسلل النوم إلى نافذة

غرفت نومها بغتة كاللص فيسرق من عينيها السهر لتنام دون أن تعلم متى نامت وكيف، لتستيقظ مفزوعة خوفا من أن تفوت إمتحانها وهذا اليوم سيحدث نفس السيناريو فما قضية أيهم سوى إمتحان لها لا بل أهم إمتحان فى حياتها هذا الإمتحان سيقلب حياتها رأسا على عقب إما صديقها خارج السجن يهنىء بحياة سعيدة يستحقها وإما قابع فى السجن لكن فى هذه الحالة ستدخل هى فى سجن نفسها سجن لا خروج منه لان المسجون والسجان واحد.

دخلت ماريا قاعة المحكمة وكل ما بها يرتعش وكأنها هى المسجونة تجر فى قدميها وكأنها تحمل على ظهرها شئا ثقيل يعيق حركتها،تمنت فى هذه اللحظة أن تهرب خارج المحكمة أو أن تنشق الأرض وتأخذها بين أحضانها ولكن لا مفر حتى وإن أتيح لها الهرب فلن تهرب فهى ليست جبانة إلى هذا الحد ليست جبانة لتترك من تشبث بها ليست جبانه لتترك قدرها

دخل القاضى قاعة المحكمة ليقف كل من فى القاعة إحتراما له،إلا أن قدماى ماريا لم يكونا قادران على حملها فوقفت مرتعشة خائفة فمهما كانت قدرتها على تمالك نفسها إلا ان هذه أول قضية لها وكما أن المرة الأولى فى كل شىء مميزة إلا أنها أيضا تحمل بداخلها رهبة كبيرة تلك الرهبة التى تجعلها ترتعش.

نادى القاضى على الدفاع ليقول كلمته الإفتتاحية فى هذه القضية،إلا أن ماريا لم تكن تسمع أى صوت كانت سارحة فى ملكوت الله ترى كل من فى القاعة وهم أو أنها تراهم شفافين يمكنها أن تمر من خلالهم دون أن يحدث ذلك أدنى تغيير

فقال القاضى بحنق:آنسة ماريا تفضلى بمرافعتك.

وصل الصوت أخيرا إلى أذن ماريا لتقف خائفة تزدرد ريقها بصعوبة دون أن تنبث ببنت شفة إلى أن سرقت نظرة مليئة بالخوف إلى أيهم ذلك البشوش الذى لم تفارق وجهه الإبتسامة فبادلها نظرة الخوف بنظرة ثقة وكأنه يقول لها:إننى أثق بك.

هذه النظرة جعلت خوفها يتلاشى،وأحست أن الدماء قد وصلت أخيرا إلى وجهها لتقتل شحوبه فوقفت شامخة منتصبة الجسد رافعة الرأس وهى تقول بصوت رن صداه فى قاعة المحكمة:سيدى القاضى إن موكلى كان ضحية مؤامرة خسيسة دبرت له لكى تورطه فى جريمة هو أبعد ما يكون عن إرتكابها ذلك الشاب المشهور بنزاهته وشهامته كيف له أن يرتكب مثل هذا العمل المشين.

الحقيقة سيدى القاضى أن المصنع الذى كان يعمل به موكلى متورطا فى الإتجار بالمخدرات وعندما علم موكلى بهذا قرر أن يبلغ الشرطة لكى يضع هؤلاء المجرمين فى السجن وعندما علم صاحب المصنع بهذا قرر أن يلفق له هذه التهمة الكاذبة.

نظر المدعى العام إلى ماريا نظرة مليئة بالمكر ثم قال بسخرية:سيدى القاضى هناك شاهد مهم فى هذه القضية هذا الشاهد سيؤكد أن المتهم ليس بهذا الشرف والنزاهة الذى يحاول الدفاع إثباتها،هذا الشاهد كان زميلة فى المصنع وصديقه المقرب منذ أن عمل بهذا المصنع.

ناد القاضى على الشاهد ليدخل قاعة المحكمة،عندما سمعت ماريا الإسم كادت أن تفقد وعيها،وأخذت تهتف دون تصديق يا إلهى أيعقل أن يكون هذا الأسم الذى سمعته صحيح؟!لا لا من دون شك هذا تشابه أسماء.

تعلقت عيناى ماريا بمدخل القاعة هى تدعو الله أن يكون الامر مجرد تشابه اسماء فقط،ليس إلا إلى أن دخل الشاهد قاعة المحكمة فإتسعت

حدقة عيناها،ولم تصدق ما رأته إنه هو آدم إبن العم يوسف،إلا أن صدمة ماريا برؤيته لم تكن أكبر من صدمته هو، فآخر ما كان يتوقعه أن تكون ماريا هى محامية الدفاع فى هذه القضية،لم يستطع أن ينظر فى عينيها بينما عيناى ماريا مليئة بالأسئلة وأهم سؤال لماذا فعلت هذا ،هذا السؤال تكرر رؤيته له فى عيون ثلاثة أشخاص أولهم م عيناى ماريا ،أما الثانية من عيناى صديقه الذى لم يزوره فى السجن سوى مرة واحد ثم تحجج بمرض والدته وذهابه معها إلى باريس لإجراء عملية دقيقة لها ،أما الثالثة كانت من عيناى نضال التى تذكرت كل الكلام الطيب الذى كان يقوله لها أيهم عن آدم.

كسر صمت الجميع سؤال المدعى العام لآدم عندما قال:دكتور آدام هل من الممكن أن تشرح للمحكمة ما كان ينوى أن يورطك فيه المتهم.

أجابه أيهم دون أن ينظر إلى أحد بينما تعلقت عيون الجميع به وأولهم ماريا التى لم تضع فى الحسبان هذا الشاهد الذى من الممكن أن يقلب كل موازين المحاكمة:سيدى القاضى إننى أعمل فى مصنع الأودية الذى كان يعمل به أيهم ومنذ أن جاء للعمل به وقد أصبحنا صديقين مقربين فقد أعجبت كثيرا بنزاهته وأخلاقه،إلا أنه فى آخر شهرين له فى المصنع بدت عليه تصرفات غريبة تصرفات لم أكن أتوقعها منه كان دائما يقول لى :أنه سئم حياته الروتينيه المله وأنه يريد أن يصبح غنيا بأى ثمن ثم عرض على أن نتاجر بالمخدرات ويكون صيدليته الصغيرة منفذا للبيع،وقتها سخرت منه وظننت أنه يمزح إلا أنه أبدى جديته فيما يقول مما جعلنى أنصحه بألا يسير فى هذا الطريق المظلم عسى أن يقع فى حفرة دون أن يجد من يخرجه منها،لكنه ضرب بكلامى عرض الحائط.

دكتور آدم منذ متى وأنت تعمل فى هذا المصنع؟

منذ سنة تقريبا

هل لاحظت أن هذا المصنع من الممكن أن يكون متورطا فى صناعة المخدرات؟

لا وإلا ما الذى يجعلنى مستمرا فى العمل به حتى الآن.

زعق المدعى العام بملء صوته وهو يقول مزمجرا:هذه يا سيدى شهادة واحد من أعز أصدقاء المتهم ليس هذا فقط بل أنه يعمل فى نفس المصنع الذى يحاول الدفاع تشويه سمعته حتى تغطى على جريمة موكلها الذى كان يرتكبها فى حق البلد الذى إحتضنه،هذا الغريب الذى أتى إلى بلادنا لكى يقضى على شبابها ويدمر مستقبلهم ،هذا هو الوجه الحقيقى لهذا الشاب الذى لم تعجبه وظيفته فى إحدى أشهر المصانع التى تصنع الأدوية فى هذه الولاية فرسم لنفسه طريقا آخرا للحصول على المال أكثر سرعة وسهولة لكنه لم يدرى أن فى أن هذا الطريق آخره سجن.

إنتفضت نضال من فوق كرسيها وهتفت باكية:هذا كله كذب أيهم لا يمكن أن يفعل إنه برىء.

هتف القاضى فى ضجر:هدوء،إذا تحدثتى ثانية دون إذن سأضطر لسجنك.

ثم أردف قائلا:هل لدى الدفاع أقولا أخرى.

وقفت ماريا صامتة مذهولة لا تصدق ما يجرى أمامها،كادت أن تتدفق الدموع من عينيها لولا أن كبحتها فى صلابة ثم قالت بصوت مهزوم:لا يا سيدى لكننى أرجو من عدالة المحكمة أن تعطينى فرصة لأكستمل جمع الأدلة على براءة موكلى.

هتف المدعى العام فى سخرية:ماذا تبقى آنستى لكى تستكملينه.

إنه الوقت يا سيدى ربما يعمل لصالحى هذه المرة

فقال القاضى:قد أجلت المحاكمة إلى أول شهر مارس القادم،والآن رفعت الجلسة

أغلقت ماريا عينها وأخذت نفسا عميق هى تقول:اشكرك يا الله.

***

منذ أن عادت نضال من المحكمة وهى جالسة بغرفتها حتى أنها بعدما سمعت شهادة آدم لم تبدى أية ردة فعل وكأنها بندقية فارغة من الرصاص وقت حرب فلا فائدة منها،فأمسكت بألبوم صور وأخذت تقلب صوره فتستوقف كل حدث أخذت فيه هذه الصور فأيهم منذ صغرة وهو يهوى التصويرأكثر من أى شىء آخر حتى أن نضال كانت تشعر بالغيرة أحيانا من ولعه بالتصوير فسألته ذات مرة:ما السر فى هذه الألة حتى تقع فى غرامها إلى هذا الحد

فقال لها: بها أستطيع ايقاف الزمن،أخطف منه لحظة وأحبسها رغما عنه داخل صورة تلك اللحظة لا تعود مطلقا ليس لأن الزمن لا يعود للوراء بل لأننى سرقتها منه والوقت الذى أسرقه من الزمن ثمين وأنا لا أهوى إعادة الأشياء الثمينه.

دون أن تدرى وجدت ماريا تقف بجوارها يبدو أنها للحظات تاهت فى عالم من صور فهتفت بحزن:إنه برىء يا ماريا صدقينى،أنت أكثر شخصا يمكنه أن يصدق هذه الحقيقة لقد حكى لى أيهم كل شىء عن صداقتكا فى زيارتى الأخيرة له

فربتت ماريا على كتفها ثم إحتضنتها وهى تقول:ثق بالله يا نضال..لا تدرى إن كانت تواسيها أم تواسى نفسها.

إننى أخاف يا ماريا أن يحكم عليه بالسجن ظلما

سأحارب بشراسة لإجله يا نضال،لذا سأذهب لزيارته بعد غد فهناك العديد من الأسئلة التى لابد أن يجيبى عليها.

ساد الصمت لبعض ثوانى ولكن لم يتوقف بكاء نضال، فأرادت ماريا أن تشغلها ولو للحظات فقالت لها:ما هذا الألبوم الجميل

هو ليس ألبوما بل حقيبة للذكريات،هذا كلام أيهم،فقد كان يقول عندما يتحول الشىء الى صورة يصبح ألامر سهلا فيكمننا أصطحاب من نحب معنا الى اى مكان حتى يمكننا اصطحاب الوطن فى الغربة.

يبدو أنه مصور محترف

كان التصوير شغفه الوحيد،والكاميرا زوجته الثانية

يبدو أنك تغايرين منها

كنت،لكن الأن أصبحت رفيقتى فى غربة روحى،فهى من جعلتنى الآن أراه وأتفقد ملامحه ألمسه،أيهم كان محق فالتصوير يجعلنا نسرق من الزمن لحظات ولكنه لم يدرك أننا نستطيع أن نسرق من الزمن اشخاص،انظرى يا ماريا هذه الصورة عندما تزوجنا،وهذه الصورة عندما كان صغيرا يلهوى تحت شجر الزيتوت وأخذت تنتقل من صورة إلى أخرى وكل صورة لها ذكرى وكل ذكرى لها أثر فى الروح وهذا الأثر يجعل الروح تحلق فرحا وتئن ألما فى ذات الوقت،إلى أن أستوقفت ماريا إحدى الصور فأخذت تنظر إليها بإمعان ثم هتفت فى قلق:من هذه الفتاة؟

إنها الأخت الكبرى لأيهم

مستحيل،لم يكن لدى أيهم أخوات إنه وحيد.

هذه أخته من أبيه وكانت لا تعيش معهم بل مع والدتها فى غزة

إغرورقت عينيها بالدموع وهى تقول:لكن هذه الفتاة

قاطعتها نضال لتقول بحزن:مسكينه هذه الفتاة يا ماريا،فقد ماتت وهى لا تتعدى التاسعة عشر عاما أثناء مهاجمة الجنود الإسرائلين لبعض الفدائيين فى تل أبيب،فقد حكى لى آدم أنها كانت آتية لزيارتهم،فاليوم الذى ماتت فيه.

يا إلهى إنها هى نفس الفتاة،ملامحها لم تغادرنى يوما فى كابوسى،إنها الفتاة المختطفة التى ألقيت أمامى من البناية.يمكننى أن أنسى كل شىء إلا هذه الحادثة.

ما بك يا ماريا؟!

ما بى أشبة بكابوس تتفسر أحداثة الأن.

***

ذهبت ماريا لزيارة أيهم الذى كانت تبدو على ملامحه علامات اللا مباله،على عكسها فقد كانت تبدو عليها علامات الخوف والقلق فقالت فى غضب:هل من الممكن أن تشرح لى ما حدث فى قاعة المحكمة؟!

أتشكين بى؟!

إن كان لدى شك واحد بالمئة فيك ماكنت لترانى اليوم

ماذا إذا؟

أريد أن أفهم إذا كان آدم حقا صديقك فكيف له أن يشهد ضدك فى المحكمة؟!

فأجابها فى حنق:أنا من يريد تفسيرا يا ماريا،فمنذ أن تعرفت على آدم وقد أصبحنا أصدقاء مقربين فى فترة قصيرة جدا،ستة أشهر هى فترة عملى بالمصنع يوازيها ستة قرون من صداقتى لآدم، أتدرين يا ماريا كان آدم بالنسبة لى الوطن داخل الغربة فهو العربى الوحيد فى ذلك المصنع.

والشىء المحير يا ماريا أنه أول من أخبرته بما يجرى فى المصنع وقد حزرنى مرارا أن أكف عن هذا بل ذات مرة نصحنى بمغادرة المصنع وتقديم إستقالتى وقد داربينا وقتها حديث طويل

فقد قال لى حرفيا:من الأفضل لك يا أيهم أن تترك المصنع وتذهب أنا أخاف عليك ولا تنسى أنك عربى ولست أمريكى

فقولت له بعند:الخطأ خطأ ليس له جنسية

فقال لى محذرا:إن صاحب المصنع لدية نفوذ،وأخاف بطشه عليك

وانا أخاف الله يوم أقف أمامه ويسألنى عن الحق الذى سكت عنه والساكت عن الحق شيطان أخرص

بل هم الشياطين يا أيهم فأهرب من وكرهم،أخاف أن يلوثوا طهارتك ويحولك إلى مجرم فإن لم تكن معهم فأنت ضدهم ومن يكون ضدهم يحولون حياته إلى جحيم.

وماذا عن أرواح الأبرياء الذين يدمرون حياتهم يبيعون لهم السم على أنه الخلاص يدمرون صحتهم وحياتهم ومستقبلهم

أليست روحك وزوجتك من بين أرواح هؤلاء الأبرياء،لماذا تريد إزهاقها أنت تخبأ عنى شيئا يا آدم

فأجابنى بإرتباك:لا،لكننى أخاف عليك

لا تخاف الله هو خير حافظ.

دار هذا الحديث بينى وبين آدم قبل شهرين وبعدها إختفى من المصنع وأغلق هاتفه تماما وكدت أن أفقد صوابى فى البحث عنه'إلى أن جاء لزيارتى فى الصيدلية قبل القبض على بيوم واحد،وقتها دار بيننا حديث غريبا جدا الآن أفهم معناه

فقد سألته وقتها بشوق وغضب:أين كنت كل هذه المدة؟وكيف لك أن تذهب دون أن تخبرنى؟!

فأجابى بسخرية:كنت أريد الهرب ولم أستطع

فهتفت بإستغراب:ممن؟

من نفسى

ما هذا الكلام الغريب؟

فضحك بصوت عالى ثم قال:مجرد تخاريف يا صديقى لا عليك

فهتفت بقلق جم:ما بك يا آدم لا تقلقنى عليك

فأجابى بسخرية:إننى أمزح معك،لا تأخذ كلامى على محمل الجد كل ما فى الموضوع إننى أردت أن أذهب فى رحلة بمفردى أعيد بها نشاطى وإستقبالى للحياة والآن عدت لا شىء أكثر ولا أقل

فهتفت بضجرا لا أدرى متى ستكف عن حركاتك الصبيانيه هذه ومزاحك الغليظ

إنهما واق من الحياة ليس إلا

ثم تعالت ضحكنا سويا دون سبب حقيقى

إلى أن قال لى:أتدرى يا أيهم أنك صديقى الوحيد منذ أيام المدرسة فقد كنت قبلك أعانى من الوحدة وبعدك شعرت بدفء الصداقة،أنت الشخص الوحيد الذى لا أريد له الأذى

إن هذا الشعور متبادل يا صديقى،وبما أنك غائب عنى من وقت طويل سأذهب لأصنع لك أجمل كوب قوة صنعته حتى الآن لنشربه نخب الصداقة الأبدية.

ستكون فعلا صداقتنا أبديه

فقلت مازحا:هل هذا سؤال أم تأكيد؟

الإثنين

إذا صداقتنا ستكون أبدية هذه إجابة لسؤالك وتأكيد له.

فذهبت لأصنع كوب القوة ثم عدت فبطريقة عفويا،ودون مبررات قام بحضنى بشدة قام بالتشبث بى وكأنه طفلا صغير فعل شىء خاطئ ولم يجد سوى حضن أمه ملاذا يحتمى به،ثم تركنى وذهب،لا أدرى لماذا وقتها تركته يذهب دون أن أستوقفه كنت أشعر أنه يحمل عبء كبيرا على كتفه، شىء به يثقل قلبه،شىء لا يستطيع إزاحته،والآن فهمت كل شىء فآدم هو من وضع المخدرات داخل صيدليتى وهو من تسبب فى سجنى وذلك الحضن لم يكن سوى صوت جهور يصرخ من داخله ويقول لى:سامحنى.

أعلم يا ماريا جيدا أن آدم لم يطعننى بظهرى كما يبدو أننى على يقين من أنه واقع فى مأزق ولم يفعل بى هذا إلا تحت ضغط كبير،إنقذيه يا ماريا.

هذا الكلام فى حق آدم جعل الأمر صعبا على ماريا،فمعنى كلامه أن آدم واقع فى ورطة ربما هذه الورطة هى التى أجبرت يديه على وضع المخدرات فى صيديلة أبيهم كما ألجمت لسانه عن قول الحقيقة أمام المحكمة،قابليه يا ماريا عسى أن يقول لك حقيقة ما حدث معه.

عندما خرجت ماريا من عند أبيهم مالبثت،حتى تذكرت عنوان الشقة التى يسكن بها أبيهم فقد أخبرتها به سلينا ذات مرة، ذهبت ماريا إلى ذلك العنوان فكان شقة فى الدور الثانى فى إحدى البنايات التى لا يظهر عليها مظاهر الترف، طرقت الباب بتردد وكأنها تتمنى أن لا تجد أحد فى البيت لا تدرى ما هذا الشعور الذى إنتابها فاجأة فهى كانت تعزم على زيارة آدم منذ إنتهائها من المرافعة.

إنتظرت ماريا أمام الباب قليلا ثم فتح آدم الباب ليجد خلفه ماريا تنظر إليه بنظرات محتدة وكأن فى عينيها شرار سيحرقه ويحوله إلى رماد

قال لها بفتور:تفضلى

لماذا فعلت هذا؟!

كنت أتوقع هذا السؤال منك منذ رؤيتك فى قاعة المحكمة،لم أكن أتوقع أن ألتقى بك فى هذه الظروف

أجب يا آدم،ولا تراوغنى

ما فعلته كثيرا يا ماريا حتى أنه بدأ يطاردنى ولا يجعلنى أعيش بسلام

أتريد أن تقنعنى أنه بعد الذى فعلته أن لديك ضمير!

لا أريد أن أقنعك بشىء،لم يعد لى حيلة.

عن أى حيلة تتحدث وأنت ذلك الصديق الخائن الذى لم يفكر مرتين فى طعن صديقه فى ظهره،أتدرى لماذا جئت اليوم،جئت لكى أخبرك أن صديقك يظن أنك مجبرا على ما فعلته،حتما لم تخبره أنك شابا غنى مدلل سئم أموال والده فأرد أن يغامر بمفرده كرفاهية،ترى شابا مثلك ما الذى يجبره على فعل ذلك؟! أيكونوا إستغلوا حاجتك للمال لعلاج والدتك المريضة،أو والدك القعيد،فى الفترة التى عرفتك فيها كنت أظن أنك شابا رغم نشأتك فى أمريكا إلا أنك مازلت مصريا فى الداخل وإن كنت تريد إخفاء ذلك،إلا أننى كنت مخطأة فأنت ليس سوى مجرما خسيس قادرا على فعل أى شىء

هذا كذب

بل الحقيقة كاملة

صدقينى هذا كذب

إن كان هذا كذب فما الحقيقة إذا؟!

الحقيقة أنى جبان،خائفا مرتعش أبحث عن مكان لأختبأ به ولكن أين أختبأ من نفسى من ضميرى لم أكن مجرما ولكن الأن أصبحت.

ماذا تقصد؟!

سأحكى لك كل شىء،منذ سنة تقريبا كنت قد إنتهيت من دراستى الجامعية تلك الدراسة التى كان يرفضها أبى، لا ادرى وقتها إن كان تمردا على أبى أم حبا فى الصيدلية ولكننى فضلت أن أدرس الصيدلة وليس إدارة الأعمال كما يريد أبى،فكنت أعتقد أن أبى تركنى أختار طريقى بنفسى دون تدخل منه ولكنه كان ينتظرنى فقط حتى أنهى دراستى لكى يجبرنى على إدارة أعماله وقال لى حرفيا أن الدراسة ما هى إلا رفاهية وأما النقود فهى المستقبل ولاننى رفضت وبشدة وأردت أن أعمل بمجال دراستى هذا الأمر جعل أبى يثور غضبا وفى نوبة غضب قام بطردى من البيت وحرمانى من جميع ثروته،فأخذت عهدا على نفسى أن أعمل بعيدا عنه حتى لا أحتاج له مطلقا ولاننى شابا حديث التخرج فسوق العمل لن يفتح ذراعيه لى بهذه السهولة،وعندما يأست تماما أخبرنى صديقا لى أن هناك مصنع للأدوية يبحث عن صيادلة فقمت بالتقديم على هذه الوظيفة وقد تم قبولى كنت سعيدا جدا بهذة الوظيفة وشعرت أنها إنتصارا على أبى ولكننى لم أحتاج الكثير من الوقت حتى أكتشف الوجه القبيح لهذا المصنع وأن مهمته الأساسية ليست إنقاذ الأوراح بل تدميرها،ولكننى رفضت الأنخراط فى هذه الجرائم رفضا قاطعا ،قدموا لى جميع المغريات ولكننى لم أقبل بل هددت بفضحهم،لكنهم كانوا يسبقونى بخطوة فالوقت الذى كنت أخطط لفضحهم كانوا يخططون لجعلى عبدا لهم طوال حياتى..لن أنسى هذه الليلة عندما أتصل بى أحد العمال فى هذا المصنع وبلغنى أنه يمتلك بعض المستندات التى تدينهم وتقضى عليهم وطلب منى أن أقابله فى طريق قريبا من المصنع وفعلا ذهبت لمقابلته ولكننى لم أجده بل وجدت جثته ملقاة ومطعون بسكين فى ظهره أمسكت به لأراه إن كان على قيد الحياة أو مات فى هذه اللحظة قاموا بتصويرى وظهر الأمر على أننى من قتلته لقد وقعت ضحية مؤامرة قديمة

إستهلكت فى مئات الأفلام السينمائية،فبدأو بتهديدى إن لم أعمل معهم وأكتم أسرارهم سيكون مصيرى السجن أو الموت وكان لهم ما أرادوا فقد تخليت عن إنسانيتى فى سبيل إنقاذ حياتى أصبحت ظلا لهم مصاحبهم طوال الوقت ولكن دون صوت،وبعدها ظهر أيهم فى المصنع شعرت أنه نسخة القديمة شابا يريد أن يعمل بشرف لا يهمه المال بقدر أن يكون رزقه حلال،لا يريد أن يلوث يدية التى فى كل ضائقة ترفع إلى السماء فلا يردها الله خائبة،أحببته كثيرا صرنا أصدقاء فى لمح البصر،لذا أردت أن أبعده عن هذا المصنع وخاصة بعدما حكى لى أنه يشك بأن المصنع يقوم بلإتجار بالمخدرات تحت غطاء صناعة الأدوية،فحذرته ألا يخبر أحد أن ينجى بحياته ويترك المصنع وكأنه لم يأت إلى هنا وإلا أنه لم يصغى إلى كلامى وقام بتهديدهم وأنت تعرفين النتيجة،ولكننى لم أتوقع أن أكون أنا الأداه التى يستخدمونها للايقاع به،وعندما أدركت ما ينون علية قمت بالهرب بعيدا حتى لا يستطيعون الوصول إلى ولكنهم أستطاعوا وحدث ما حدث،نعم يا ماريا أنا مجرم ولكن جريمتى الوحيدة هى الجبن.

شردت ماريا بعض الشىء تحلل كلام أدم هى من البداية تدرك تماما أنه فعل كل هذا مرغما فمهما كان ،فنظرتها للبشر لا تخيب كثيرا ولكنها أرادت إستفذاذه حتى يخبرها بكل شىء.

هتفت ماريا فى حنق:لو كان كلام آدم صحيح فإن الموضوع أكبر مما تخيلت،وله جذور.ثم همت بالرحيل دون أن تنبث ببنت شفة.

همت ماريا بالخروج فإستوقفها آدم وهو يقول: ماذا ستفعلين الآن بعد معرفتك للحقيقة؟!

سأحارب لأجله،فما لا تعلمه أنه صديقى وانا لا أتخلى عن أصدقائى.

طأطأ آدم رأسه فى إنكسار فقد فهم قصد ماريا من كلامها،فقال محدثا نفسه: نعم يا ماريا لقد تخليت عن صديقى لكن ماذا تنتظرين من شخص تخلت عنه الحياة؟

***

خرجت ماريا مسرعة من بيت آدم حتى تحضر حقيبتها حيث أنها أخذت إجازة منتصف العام منذ يومين ولابد أن تعود إلى عائلتها فى نيويورك إلا أنها إنتظرت حتى تقابل أيهم وآدم وقد حدث ذلك.

(١٢)
عودة

عندما وضعت ماريا قدميها على أرضية منزلها شعرت بسلام غريب يسرى فى عروقها،كما لو أنها إرتشفت للتو ترياقا للسعادة،إلا أن ذلك المنزل التى تركته من ثلاثة أشهر مختلف تماما عن هذا المنزل،فقد حولته والدتها من مكان مقفر إلى إحدى جنان الرحمن التى ترقص فيها الحياة مرتدية فستانا من الورد،كانت نبضات قلبها تفيض سعادة عندما تهب نسمة باردة خفيفة محملة بروائح الورود الجميلة وكأنها تزف وصولها إلى عائلتها وكانت كلما نظرت حولها تشعر بأنها فراشة تتراقص بين الورود،مما جعلها تتسائل هل هذه هى الحديقة التى تركتها مقفرة تعانى الموت والتلاشى؟!هل هذه هى الورود التى تركتها ذابلة ويابسة أغصانها؟!ها هى الحياة تفر هاربة من جحر الموت،وهاهى الورود تفيح عبيرا وحياة تتراقص فوق أغصانها تبتسم لها وتغمز لها كأنها تغازل تلك الوافد الجديدة التى لم تكن يوما بالغريبة وكأنها تقول لها: أنت رأيتى دمارى ولكنك الآن ترين الحياة تدب مرة أخرى فى أغصانى،كل ما رأته ماريا جعلها تتسائل هل هذه هى المفاجأه التى حدثها عنها على عبر الهاتف عندما أخبرته أننى قادمة هذا الأسبوع إلى المنزل؟

ولكن هذا المشهد الجميل لن يكتمل بدون رؤيته،لم يكتمل تفكير ماريا فى على حتى رأته يركض بكامل قوته بإتجاهها،وقتها أيقنت أن هذا بالتأكيد حلم ليس إلا،مما جعلها تغمض عينيها ثم تفتحهما لكى تتأكد هل ما تراه حقيقيا أم وهم،إلى أن وصل على إلى حضنها وإرتمى فيه بشوقا كبير وهو يقول:إشتقت إليك كثيرا يا أختى.

فهتفت بدهشة:هل أنت يا على فعلا من كنت تركض نحوى الآن أم أننى أحلم؟!

فقال بسخرية:لا طبعا أنا شبحه

على لا تمزح معى أين عكازك؟!

-لم أعد بحاجة إليه

لكن كيف؟!!

الله قادر على كل شىء

شعرت ماريا للحظة أن قدماها لا تستطيع حملها فسقطت على ركبتيها باكية من هول المفاجأة،كانت دموعها تتدفق وكأنها لم تبك منذ زمن بعيد.

كفاك بكاء يا ماريا إحتفظت بهذا الخبر مفاجأة لكى أرى السعادة فى عيونك وليست الدموع.

أنها دموع الفرح يا غبى،وهكذا دموع الفرح أكثر تدفقا من دموع الحزن إنها دموع رقيقة باردة تريح العين وتثلج القلب،عكس دموع الحزن التى تقبض القلب وتحرق العين

فهتف على بسخرية وهل هناك ضحك للفرح أم أن هذا العرض لم تتوصل له هذه العائلة حتى الآن.

ضحكت ماريا بشكل هستيرى وهى تقول:الآن تأكدت أنك أخى لا أحد غيره.

دخلت ماريا المنزل لتجد والديها بإنتظارها،والدتها عندما رأتها صرخت بفرح ماريا..ثم إحتضنتها بشدة ووالدها الذى قبل جبينها وأخذها فى أحضانه

فهتف ماريا بشوق:الآن عادت إلى الحياة.

دخلت ماريا إلى غرفتها فإستلقت على سريرها دون أن تغير ملابسها تشعر أنها لم تنم منذ قرن فمنذ أن ذهبت بعيدا عن عائلتها ونومها غير طبيعى ومتقطع فهى لا تشعر بالأمان سوى بجوار عائلتها وهى تشعر بأنفاسهم

تحاوطها كانت شريدة الآن وجدت المأوى،لذا فلتنام بسلام الآن تاركة جميع همومها ومشاكلها جانبا لتحظى بنومة هنيئة،فقامت متكاسلة بخلع ملابسها وإرتداء ثياب النوم ثم القت نفسها على السرير وكادت أن تغوص فى نوم عميق حتى تذكرت تلك الصورة وأصحاب البيت وتذكرت أنها عزمت على فعل شىء لمساعدة هذه الأسرة ولكنها إنشغلت بدراستها وما توالى عليها من أحداث ونسيت ما كانت تفكر فى فعله حيال تلك العائلة،ولكنها لا تدرى ماذا تفعل لكى تساعدهم؟!فكرت كثيرا فى شىء لكى تساعدهم به ولكنها لم تتوصل لشىء،فاجئة تذكرت أن هناك شخص واحد يستطيع مساعدتها فيما تنوى فعله،هو الشخص الوحيد الذى من الممكن أن يجعلها تصل إلى مبتغاها فى هذا الموضوع،ثم وضعت رأسها على الوسادة وإحتضنت أخرى وأغلقت نوافذ عينيها وغاصت فى نوم عميق.

***

جلست ماريا على الأرجوحة الموجودة فى حديقة المنزل ترتشف كوب من القهوة بعدما تناولت الفطور مع عائلتها وذهاب والدها إلى العمل،جلست تفكر فيما حدث لها وكيف لها أن تحل قضية أيهم التى زاد تعقيدها من زى قبل،وقتها جاءت والدتها بغته من ورائها وجلست بجوارها على الأرجوحة فوضعت ماريا رأسها فى حضن والدتها وهى تقول بشوق:إشتقت لك يا أمى كثيرا.

ليس أكثر منى يا صغيرتى،بدونك كان البيت مظلما لا بريق له.

والآن عدت يا أمى ولكن عدت محملة بالكثير من المفاجئات والأحاديث.

وأنا أريد أن أسمع منك كل شىء.

حكت ماريا لوالدتها ما حدث معها بالتفصيل منذ أن تركت نيويورك وذهبت إلى بافلو وكيف تحول كابوسها إلى حلم إلا أن هناك شىء واحد لم

تحكيه لها وهو مقابلتها لدكتور عبد الرحمن،شردت ماريا بذهنها قليلا عندما تذكرته فاجئة إرتسمت إبتسامة رقيقة على شفتيها عندما جاءت صورته أمام عينيه إنها لا تعرف عنه شيء ولم تلتقى به سوى مرة واحدة ولكن هذا المرة كانت كفيلة بجعل قلبها يدق لأجله.

بماذا شردتى عزيزتى؟

لا شيء يا أمى

شعرت والدتها أن هناك شيئا ما تخبئه عنها فقالت مراوغة:هل هناك شيء آخر تودين إخبارى به؟

أجابتها ماريا بإرتباك:لا يا أمى

حاولت ماريا أن تغير الموضوع قبل أن تكشف والدتها ما تريد تخبئته عنها فقالت لها :الآن إحكى لى كيف إستطاع على أن يسير بشكل طبيعى على قدميه؟

أخذت والدتها نفسا عميقا ثم قالت بدهشة:إن ما حدث يا ماريا لم يخطر على بالى أنا ووالدك مطلقا،أنه كرم الله علينا،أنت تعلمين أننا لم نترك طبيبا فى مصر إلا وقد عرضنا عليه حالة أخيك كلهم أكدوا لنا انه لا أمل فى شفائه،إلا أن والدك قد تعرف بالصدفة على طبيب متخصص فى العظام وعرض عليه حالة أخيك، هذا الطبيب قام بفحصه فحصا شاملا بما أن الطب متقدم جدا فى أمريكا فقد قال لنا الطبيب أن هناك أمل فى شفائه بعد خضوعه إلى عميلة جراحيه وبعض تمارين العلاج الطبيعى

لذا خضع على لهذه العملية وبدء حاليا فى العلاج الطبيعى حتى يلين عظم القدم حتى يتمكن من السير عليها دون أى ألم،ولكن الغريب رأى الطبيب فقال لوالدك وهو فى قمة الدهشة:إن على لم يشفى بسبب العملية

،أن هذا الفتى يمتلك إرادة فلاذية،أنه أحد الأبطال التى جادت بهم الحياة أنه يمتلك قدرة غريبة على التحمل والصبر لا يملكها طفلا فى مثل سنه.

إبتسمت ماريا لسماعها هذا الكلام عن أخيها أنها تعلم جيدا ما يستطيع هذا الصغير فعله إنه بطلها الخارق.

***

وقفت ماريا أمام محل العم إقبال فقد كان مشغولا مع بعض الذبائن فلم يلحظ وجودها وبعدما أنتهى من هؤلاء الذبائن نظر إليها من خلف نظارته ثم هتف فى دهشة:ماريا ما هذه المفاجأه الجميلة تفضلى يا إبنتى.

فإبتسمت ماريا وهى تقول:كيف حالك يا عم إقبال.

إننى بخير يا إبنتى طالما أنت بخير

جلست ماريا على إحدى الكراسى الموجودة أمام مكتب العم إقبال ثم قالت:عم إقبال هل تتذكر عندما سألتك عن المالك القديم لبيتى وقولت لى، أن زوجته البيت أصيبت بشلل.

نعم أتذكر،ولكن ماذا تريدين منهم؟!

أريد أن أقابلهم وأتعرف عليهم

هذا مستحيل

ولكن لماذا؟

ألم تتذكرى عندما قولت لك أنهما بعد الحادثة التى حصلت لإبنتهما،لا يطيقون رؤيت أحدا من المسلمين.

لكننى أريد الخير

بالنسبة لهم لفظ مسلم تعنى الشر

أتعلمين يا ماريا أنه كان من الممكن أن تتعرفين عليهما بكل سهولة وخاصة وأنت تحملين هذا الإسم لو لم تكونى مرتدية هذا الحجاب.

إبتسمت ماريا ساخرة:ربما تمسكى بتعاليم دينى أصبح جريمة هذا الفترة

لا تقولى هذا يا إبنتى: لكننا فى زمن يقضى على الهويات فنادرا جدا من يتمسك بهويته،ليت إبنتى كانت مثلك متمسكة بجذورها وهويتها

لاحظت ماريا الحزن الذى بدى على ملامح العم إقبال عندما قال هذه الجملة،فقالت مستفسرة:ماذا حل بك يا عم إقبال؟

لا شىء يا إبنتى،لكننى تقدمت فى السن ولم أعد أحتمل المزيد من الصدمات.

صمتت لثوانى معدودة لم تحاول ماريا خلالهم أن تضايقه بمزيدا من فضولها،ولكنها كانت تريد أن تعرف ما به عساه أن تخفف أحزانه.

كسر العم إقبال صمته عندما قال:أتدرين يا ماريا أن فترة تقسيم الهند كانت أصعب فترة مرت على فى حياتى كنت صغيرا جدا عندما حدث ذلك لكن وقتها لم يتوقع أحد أن تحدث كل هذه المجازر فكانت القطارات التى تسافر من الهند إلى لاهور تسافر محملة بجثث المسلمين والقطارات التى تسافر من لاهور إلى الهند تسافر محملة بجثث الهندوس،كانت مجازر بشرية حقيقة حيث تحول الإنسان إلى وحش كاسر متعطش للدماء وتحولت الهند إلى غابة يخشى السير فيها فى وضح النهار أنا وعائلتى شربنا من ذلك الكأس المرير فقد هاجم القطار الذى كنا نسافر فيه بعض السيخ وقتلوا كل من فيه ومن بينهم أختى الكبرى الذين أرادوا إغتصابها أمام عين أبى الذى قام مدافعا عنها فأغمد أحدهم سيفه فى قلبه فأرداه قتيلا ثم هجم على أختى التى وجدت خنجرا ملقاة على الأرض فأغرسته فى صدرها فماتت دون شرفها فقد إختارت الموت على أن يدنس أحد السيخ جسدها الطاهر إختارت الحرية المطلقة على العبودية المذلة فى هذه الأثناء حتى تنقذنى أمى خبأتنى تحت كرسى القطار

وجلست فوقه وتظاهرت بالموت وبالفعل نجحت خدعت أمى،وظنوا أنها فعلا جثة .لقد أنقذتنى أمى من الموت ولكن هذه الحادثة دمرتنى وسببت لى أزمة نفسية وعلى الرغم من أن والدتى إستطاعت أن تحصل من حكومة باكستان على بيت وأرض رزاعية بديلا عن بيتنا وأرضنا التى تركناها فى الهند والتى إستطاعت من زراعة تلك الأرض أن تعلمنى وتخلق منى رجلا إلا أننى لم أنسى ما حدث مما جعلنى ناقما على كل شىء لذا عندما أنهيت دراستى الجامعية عزمت على السفر،ذلك السفر التى كانت تراه أمى فى عيونى كل يوم،وباتت تشعر به فى تصرفاتى وتأكد شعورها عندما رأت اوراق إستخراج تأشيرة السفر فى خزانتى،لا أدرى لماذا؟!ولكننى كنت أظن أن جميع أحلامى تنتظرنى على الناحية الأخرى من العالم باسطة ذراعيها لى،إلا أن والدتى لم ترى هذا مطلقا لذا نصبت لى مكيدة تحول دون سفرى فقد أصرت على زواجى من أحد فتيات القرية ،ورغم ثورتى ورفضى للزواج بشكل عام ومن هذه الفتاة بشكل خاص فكيف لى أن أتزوج فتاة قروية وأنا ذالك الشاب الجامعى المثقف؟! إلا أننى فى النهاية رخضت خوف على حياة أمى التى كانت تعانى من مرض فى القلب،ولكننى لم أرض بهذه الفتاه مطلقا زوجة لى،وكنت أعاملها أسوء معاملة إلا أنها لم تغضب يوما كانت تحزن حزنا شديدا دون أن تبين ذلك ومرت سنتين على زواجنا كانت هى من تتحمل كل مسئوليات البيت والأرض ولولاها فى هذه الفترة لكان إهمالى ضيع كل شىء ولكن هذا لم يشفع لها فظلت معاملتى السيئة لها حتى أن والدتى بدأت تعاملها بطريقة سيئة بسبب تأخر الإنجاب وكما يحدث دائما أن عدم الإنجاب تتهم فيه المرأة فالرجل لا يمكن أن يكون هو السبب،إلا أنها كانت تتحمل كل شىء راضية،وعندما أصرت أمى على أن نذهب إلى الطبيب لكى نعلم ما السبب فى تأخر الإنجاب،وكنت أنا السبب،وهذا جرح رجولتى كليا،مما جعل معاملتى لها

تزداد سوء،ولكن أخلاقها كانت جميلة إلى درجة أنها كذبت أمام أمى وقالت أنها السبب ،هذا أراحنى بعض الشىء ولكنه زاد من مأساتها فقد قررت أمى أن تزوجنى مرة أخرى،ولكن صحتها تدهورت قبل أن تفعل ذلك وعندما إقترب منها الموت أجلستنى بجوارها وقالت لى كلام يرن فى أذنى حتى الآن،فقد قالت لى:أعلم يا بنى أنك تريد السفر وترك وطنك،وأنا أجبرتك على البقاء بجوارى،كنت فقط أحميك من نفسك،لكننى أراه حتى الآن فى عينيك،ولا حيلة لى فى منعك الآن ولكننى أريد أن أقول لك شىء سيظل الوطن جميل رغم قسوته،ستظل الغربة قاسية رغم جمالها،فلا وطن فى الغربة ولا غربة فى الوطن.كان هذا آخر كلام قالته لى ثم فارقت الحياة.

وقتها لم أفهم كلامها ولكننى فهمته الآن.

و بعد وفاتها بشهر واحد فقط قررت السفر إن أمى من كانت تربطنى بهذا البلد ولكنها ماتت الآن ومات معها كل شىء فقمت ببيع كل شىء البيت والأرض،وكنت أنوى أن أطلق زوجتى ولكنها رفضت الطلاق فقد قلت لها:إننى أريد أن أحررك من هذا الحبل الذى لف حول عنقك،أنت إمرأة طيبة ولا أريد أن أستمر فى ظلمك

فقالت لى:ما تراه حبلا أراه عقدا من الماس ، ،وما تراه ظلما منك أراه منك عدلا فلولا تزوجتنى أنت ما كان لاحد أن يتزوج فتاة فقيرا مثلى

فقولت لها:إننى لا أنجب وأنت من حقك أن تكونى أم.

-وما فائدة الإنجاب إذا لم يكن من الرجل الذى أحببته.

-أتحبيننى

-بل لا أقوى على العيش بدونك.

لا أدرى لماذا وقتها رأيت أمى فى وجهها هذا الأمر جعلنى أقبلها زوجتى التى لا أريد أحدا غيرها لتشاركنى هذه الحياة نقتسم سويا الأفراح والأحزان أحيانا

يابنتى نعتقد أننا لسنا بحاجة إلى الحب وأننا نستطيع أن نمضى حياتنا دون رفقة نعتقد أن الحب ما هو إلا مسمى شديد الرقة لشهواتنا وغرائزنا ولكن شخصا واحد يظهر فى حياتنا رغم عنا يغير مفاهيمنا ويجعلنا ندرك أن الحياة قبل الحب ماهى سوى لوحه باهتة مرسومة بالقلم الرصاص والحب هو اللون الذى يبعث فيها البهجة والحياة،هذا الشخص هو زوجتى.

ثم جئنا إلى أمريكا التى كانت فى نظرى وجهة أحلامى والمصباح السحرى الذى سيجعلنى أملك العالم،كنت كالشباب فى مثل سنى الذين كانوا يعتقدون أن السفر هو الحل لجميع مشاكلهم هو الخزنة التى ستفتح من تلقاء نفسها لهم ولكننى كنت الأكثر حظا من بينهم فأنا لم أعانى الموت فى قارب متهاكل وسط أمواج البحار،وإما أكون طعاما للاسماك المفترسة أو ألقى على الرصيف مشردا بلا مأوى أخاف أن تقبض على الشرطة وتقوم بترحيلى مرة أخرى وكأننى أحد صناديق القمامة التى يريدون التخلص منها فانا أتيت بمالى معززا مكرما ولكننى عانيت مصيرهم جميعا فى البحث عن العمل فلم يفت الكثير من الوقت حتى إقتربت نقودى من النفاذ وخاصة بعدما أشتريت شقة فى حى راقا ظنا منى أن بهذا أصبحت من الأثرياء،ولكننى كنت مخطئا فبعد البحث عن العمل فى كل مكان لم أجد ذلك العمل الذى كنت أحلم به لذا بدأت أحلامى فى التلاشى وبفعل الحاجة حتى لا نتشرد أنا وزوجتى عملت كنادلا فى مطعم ثم موزعا للجرائد،وشهادتى التى تباهيت بها أمام أمى وتعاليت بها على زراعة الأرض لم تساوى شيئا فى هذه البلد وبعدما كنت أمتلك بيتا وأرضا فى بلادى أصبحت خادما فى هذا البلد،حتى كما أننى أغلقت جميع طرق العودة إلى بلادى مرة أخرى ببيعى كل أرضى وبيتى وبعدما كاد أن يتملكنى اليأس أرسل الله على رحمته فقد وجدت فى العمارة التى أسكن بها محل قديم كان يريد صاحب العمارة أن يأجره فإتخذته وفتحته

محلا للإدوات المنزلية،ثم محلا للإلكترونيات منذ فترة قريبه إستقرت حياتنا بعض الشيء وبعد خمسة عشر عاما حملت زوجتى كدت أجن من الفرحة فقد أوشكت أن أفقد الأمل فى الإنجاب ثم جاءت"هينا"وخطبت قلبى بالفرحة فقد كانت فعلا مثل الحناء التى لونت حياتى،كنت معها أعيش طفولتى مرة أخرى أراها تكبر أمام عينى يوما بعد يوم ويكبر حبى لها يوما بعد يوم ولكنها بعد وفاة والدتها تغيرت وأصبحت لا أعرفها إنها ليست أبنتى التى قمت بتربيتها أنها شخص آخر غير هينا،منذ فترة وكنت الاحظ بعض التصرفات الغريبة عليها كانت تعود متاخرة إلى المنزل إلى ان عادت البارحة إلى المنزل سكرة فى سيارة شاب غريب وعندما سألتها من هذا الشاب؟!

قالت لى: أنه حبيبها.

كدت أن أنفجر من الغضب فقمت بصفعها

فنعتنى بالمتخلف والرجعى وهددتى أنها ستبلغ عنى الشرطة إذا فكرت فى صفعها مرة أخرى.

أتدرين يا ماريا أن الألم الذى شعرت به طيلة حياتى لا يضاهى الألم الذى شعرت به ليلة البارحة،البارحة شعرت بقصمة ظهرى،البارحة عدت غريبا مشردا،البارحة فهمت مقصد أمى "إن الوطن جميل مهما كانت قسوته والغربة قاسية مهما كان جمالها،إننى المخطأ يابنتى فإن زرعت نبته فى غير أرضها فإما أن تذبل وتموت وإما أن تتأقلم مع مناخها الجديد وهذا ما فعلته إبنتى فكيف لها أن تتربى وسط الأمركيين دون أن تصير منهم.

عادت ماريا إلى المنزل بكثير من الخيبة فالعم إقبال به الكثير من الهموم التى تتخذ حيزا متسعا فى قلبه،تركته وهو ينازل العبرات بكل شراسة يقتلهم فى مهدهم قبل أن يتساقطوا على وجنتيه كاشفين كم الضعف الذى يشعر به،لم ترد أن تزيد همومه هربت من أمامه دون حتى أن تواسيه كان الأمر أكبر

من أن تقول له كلمتين عابرتين،أرادت له أن يكف عن محاربة دموعه فليجعلها تتساقط وتتساقط عسى أن تتساقط معها بعض همومه، سمعت كثيرا عن قهر الرجال ولكنها الآن رأته بأم عينيها رجل عجوز منكسر أدرك للحظة أن كل ما فعله خاطئ،هل يوجد قهر أكثر من هذا ؟ لا تدرى لماذا شعرت للحظة أن هذا الرجل أبيها وهى تلك الفتاة التى جعلته يشعر بكل هذا العجز،فزعت لهذا التفكير تمنت أن تموت قبل أن تسسب لابيها هذا الألم.

اخرج ماريا عن تفكيرها صوت على ينادى عليها من خلف الباب،وعندما فتحت له قال لها: أغمضى عينك.

أرجو ألا تكون خدعة من خدعك

ربما..لكنك ستحبين هذه الخدعة حتما

حسنا إذا

والآن إفتحى عينيك

بعدما فتحت ماريا عينيها وجدت على ممسكا بدرع

قالت له ما هذا؟

إنه درع التفوق العلمى،فقد ظهرت نتيجتى وحزت على المركز الأول على مستوى المدرسة،كنت أريدك أن تحضرى الحفل لكنك كنت فى بافلو؟

تفاجأت ماريا لرؤيتها هذا الدرع لم يكن الأمر غريبا على أخيها حيث أنه كان دائما متفوقا فى دراسته يحصل دائما على الدرجات النهائية فى جميع المواد الأمر الذى جعله مشهورا بعبقريته فى مدرسته بمصر ولكنها كانت تظن أن معدل ذكاء الأمريكيون كبيرا جدا وليس من السهل إختراقه إلا ان على أثبت لها العكس فلم يتفوق على المصريين فقط بل على الامريكين أيضا أنه لمدعاة للفخر

هتفت ماريا فى فرحا جما:كيف فعلت هذا

جلس على على الكرسى واضعا قدم على قدم وهو يقول:لم يكن الأمر صعبا على،أنت تعلمين جيدا أننى عبقرى

حسنا أيها العبقرى،أعلم جيدا أنك تستطيع التفوق على أيا كان،لكن كيف حدث هذا؟

إنها الإرادة..أتدرين يا ماريا هؤلاء الفتيان التى حدثتك عن مضايقتهم لى؟

أؤمت ماريا برأسها

هؤلاء المتنمرون لم يكفوا عن مضايقتى وذات مرة وهم يرمونى بكلام كالسهام قال أحدهم:لا أدرى كيف لهذا الولد أن يدرس معنا بالتأكيد إعاقته ليست جسدية فقط بل عقلية أيضا ونحن على قدر عال من الذكاء

فرد أحدهم عليه وهو يضحك:ليس بحاجة إلى إعاقة عقلية ليكون غبى،يكفى انه عربى

لا أستطيع أن أصف لك شعور الألم الذى شعرت به وقتها إنه الألم الذى يجعل الدموع تتحجر فى العين،ومنذ هذه الحادثة أردت أن أريهم كيف لهذا العربى الغبى أن يتفوق عليهم جميعا وقد وفقنى الله فى ذلك لكننى لم أشعر بالسعادة لتفوقى بقدر ما شعرت بها عندما رأيت الدهشة على وجوههم عندما وقفت المدرسة كلها بما فيها هم تحية لهذا العربى الذى يستلم جائزة التفوق العلمى.

أتدرى يا على أنك أحدى أسباب سعادتى المطلقة

نظر على إليها بتعالى ثم قال:نعم أعلم ذلك

ضحكت ماريا وهى تقول:ألن يأتى اليوم الذى تتحدث فيه معى بجدية هل جننت لأفعل ذلك

تظاهرت ماريا بأنها ستصفعه وبعدما أنكمش قامت بحضنه بقوة ثم قالت له:الآن إستعدت قوتى يمكننى الآن أن أغزو العالم

حسنا قبل أن تغزوى العالم هل تقبلى يا أميرتى هذه الوردة منى.

أمسكت ماريا الوردة من أخيها ثم شردت بذهنها قليلا،ثم هتفت بفرح:ألم أقل لك أنك إحدى أسباب سعادتى المطلقة.

(١٤)
صاحب البيت

فى أحدى المستشفيات القابعة فى إحدى ضواحى مدينة نيويورك ذهبت ماريا مترددة الخطى لا تدرك العواقب التى سيئول له تصرفها هذا ممسكة بباقة ورد أقل ما توصف به باقة الورد هذه أنها خلابة،فذهبت إلى الإستقبال لتسأل عن غرفة السيدة كاترين زوجة السيدة دنيال

فأجابها موظف الإستقبال: السيدة كاثرين محجوزة فى غرفة رقم ثلاثة الدور الثالث

ذهبت ماريا إلى المصعد وضغطت بإصبعها على رز الدور الثالث لتصل إلى غرفة السيدة كاترين وبعدما وصلت وجدت باب الغرفة مفتوحا بعض الشىء فنظرة خلسة داخل الغرفة فوجدت السيدة كاترين راقدة على سريرها وبجوارها رجلا يبدو أنه السيد دنيال تمالكت نفسها ثم أخذت نفسا عميقا وأمدت قدمها لكى تدخل ولكن خانتها قدمها فركضت مبتعدة عن الغرفة،وبأنفاس متلاحقة جلست على أريكة بالمشفى لتلتقط أنفاسها المتلاحقة حيث أنها دون أن تدرى ألتهمت سلالم الأدوار الثلاثة،حاولت أن ترتب أفكارها وتستعيد رابطة جأشها،لا تدرى ما الذى جعلها تفر بهذه الطريقة دون أن تقابلهما ألم تأتى إلى هنا لهذا الهدف إذا ماذا حدث؟!ربما أدركت أن ما تفعله سيزيد تعقيد المشكلة لا يحلها فالمشكلة أكبر بكثير من زيارة حتى لو كانت هذه الزيارة بغرض طيب،هذه العائلة مفطورة الفؤاد غارقة فى الاحزان رجل خسر إبنته الوحيدة واصيبت زوجته بشلل إثر صدمتها على إبنتها حتى بيته أضطر لبيعه لأجل علاج زوجته ويظن أن كل ما حدث بسبب المسلمين،ربما إذا دخلت عليه الغرفة لقام بطردها أو لظن أنها

إرهابية جاءت لقتله ربما باقة الورد هذه بها قنبلة يكفيه فقط نظرة إلى مظهرها ليظن ذلك كله،إن الحجاب الذى فوق رأسها هو الجريمة التى تتجول بها فى نظره ،لا تدرى لما تلك النظرة المتطرفة للحجاب إذا كانت الدول الأجنبية تدعو إلى الحرية فى كل شىء فلماذا إذا لا يكون الحجاب من ضمن هذه الحريات؟! إذا كانت هناك حرية للعرى فلماذا لا يكون هناك حرية للإحتشام؟!

لكنها تعلم جيدا أن السيد دانيال لن يفهم هذا الآن فهو كالأسد الجريح لا يؤمن شره، إستسلمت ماريا لهذه الأفكار فقررت الذهاب من هنا دون أن تفعل ما جاءت لإجله فأمسكت بباقة الورد وإتجهت ناحية باب الخروج إلا أنها توقفت فى مكانها فأجأة فقد لمعت فى ذهنها فكرة جيده لذا تجولت ببصرها فى أرجاء المشفى كأنها تبحث عن شىء ما،إلى أن وجدت ممرضة سمراء البشرة يبدو أنها من أصول أفريقية، فإستوقفتها وهى تقول:لو سمحتى آنستى

فأدارت وجهها لها وهى تقول :أتقصدينى أنا

نعم

ماذا تريدين؟

أريد منك خدمة،أرجو أن توافقى عليها

لا بأس إن كان بوسعى هذا

أريد منك أن تأخذى باقة الورد هذه وتعطيها للمريضة الموجودة فى الغرفة رقم ثلاثة الدور الثالث

نظرت الممرضة إلى ماريا بنظرة مليئة بالريبة وهذا الأمر جعل ماريا تبادرها قائلة:لا تقلقتى آنستى هذه الباقة لا يوجد بها سوى الورود

إبتسمت الممرضة،ثم قالت:أتقصدين غرفة السيدة كاترين والسيد دانيال

أتعرفينهما؟!

ومن بالمشفى لا يعرفهما،فالسيد دنيال رجل شاعرى يكن حبا جم لزوجته منذ أن أتى إلى هنا لم يجعل لأى ممرضة أن تخدم زوجته فهو من يقوم بخدمتها يصفف لها شعرها يضع لها المكياج بنفسه ولا يتركها أبدا سواء بالليل أو النهارة،لكن يبدو أن هذان الزوجين لهما الكثير من المحبين؟

ماذا تقصدين؟

سأقول لك سرا أرجو ألا تخبرى أحدا به..وضع سيد دانيال مبلغا من المال فى خزينة المشفى وهذا المبلغ لم يكفى للإقامة بالمشفى سوى لشهر فقط ،إلا أن هناك شابا يأتى لهما كل أسبوع يتفقدهما من بعيد ثم يضع فى خزينة المشفى مبلغا كبيرا من المال وطلب الأ يخبر أحد السيد دنيال بذلك وحتى الآن لا يمر أسبوع إلا جاء ليطمئن عليهما ويجلب ما تحتاجة السيدة كاترين من علاج ويذهب دون أن يخبر أحدا بذلك والسيد دانيال يعتقد حتى الآن أن كل هذا من المبلغ الذى وضعه فى خزينه المشفى.

هتفت ماريا فى راحة:يبدو أن الخير لم يخلو من هذا العالم بعد

نظرت ماريا إلى الممرضة وهى تقول:أتسدين لى هذه المعروف

نعم بكل سرور.

إبتعدت الممرضة خطوات قليلة فناديت عليها ماريا قائلة:هل من الممكن أن تسدينى معروفا أخر.

فإلتفتت لها وهى تقول:أعلم ذلك لن أخبرهما من الذى بعث هذه الورود

إبتسمت ماريا لكلامها فقد شعرت براحة غريبة وخاصة عندما علمت أن هناك من يساعد هذه العائلة

***

دخلت الممرضة غرفة السيدة كاترين راسمة إبتسامة رقيقة على شفتيها ثم قالت:صباح الخير سيد وسيدة دانيال

فرد السيد دانيال لها التحيه

كيف حالك الآن:سيدة كاترين

فنظرت إليها نظرة توحى أنها بخير فالشلل لم يصب قدمها فقط بل لسانها أيضا

إقتربت الممرضة من المزهرية لتضع باقة الورد بها،فلاحظها السيد دانيال الذى تسآل فى إستغراب:ممن هذه الورود؟!

لا أدرى،كل ما فى الأمر أن فتاة جميلة فى مقتبل العشرينيات طلبت منى أن أعطى هذه الزهور لكما،دون أن تفصح عن هويتها.

تفقد السيد جون هذه الزهور وهو يهتف بدهشة:هذا غريب جدا

فقالت الممرضة ما الغريب سيد دنيال

هذه الورود هى نفس أنواع الورود التى كنت أزرعها فى حديقة منزلى،ثم إقترب من السيدة كاثرين وقال لها:إشتمها هكذا،إنها تحمل عبق الذكريات،أعلم أن ملمسم جميع الورود رقيق لكن تصبح الورود أشد رقة بين يدى من زرعها،حتى وإن قام بقطفها،أشعر أننى من قام بزراعة هذه الورود

يبدو أنك إشتقت لحديقتك

بل إشتقت لكل شىء

بعدما خرجت الممرضة فقال محدثا السيدة كاترين:أتدرين ما الأغرب من إحساسى هذا، هو كيف لهذه الفتاة أن تعرف انواع الورود المفضلة لدينا؟!يبدو أن هذه الفتاة تعرفنا جيدا،ولكن السؤال الذى يحيرنى من هذه الفتاة؟!وكيف لها أن تعرفنا إلى هذا الحد؟لكن أيا من تكون يبدو أنها فتاة طيبة. لقد دخلت قلبى دون أن أراها،ولا أدرى لماذا ولكننى عندما فكرت بها جاءت فى مخيلتى صورة إبنتنا؟

***

إنتظرت ماريا المرضة لتحكى لها ما ردة فعلهما عندما أدخلت لهما باقة الورود فقالت لها :لقد أحباها كثيرا حتى أن السيد دنيال تذكر الورود التى كان يزرعها فى حديقته، شعرت ماريا بسعادة غامرة لسماعها هذا الكلام لذا خرجت من المشفى وهى منتصرة بعض الشىء فقد أدخلت عليهما جزء من السعادة.

وبعد ذلك عادت إلى بيتها فوجدت والدها وعلى يجلسا فى الحديقة مع رجل غريب فلم تلاحظ ملامحة لانه كان لا يجلس فى إتجاهها،حاولت أن ترى وجهه دون جدوى، فإقتربت منهم وهى تشاور لعلى بيدها بحركة معناها من هذا؟!

فقام على من بينهما وذهب نحو ماريا وهو يقول فى غضب:الى أين ذهبت منذ الصباح الباكر؟

دعنا من هذا وقل لى من هذا الرجل؟!

إنه الطبيب

هتفت ماريا فى فرح الطبيب،منذ أن أخبرتنى أمى بالذى فعله معك وأنا أود رؤيته.

فتركت على وأسرعت نحوه فى حماس،ثم ألقت التحية،وقالت:لا أدرى كيف أشكرك..وفاجئة صمتت فى صدمة عندما إلتفت إليها فإختفت الإبتسامة من شفتيها ووقفت الكلمات فى حلقها وهتفت فى نفسها:يا إلهى دكتور عبد الرحمن،ثم إزدردت ريقها بصعوبة،فقد كانت تخشى أن يذكر أمام والدها تلك الحادثة والتى أخفتها عن كل عائلتها لم يكن الدكتور عبد الرحمن أقل إندهاشا من ماريا ولكنه حاول عدم الإنفعال أمام أبيها وأخيها الصغير حيث أنه لم يتوقع مطلقا أن يراها هنا،كان يعلم أن القدر سيمنحه فرصة أخرى لرؤيتها فلقائهما الأول لم يكن عابرا بل كان مقدرا ولكن هنا؟!قطع شرودهما صوت والدتها التى كانت تنادى على والدها فهناك إتصالا له ثم بعدها ببضع ثوانى ذهب على الى المرحاض لتظل بمفردها معه.

فقالت ماريا بإمتنان:لا أدرى كيف أشكرك فما فعلته كان كبيرا جدا،يكفى السعادة التى أرها فى عيون والداى عندما يريان على يركض أمامهما

أنا لم أفعل شىء فقط توفيق الله و إرادة على.

هذا تواضع منك

بل الحقيقة

صمتا قليلا،ثم قالت ماريا: الغريب فى الموضوع أننى كنت أظنك تسكن فى بافلو

نعم أنا أسكن هناك

لكن كيف إذا إلتقيت بعائلتى؟!

فقال لها فى حزن وهو ينظر إليها:كنت فقط أبحث عن الماضى فإصطدمت بالمستقبل

ماذا تقصد؟!

أقصد أنى أتيت إلى مدينة نيويورك لزيارة صديقا لى يسكن فى هذه المنطقة عندما رأيت أخيك بحديقة منزلكم،وربما لم تكن صدفة إنما قدر لى أن ألقاه حتى نلتقى مرة أخرى.

نظرت ماريا إلى الدكتور عبد الرحمن بعينين مليئتين بالأسئلة،كانت تريد أن تقول له :هل كنت تريد أن ترانى مرة أخرى؟!هل أعنى لك شيء أم أننى بالنسبة لك مجرد فتاة كانت تريد المساعدة وأنت شاب شهم قمت بمساعدتها؟!الكثير والكثير من الأسئلة لكن الأجابات تختبأ فى عينية،فأشاحت ماريا بنظرها وكأنها سئمت أسئلتها التى تسأل دون جدوى.

وعندما رأت والدها يأتى ناحيتهما أستأذنت دكتور عبد الرحمن،وقبل أن تذهب قالت له :أرجو ما حدث فى تلك الليلة يظل سرنا بيننا.

أومأ الدكتور عبد الرحمن رأسه علامة الموافقة

***

إنقلبت حياة دكتور عبد الرحمن منذ رؤيته لماريا فى المرة الأولى فحياته الروتينية المملة التى يغلب عليها اللون الأسود إزدانت بالالوان فقد كان كالخفاش يخشى النور ويقدس الظلام،لا متعة له فى الحياة لولا أنه يخشى الله ولا يريد أن يغضبه لكان أقدم على الإنتحار منذ زمن لذا كرس حياته لمرضاه ومساعدة الآخرين، فإن كانت حياته ليست مهمة بالنسبة له فلعله ينقذ حياة أحدهم ،فيشعر بالسلام حينما يشفى مريض،ينشرح صدره حينما يرى إبتسامة أحدهم،كانت كل حياته عيادته وبيته زهد كل الأماكن والخروج بمعنى أصح زهد الحياة ولكن منذ أن إلتقى بماريا أصبح يميل إلى الحياة مرة أخرى،بدء قلبه يدق ومشاعره المحبوسة تحطم قطبان سجنها وتنطلق فى

حرية وجموح أصبح كل شىء جميل،ولما لا فكل شىء يصبح جميل عندما نحب،وعندما تركته وذهبت حتى دون أن تنظر إلى الوراء شعر بغصة عالقة فى فؤاده فأصبح يبحث عنها فى كل مكان ويدعو الله ألا يلقاها كان يطوق لرؤيتها يدعو الله ألا يراها فقد كان قلبه يطير فرحا ولكن عقله يشعره بالذنب وهو هالكا بين الأثنين.

دكتور عبد الرحمن!

أنتبه دكتور عبد الرحمن لصوت كريستين بصعوبه

ما كل هذا الشرود

لم أكن شاردا بل عالقا فى مكان ما

منذ أن عدت من نيويورك وأنت على هذا الحال،ألن تخبرنى ماذا حدث؟!

لقد قابلت ماريا

يا لها من أخبار سعيدة

هذا الحماس الذى أراه فى عينك كلما تحدثنا عن ماريا يجعلنى أشك أنك أنت من وقعتى فى غرامها وليس أنا

هتفت كريستين فى فرحة عارمة ليس ماذا؟؟!!

أقصد....

لقد خانك لسانك أخيرا وإعترفت،لقد هرمت حتى أسمع هذا الإعتراف

إبتسم دكتور عبد الرحمن،ثم قال :إهدئى يا كريستين

وكيف لى أن أهدء وأخى فتح قلبه للحب مرة أخرى

وما الجدوى من الحب إذا صامتا

إذا كان الله قد فتح قلبك للحب،فلابد أن يحل عقدة لسانك فتفصح عما فى قلبك.

الأمر إزداد تعقيد يا كرستين.

لا.. لا أريد أن أسمع شيئا يفسد سعادتى

كريستين إنتظرى،أريد أن أقول لك شيئا خطير

لا لن أستمع دعنى أستمتع بما قولته اليوم دون أن تعكر صفوه، عش اللحظة يا سيدى كما هى أحيانا كثرة التفكير يفسد السعادة،ثم خرجت راكضة من مكتبه دون أن تستمع لشىء

وضع دكتور عبد الرحمن رأسه على كرسى الى الخلف ثم قال فى إستسلام:أنت لا تعرفين شيئا يا كريستين ولم تنتظرى حتى أخبرك.

أغمض دكتور عبد الرحمن عينيه برهتة ليغوص فى أفكارا بعيدة كم هو أحوج الأن إلى والدته ليخبرها عما يختلج فى قلبه كما هو بحاجة إلى حضنها ليرتمى فيه بكل همومه ويحتمى به من قسوة الحياة كم هو بحاجة إلى وضع رأسه على قدميها لتغنى له تهويدة جميله تزيل عنه آلمه بحاجة إلى لمسة يديها السحرية التى عندما توضع على رأسه يشعر أنه وردة داعبتها قطرات ندى الصباح،كم يتمنى أن يعود طفلا صغيرا يلعب فى شوارع بغداد تلك الشوارع الجميلة القاسية تلك الشوارع التى كانت شاهدة على الأفراح والأحزان على ولادة الأشخاص وموتهم تلك الشوارع الوفية الخائنة التى تلطخت بدماء والده الطاهرة وتركت المجرمون يختبئون بداخلها،حتى المجرمون لم يكونوا بالغرباء،ربما لهذا السبب جعلتهم يهربون من خلال زقاقها بعدما طعنوا أبيه العديد من الطعنات التى أودت بحياته ليترك ورأءه زوجة شابه وولد لم يكمل عامه السادس بعد،ففى إحدى الليالى شديدة القسوة كما كانت تطلق عليها والدته وإستمرارا للحروب التى قامت منذ قديم الأزل بين السنة والشيعة قامت مجموعة من الشيعة بتدمير بعض محلات المسلمين من أهل السنة وقتل أصحابها بوحشية شديدة،فى هذه

اللحظة كان أبيه خارجا من عيادته عائدا إلى البيت عندما فوجىء ببعض الملثمين يطعننوه فى كل مكان فسقط قتيلا لم يعرف وقتها من هم إلا بعد أن قال أحدهم:سنقضى على أهل السنة جميعا،فعلم أنهم شيعة لقد قتلوا الطبيب الذى كان يعالج جميع المرضى دون أن يسألهم إلى أى ملة تنتمون فما كان يهمه هو إنقاذ حياة إنسان.لم ينسى مطلقا شكل أمه عندما سمعت هذا الخبر ،كانت مثل الشمعة التى تذوب أمام عينه،كالطائر الجريح الذى أصيب بطلق نارى وهو يرفر فى ملكوت الخالق فأخذ يتهاوى رويدا رويدا إلى أن إحتضنته الأرض وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة،لكنها حاولت تمالك نفسها أمام طفلها،لم ترد أن تصيبه بالذعر، لذا قالت له بثبات لا ينتج سوى عن إمرأة قوية مؤمنة بقضاء الله:جهز نفسك يا بنى فوالدك بالمشفى لقد أصيب فى حادث،فذهبوا إلى المشفى ليجدو والده غارقا فى دمائه،فقالت له والدتى فى زعر،من الذى فعل بك هذا.

فقال لها: بعض من الشيعة

وقتها لم تستطع والدته تحمل رؤية زوجها بهذه الحاله،فسقطت على الأرض مغشيا عليها فأعطاها الطبيب حقنة مهدئة وعندما أفاقت كان أبى قد فارق الحياة ،ومنذ ذلك الحين وأصبح اللون الأسود لون والدته المفضل عندما إرتدته شعر أن بغداد كلها إتشحت بالسواد فلم يعد شيئا كما كان كما لو أن المغول قاموا بغزوها مرة أخرى.

تذكر دكتور عبد الرحمن أيضا أبياتا لنيزار قبانى فى وصف بغداد كان يرددها والده ومن بعده والدته كثيرا:

مد بساطك وإملئ أكوابى
وانس العتاب فقد نسيت عتابى
عيناك يا بغداد منذ طفولتى

شمسان نائمتان فى أهدابى

تنفس الصعداء بعد إلقاءه لهذه القصيدة بكل حرارة لجمهور مكون من شخص واجد هو نفسه،ولكنه إرتعش فأجأه عندما تذكر كلام والدته عندما أجلسته بجوارها فى ذكرى وفاة أبيه العاشرة فقد قالت له كلاما قاله أبيه قبل وفاته بيوم واحد،حيث قال لها:إننى أواجه الموت كل يوم أراه محاوطا مرضاى،يتلاعب بهم أثناء إجرائى لعمليات جراحية لهم وعلى الرغم من ذلك فأننى أخاف الموت كثيرا ولا أصدق من يقول أنه لا يخافه لو صدقته لأجزمت أنه شخص غير سوى،أخاف وحشة القبرة وظلامه،يرتعش قلبى عندما أفكر،أننى فى يوم من الأيام سأدفن فى حفرة وحيدا عاريا تركت كل شىء ورائى أو تركنى كل شىء وراءه،أخافه ليس لأننى متمسكا بالحياة بل أخاف أن أموت على معصية غاضبا الله على ولكنه الموت سيأتى لنا لا محالة إنه الحقيقة الوحيد اليقينية ولكن لدى أمنية وحيدة أطلبها من الله أن يأتينى الموت وانا واقف على قدماى وليس ممددا على سرير بعدما وقعت فريسة للمرض لابد أن يأتى لى فاجاة بحيث يتعجب أصدقائى قائلين: بأنه كان يشرب معنا القهوة اليوم فكيف له أن يموت.

ويقول الجيران ضاربين كفا بكف: أنه كان بصحة جيدة كيف له أن يموت ،أريد لموتى أن يكون مفاجأة لا أريد ذلك الموت المذل بسبب المرض لا اريد أن اموت بالبطىء لدرجة أن يتمنى أحبابى موتى ليس لاراحتى فقط بل لاراحتهم منى ايضا.

لقد مات يابنى كما كان يريد كان لموته مفاجأة كبيرة مفاجأة هزت كيانى فالموت يا بنى هو ذلك المفاجأه المتوقعة والصدمة المعروفه الموت أشبه بشخص يختئب واراء الباب لكى يخرج لك فأجاة ويصيبك بالذعر ولكنك

تعلم أن هناك شخص مختبأ واراء الباب ومع ذلك عندما يخرج لك بحركة مفاجأة تصاب بالذعر.

لكنك يا بنى عوض من الله لى فأنت تشبه أبيك كثيرا لولاك لقتلنى الحزن منذ زمن.

إغرورقت عيناى الدكتور عبد الرحمن لتذكره هذا الكلام فمنذ أن مات والده واصبحت والدته كل شيء بالنسبة له هى عالمه الصغير الذى نشأ فيه ومن خلالها كان يرى العالم الكبير وينظر إلى الأشياء بعيونها،ففى بلادنا العربية عندما يموت الرجل فإن لم تتحول المرأة إلى رجل لماتت جميع الرجال لأجله تركت العالم كله وكرست حياتها لتجعله رجلا صالحا يؤمن بقانون الأنسانية لا يزلف قلبه إلى الإنتقام أو الضغينة علمته أن الحياة ماهى إلا رحلة تصل بنا إلى وجهتنا فى هذه الرحلة يوجد طريقين أحدهما طريق الله والآخر طريق الشيطان ونحن من نختار أى الطرقين نسلك وعلى إختيارنا تكون وجهتنا،وطريق الله لا وسيلة له سوى الحب ونبذ العنصرية والكره إن البشر عند الله متساون لا فضل لاحدا على أحد إلا بالتقوى والتقوى معناها البعد عن كل ما يغضب الله وأكثر ما يغضب الله هو إيذاء عباده وأكثر ما يحبه الله هو مساعدة عباده والأخذ بيدهم وإعانتهم على قسوة الحياة، لذا قالت له :أسلك طريق الله يابنى كما فعل أبيك،ساعد كل من يحتاج إليك دون النظر إلى لونه أو جنسه دون أن تنظر إلى يده لتجد صليبا أو إلى وجهه لتجد لحية ساعد الإنسان لانه إنسان تقع معه تحت سقف هذا العالم تتنفس معه نفس الهواء وتشرق لأجلكما نفس الشمس وتحضنكما نفس الأرض ويحاسبكما نفس الأله.

لم ينسى مطلقا كلام والدته بل نفذه كله فقد أحبها كثيرا وكان يريد أن يعوضها عن كل ما عانته فى حياتها لذا ودون أن توجهه إليه أى شىء أراد أن يكون طبيب حتى يحقق حلمها التى لم تفصح عنه مطلقا فقد أرادت أن يكون ما يريد أن يكون دون أن تفرض عليه أى شىء،وعندما نجح فى الثانوية ورزقه الله بمجموع عالى وعلمت أن رغبته بأن يصير طبيب لم يراها بهذه السعادة من قبل فدخلت غرفتها وعندما خرجت كانت تضع يدها خلف ظهرها كأنها تخبأ شيئا ما

فسألها بكل فضول:ما هذا يا أمى

فقالت له :إعطنى ظهرك أولا.

ففعل كما أرادت،فألبسته شيئا ما فكان معطفا أبيض

فقالت له هذا يا بنى أول معطف إشتراه أبيك بعدما إفتتح عياده كان يحبه كثيرا لذا حافظت عليه فإذا تحققت أمنيتى وأردت أن تصبح طبيبا فستكون هذه هديتى لك.

إغرورقت عيناه بالدموع،وقال لها:أتمنى ألا أخذلك أبدا يا أمى.

لن تفعل أبدا،فأنت جئت من صلب رجل صالح.

قضى عامه الأول فى كلية الطب جامعة المستنصر بتفوق،مما نتج عنه حصوله على منحة من أمريكا لأستكمل دراسة الطب فى جامعة نيويورك،وقتها تردد فى قبول هذه المنحة فكيف له أن يترك والدته بمفردها؟! ولكنها رحبت جدا بالموضوع وقالت له: أنها فرصة جيدة لا تضيعها وفعلا سافر أمريكا وترك بغداد وهو قلقا على والدته وتوالت السنين وأنهى دراسته وقرر العودة إلى بغداد بعدما يتزوج ستيلا إلا أنه عرض علية العمل فى أحدى المستشفيات الكبيرة الموجودة فى بافلو، حيث أن أحد أساتذته فى كلية الطب كا مديرا لمشفى كبير فى بافلو ولانه يعلم كم هو طبيب جيد عرض عليه هذا

العمل بعدما أنهى دراسته بتفوق ولكنه رفض هذا العمل حتى يعود إلى والدته ولكنه عندما أخبرها بهذا العرض أصرت على بقائه فى أمريكا، لا لأجل العمل بل لحاجة فى نفس يعقوب فقد كانت خائفة عليه فالاحوال السياسية فى العراق تزداد سوءا فالأفضل لها أن تراه بعيدا عنها ولكنه بخير ولا يكون بقربها فيصيبه مكروه فهى لن تقوى على الشرب من نفس الكائس مرة أخرى،فطلب منها أن تأتى لتعيش معه.

إلا أنها قالت له جملة لن ينساها طوال عمره،فقد قالت له:كيف أقوى يا بنى على تنفس هواءا لا توجد به رائحة أبيك.

هذه الجملة لجمت لسانه فلم يستطع الضعط عليها،فقال لها:إفعلى ما يريحك يا أمى.

ما يريحنى أن تكون سعيدا معافا أينما كنت.

وقتها كان واقعا فى حب ستيلا ولكنه خاف أن يخبر والدته بهذا الحب فتغضب منه وخاصة أن والدا ستيلا لم يوافقا على إرتباطهما،ولكنهما عندما وافقا لم يجد مفرا من إخبارها،ولكنه أخبر ستيلا قبل أن يقدم على هذه الخطوة أنه لو رفضت والدته هذا الزواج فلن يفعل شيئا ضد إرادتها،وفعلا أخبر والدته بذلك وقد وافقت على هذا الزواج طالما هذا سيسعده لكنها قالت له شيئا غريب فقد قالت له أنها دائما كانت ترى فى منامها عروسته إنها فتاة جميلة ذات بشرة خميرية وعينان بنيتان واسعتان ترتدى فستان أبيض جميلا تضفى عليه من جمالها رونقا وبريق تضع حجابا فوق رأسها مزينا بحبات الفل.

بعد موافقة والدته تزوج عبد الرحمن من ستيلا غمرته سعادة مطلقة لم يعيشها طيلة حياته وقد كلل الله حبه بحمل ستيلا وعندما وضعت ستيلا طفلتها زينب إنتظر حتى تكمل عامها الاول لكى يذهب بها مع ستيلا لزيارة

والدته التى كادت أن تطير من السعادة وكأنها صغرت ثلاثين عاما بل عادت طفلة كزينب، عندما رأتهم ،ظلوا معاها شهرا كاملا تعلقت خلاله بزينب كثيرا كانت تنام بحضنها وتصحى على صوتها،ثم عادوا إلى أمريكا مرة أخرى مع عائلته الصغيرة واعدا أمه أن يأتوا مرة أخرى لزيارتها إلى أن حصلت الحادثة والتى جعلت هذا العالم الواسع ضيقا فى نظره كثقب إبرة كاد أن يختنق فيه ولكن لو كان هناك أحدا أشد حزنا منه فكانت والدته فلم يكن حزنها واحدا فقط بل كانت حزينة على حفيدتها التى لم تختبر الحياة بعد وعلى زوجة إبنها التى رأحت ضحية شياطين الأنس وهى مازالت وردة لم تنشر عطرها كاملا فى هذه الحياة وعلى إبنها الذى يعانى الحزنين معا لذا كان نصيبها الأكبر من هذا الحزن وهذا الحزن قام بقتلها فبعد هذه الحادثة بشهورا معدودة تدهورت صحتها كثيرا ثم فارقت هذا العالم القاسى لتذهب إلى عالما كله سعادة حيث يكون زوجها وتكون هى عروس الجنه تزف إليه مرة أخرى بمازمير الجنة،ولكنها تركته وحيدا شريدا لا يجد ملجأ فى هذا العالم يلجأ إليه عندما تغلق فى وجهه جميع الأبواب،تركتنه دون حضن يتسع له كلما ضاقت هذه الحياة.

الآن بعد كل هذه السنين يشعر أن ماريا هى ملازه فكلما فكر بها شعر أن السعادة تحتضنه من جديد فقد رأى فيها تلك الفتاة التى كانت تراها والدته فى أحلامها.

***

(١٥)
إعتراف

منذ أن جاءت ماريا إلى نيويوك وهى تبحث عن جاك فهو فعلا كما قال لها العم إقبال يظهر فأجئة ويختفى فاجئة ولكنها لابد أن تراه لعل هذا اللقاء يساعدها فى تبرءة أيهم، هل هى فعلا تكذب على نفسها؟!هل فعلا لقاءها به سيساعدها؟!ربما هذا ليس السبب الرئيسى بقدر ما تريد أن تحل لغز هذا الرجل فهو إسرائيلى ربما هذا سببا كافيا لما فعله بأيهم وخاصة أنه بالتأكيد عرف أنه فلسطينى ولكنها تشعر أن هناك سببا آخرا لما فعله سببا مخفى عن الأنظار ولكنه الحقيقة لكل ما يفعله.

ليلة أمس رأت ماريا ضوء يخرج من منزله فعلمت أنه ظهر أخيرا،ظلت طيلة هذه الليلة تفكر فى حيلة لرؤيتها فتذكرت أنها فقط بحاجة إلى جعله يراها حتى يأتى مهرولا إليها لذا إستيقظت مبكرا وخرجت للحديقة حتى تراقب خروجه ولكنها إنتظرت كثيرا فلم يخرج مطلقا لذا شعرت باليأس وقررت الدخول إلا أنه خرج فاجئة و عندما رأته تظاهرت بأنها تسقى الورود كانت تعلم تماما أنه عندما يراها سيأتى إليها،وقد حدث ما كانت تتوقعه.

فإقترب جاك من باب الحديقة وأمسكه بيده ثم قال:كيف حالك آنسة ماريا

أهلا سيد جاك.

سمعت عنك أخبارا جيدة

ماذا إذا.

أنك محامية الدفاع فى قضية أيهم الذى كان يعمل فى مصنعى.

شكرا لك سيد جاك لقد جعلتنى أختصر نصف المسافة.

لماذا تفعل كل هذا؟!

ماذا تقصدين ؟!

لماذا أيهم بالذات؟!

لا تحدثينى بالألغاز

أنت تفهم قصدى تماما.

أنا لا أفهم شيئا مما تقولين،إنه شخص فاسد قمت بطرده من المصنع عندما علمت بما ينوى فعله،ثم ألقت الشرطة القبض عليه عندما عملت أنه يدير صيدليته فى تجارة المخدرات.

هذا ما يعرفه كل الناس لكنها ليست الحقيقة وأنا أريد أن أعرف الحقيقة

الحقيقة نسبية آنسة ماريا ليس بالضروى أن ما ترينه الحقيقة يكون فعلا كذلك.

لا يوجد حقيقة فى الوجود مها كانت نسبيتها تقول أن البريء يقبع فى السجن بينما المجرم الحقيقى ينعم بالحياة.

ومن المجرم من وجهة نظرك؟

أنت،وصدقنى سأحرص على أن تأخذ عقابك

طالما قولتيها لى صريحة إذا فلنكشف أوراقنا،نعم أنا من ورط أيهم فى هذه القضية فأنا من أجبر آدم على وضع المخدرات فى صيدليته ثم أبلغت الشرطة عنه،أنا أيضا أمتلك منصنعا لصناعة المخدرات،أتدريدين أن تعلمى شيئا آخر،أنا أسوء رجل جاء إلى هذا العالم،والآن عرفتى الحقيقة أخبرينى إذا كيف ستثبتيها؟!

نظرت إليه ماريا بتحد ثم قالت:إن شاء الله سأسطيع إثباتها ثم أنك لست بحاجة إلى إخبارى بأنك سىء يكفى إنك إسرائيلى،لا شك أن ما فعلته بدافع الكره.

بل بدافع الحب.

الحب!!هراء ما شأنك أنت بالحب.

أنت لا تعلمين قوة الحب سيدتى فالحب يمكنه أن يحول الشيطان إلى ملاك والملاك إلى شيطان.

الحب هبة من الله لا يمكن أن يحول أحد إلى شيطان

بل ممكن عندما تفعلين كل شىء للحصول عليه دون فائدة،عندما يلقيك فى بحر من الظلومات تحاربين الامواج الغاضبة وأنت لا تجيدبن السباحة،أحيانا سيدتى يكون الحب قاتل ولكن للاسف الحب قاتل محترف لا يترك ورأه أثرا للجريمة فقط جثة تعيش بين البشروروحا تئن وقلبا ممزق.

صعقت ماريا لما سمعته من جاك بل صعقت عندما رأت شلالا من الدموع فى عينيه،لا تريد أن تعترف ولكنها للحظة شعرت أنه ليس الجانى بل الضحية.

أشاح جاك بوجهه بعيد عنها للحظات حتى يتمالك نفسه ويخلع قناع البراءة ويرتدى قناع الشرثم نظر إليها نظرة مليئة بالشماته:سأقول لك شيئا يجعل روحك ترتعش أنا ما طاردك فى تلك الليلة حتى كدت تموتين رعبا وهلعا.

قالت ماريا بهدوء يخبأ خلفه قهر وغضب :كنت أعلم أنك أنت منذ البداية،ولكننى كنت أكذب نفسى،فما الذى يجعلك تؤذينى دون سبب؟!

ليس كل شىء يحدث لسبب.

أوافقك الرأى فمن يقتل دون سبب وبدون رحمة يتوقع منه أى شىء،لكن أظن أنه يوجد سبب لمطاردتى؟!

كنت فقط أريد أن أرى الخوف فى عينيك،تلك العنين التى كانت لا ترمقانى سوى بنظرات الإحتقار كنت أريد أن أراهما ذليلتين مكسورتين ،لا يجرؤان مرة أخر على النظر فى عينى.

وغدا حقير

بل أكثر مما تتصورين.

أخرج من هنا ولا ترينى وجهك البغيض مرة أخرى.

إبتسم جاك إبتسامة ساخر ثم أدار ظهره لماريا وأغلق ورأءه باب الحديقة الذى كان يمسكه.

جلست ماريا على الأريكة الموضوعه بجوارها حتى يهدء جسدها المرتعش،تمسح بيدها قطرات العرق التى تتناثر فوق جبينها،وهى تهتف فى غيظ مسخ دميم،فى هذه اللحظة كانت تريد أن تغمد خنجر فى قلبه كانت تريد أن تراه جثة هامدة بصقته الحياة من فمها لقد أغضبها إلى درجة أن تخيلت نفسها ضحية تطالب بحقها فيسحقها المجتمع تحت قدميه،لا لا ياله من شعور مخيف بل قاتل.

الآن لابد أن تجد حلا لقضية أيهم هى تعلم أن كل الأبواب موصدة أمامها والنهاية القريبة لهذه القضية هى سجن أيهم ولكنها لاتدرى لماذا لديها يقين أن هناك شيئا سيحدث فى هذه القضية يقلب الموازين وينجى أيهم

دخلت ماريا غرفتها وجلست على مكتبها تفرد أوراق القضية أمامها تذاكرها مرارا وتكرارا ربما تجد ثغرة تنفذ من خلالها إلى حل لغز هذه القضية فالقضية معقدة جدا كل الأدلة تدين أيهم حتى الشاهد الوحيد فى القضية شهد ضده،كل شىء يوحى بفشلها فى إنقاذه،لم يعد بيدها حيلة،لقد

إستسلمت لكل شيء،يبدو أن وظيفة المحاماة ليست وظيفتها وثوب المحاماة ليس على مقاسها ولكنها أن خلعت ثوب المحاماه هذه المرة ستخلع قلبها معه، ستكون عرضة لشماتة البرفيسور ألبرت وعرضة للوم نضال وأيهم اللذان وعدتهما أنها ستحارب لأجلهما فهذه ليست قضيتها الأولى بل معركتها الأولى مع الحياة معركتها الأولى مع الباطل الأمر ليس متعلقا بأيهم فقط بل بالعدل والظلم بالحق والباطل لا تريد للظلم أن ينتصر فى حضرتها على الحق،تعلم جيد أن للظلم جيوشا قوية فتاكة،تسحق الحق تحت أقدامها ولكن حتى وإن كانت جيوش الحق ضعيفة خاوية على عروشها فقد كانت تظن أنها قادرة على بث روح النضال فيها،ترى هل كانت مخطئة ؟!فلم يزداد الحق بوجودها سوى جندا ضعيفا إنضم للمعركة ليزيد الحق ضعفا،ترى هل خانتها ثقتها بنفسها حتى تبين لها أنها تسطيع مواجهة هذه الرياح الهوجاء بمفردها؟!

سمعت ماريا صوت رنين الهاتف فنظرت إلى الهاتف بدهشة ثم هتفت:رقم غريب.

أمسكت بالهاتف بضع ثوانى دون أن تفتحه وقبل أن تنتهى الرنة،قامت بفتح الهاتف وقبل أن تنطق بكلمة جاء صوت أحدهم مرتعشا وهو يقول: ألو ماريا

فقالت مستفسرة:من معى؟

إسمعينى جيدا أنا مستعدا للشهادة مع أيهم وتبرئته،فما فائدة حياتى إن كانت لا تساهم فى إنقاذ برىء.

هتفت ماريا بدهشة:آدم!!

لن أتصل مرة أخرى،فأنا قلق بشأن مراقبة هاتفى،ولكننى أعدك أننى سأكون فى المحكمة يوم الجلسة لتبرأة أيهم،وإن لم آتى إعلمى أنى فارقت الحياة هذا وعد صديق،ووعد إنسان،سأغلق الآن

صرخت ماريا فى زعر:آدم لا تغلق الهاتف أريد أن أتحدث معك،آدم لا تعرض حياتك للخطر،ألو،ألو،ولكن الخط قد إنقطع

أهتزكيان ماريا لهذه المكالمة وإرتعشت أطرافها ليس من حقها أن تضع حياة شخصا فى الخطر لكى تنقذ حياة شخصا آخر،ربما كانت كلماتها قاتلة،فعاودت الإتصال بالرقم الذى حدثها من خلاله:لكن هذا الرقم مغلق ربما حدثها منه ثم أغلقه،ليته لم يغلقه،ليته إستمع لكلامها لكانت قالت له:لا تضع حياتك على المحك،ولكن كيف تقول له هذا وهى تعلم أنه إثم وأن الساكت عن الحق شيطانا أخرص.

فتحت نافذة غرفتها ونظرت إلى السماء ودعت الله بتضرع:يالله لا تضعنى فى مفترق طرق،بحيث أختاربين طريقين كليهما سيسبب ضررا لأحد.

***

كانت الليلة عاصفة والمطريتساقط بغزارة ظل جاك فى هذه الليلة يسير بلا هدى فمنذ أن تحدث إلى ماريا هذا الصباح لا يدرى لماذا ولكن كل شئا حدث منذ زمن أصبح يطارده

وبعد أن خارت قواها من كثرة السير جثا على ركبتيه وسط الأمطار المتساقطة ثم قال باكيا: لن أنسى ذلك اليوم مطلقا فقد أردت أن أحطم غرورها أن أجعلها خاصتى طيلة حياتها وإن لم أستطع أن أجد فى عينها مكان لحبى،فسوف أجردهما من كبرائهما فقومت بإختطافها وآتيت بها إلى أحد الشقق لكى أنصب نفسى ملكا عليها طيلة العمر،أليست تشبة بلادها الذين إغتصبوها قومى من الكثير من الأعوام فأنا أشبه قومى سأترك نيشان حبى على جسدها ذلك النيشان التى لن تستطيع نسيانه ما حيت،ولكنها مثل

أرضها قاومت بشدة،وإستماتت فى المقاومة وهى تهتف فى ذعر:إبتعد عنى لا تتجرء على لمسى.

إننى أحبك ولا أطلب منك سوى مبادلتى نفس الشعور.

فقالت بسخرية:أحبك!!يمكنك أن تحول مياه البحر المالحة إلى مياه عذبه ولكن لا يمكنك أن تحول قلبى الذى يكرهك بشدة ألى حبك.

أنت الآن بين يدى يمكننى أن أطلق سراحك فقط أن قولتى لى أنك تحبيننى.

بل أكرهك أكثر من أى شىء آخر

أننى أستطيع أن أحقق لكى ما تريدين.

إذا أرحلوا عن وطننا،هذا كل ما أريد.

هتف بلهجة غاضبة:إنه وطننا نحن وطن اليهود الأبدى.

-أنتم مثال حى على من كذب الكذبة وصدقها.

لا تجبرينى على فعل شيئا لن تستطيعين نسيانه

إن ما لا أستطيع نسيانه هو كرهكم

أنت الأن بين يدى لن تستطيعين الهرب.

أنا الآن بين يديك ولكن يدك النجسة لن تستطيع لمسى.

ضحك بسخرية:أنك مثل بلادك ستقاومين ولكن سرعان ما تضعف قواكى وتسقطى بين يدى.

أنت محق أنا أشبه بلادى سأبقى أقاومك ما حييت حتى تسقط مقتولا أمامى،أو أموت دون ذلك

لن تستطيعين الهرب منى فلا يوجد أحدا هنا لانقاذك ولن يسمعك أحد حتى يأتى لمساعدك،فلا يوجد مفر.

بل الله يسمعنى

ثم إقتربت من النافذه التى تطل على الشارع وقامت بفتحها

فإقتربت منها وأنا أقول بكل سخرية:أتريدين أن تقفذى من هنا وتنهين حياتك.

فقالت بتحدى ونظرت إلى بعيون لا تخاف:إذا كانت حياتى ثمنا لعدم إقتراب يديك القاتلتين منى فلا بأس.

ثم ظلت تصرخ بكل قوة لا تقترب منى وانا أستهزء بكلامها ظنا منى أنه مجرد تهديد،ثم قالت: أشهد أن لا إله إلا الله واشهد أن محمد رسول الله،و ألقت نفسها من الدور العاشروهى تقول:ستخرجون منها حفاة عراة كما جئتم هذا وعد ربى.

إرتعش جسده لتذكره تلك الحادثة وبدأ يصرخ بصوت عاليا:ألن تتركينى وشأنى،إلى متى ستسكنين هذا الجسد،لقد أرهقتنى الحياة بوجودك وقضت على فى غيابك ولكن هذا الجسد التى تسكنيه أصبح وهن هش لن يقوى على حملنا سويا مرة أخرى هذا القلب التى أخذتيه معك هل تركتيه يعود إلي؟! كل ما فعلته فى حياتى كان لأجلك أردت أن أكون ذلك الشخص السيىء الذى أردتيه فعلت أسوء الأشياء حتى أبدو وغدا كما كنت تنعيننى ولكننى الآن تعبت أريد فقط ركنا فى هذا العالم أموت فيه بسلام،ثم بدءت الأمطار فى التساقط بغزارة وصوت الرعد يثقل الآذان ومنظر البرق يخطف النظر من العيون جثا جاك على ركبته باكيا كأن دموعه أشد غزارة من المطر ترى هل هذا المطر وجده على هذه الحالة فإنفجر باكيا لكى يواسيه،فنظر إلى السماء وصرخ بأعلى صوته:اليوم لم أشرب الخمر حتى إننى لم أمسسه لأننى ولأول مرة أريد أن أتحدث معك،دون أن يسمعنى أحدا لماذا كل ما تفعله بى؟!لما ألقيت فى قلبى كل هذا الحب تجاهها إذا كنت تعلم جيدا أنها ستكيل لى كل هذه الكراهيه؟!أليس كل هذا قدرك ألست على علم بكل شيء لماذا هذا

إذا؟!إن قلبى يصرخ يتمزق بداخلى ينزف حبا لها مرت خمسة عشر عاما على لقائى بها كان عمرى وقتها خمسة وعشرون عاما كنت فى طريق الذهاب إلى أحد أقاربى فى عندما رأيتها لأول مرة تمر بجوارى كجنية هبطة من السماء تسير على الأرض بفستان وردى اللون و سترة سوداء مرت بجوارى دون أن تلاحظنى أما أنا فتعلقت عيناى بها إلى الأبد ومنذ ذلك الوقت شعرت أننى مسحور بها أراها أمامى كلما وليت وجهى تغزو أحلامى كلما وضعت رأسى على وسادتى علمتنى أن أعيش فى الأحلام أنا أنام فقط لكى أرها وأصحو فقط حتى أراها لم أكن على قيد الحياة بل على قيدها،وبعد الكثير من محاولات الحصول على حبها لم تكلف نفسها حتى لسماعى كانت كلمة يهودى كفيلة لغلق آذانها إلى الأبد لم تستمع إلى صرخات قلبى كانت تكرهنى أكثر مما أحبها وتحبك أكثر مما تكرهنى حبها لك جعلها لا تستمع إلى توسلاتى تلك العنين التى يشبهون عينى المها لم يرمقننى سوى بنظرات الكره والإنتقام.

قالت لى ذات مرة إن الله يكرهك،هل فعلا تكرهنى؟!

ضحك جاك بمرارة :يبدو أنك أجبت على سؤالى منذ زمن فإن لم تكن تكرهينى لماذا تعذبنى إلى هذا الحد؟!لماذا أخذتها منى بينما بقيت أنا جثة هامدة أعانى بعدها.

لقد تظاهرت كل هذه السنين بأننى أكرها فلم أزداد سوى حبا لها تظاهرت بأننى أستطيع أن أدمر حياة كل فتاة تذكرنى بها ولكنها كانت تقف بينى وبينهن كالملاك الحارس.وها أنا الأن رجل فى الأربيع من عمرى أسير شريد كشخص لا مأوى له أعانى البرد والوحدة لم يحصل على شىء من الحياة سوى صفعاتها أتى فصل الخريف فتساقطت أوراق حياتى كلها فلم يأتى الربيع لتنبت الأوراق مرة أخرى.

وصل جاك إلى بيته فى حالة يرثى لها مبتل الملابس،وهن الجسد، يجفف عيناه المبتله بالدموع فجلس منكسر الخاطر على كرسى متأرجح أمام لوحتها تلك اللوحة التى كف بعدها عن الرسم وكأن ريشته كسرت إلى الأبد فكلما إشتاق لها إحتضنها بشوق وكأن اللوحة تخرج من إطارها فتتجسد أمامه،ولكن حتى لوحتها المتجسدة لا تواسيه ولا تحتضنه مثلما إحتضنها لا تمسح دموعه المتدفقة ولا تشفق على قلبه الجريح من أين أتت بكل هذه القسوة واقعا وخيالا؟! ولماذا يحبها بعد كل هذا الجفاء؟! لماذا يضرب نفسه فى اليوم آلاف المرات على ما فعله بها؟! يموت فى اليوم آلاف المرات دون أن تخرج روحه من جسده،يضاجع النساء ويعاقر الخمر على أمل نسيانها ولكن لا فائدة وكأن محاولات نسيانها هى محاولات لتذكرها أكثر وكأنها فتاة صنعت من الخمر تغيب العقل ولا تغيب عنه.

أحضر جاك صندوقا مصنوعا من الفضة ثم فتحه ليخرج منه مصحفا صغير الحجم فأمسكه بيدين مرتعشتين،فهذا المصحف هو ذكرى من حبيبته،يتذكر شكلها دائما يوم الحادثة عندما سقط المصحف من حقيبتها فهم لإلتقاطه فقالت له بغضب جم: إبعد يديك النجستين عن كتاب الله.

منذ ذلك الحين وهو يحتفظ به فى هذا الصندوق،لم يجرؤ يوما على مساسه وحتى الآن عندما يمسك به كان يرتدى قفازا فى يده.فهو دون أن يدرى ينفذ كل ما تقوله ولا يقوى ولو أراد على مخالفتها إنها عشقه وكرهه،نعمته ولعنته،جنونه وعقلانيته إنها كل شىء إجتمع فى فتاه،أو فتاة إجتمعت فى كل شىء.

***

مر على وجود ماريا فى نيويوك ثلاثة أسابيع ذهبت خلالهم فى بداية كل أسبوع إلى المشفى لكى تزور السيدة كاثرين وزوجها السيد دانيال،مصطحبة معها باقة الورد التى لا تحمل بين ورقاتها رأحتها فقط بل عبق البيت التى تزرع فى حديقته ثم تعطى باقة الورد هذه إلى كارلا الممرضة التى وافقت على مساعدتها لكى تعطيها لهما هذه الزيارة، الأسبوعية تبعث السعادة إلى قلبها،حتى وإن كانت تراهما من بعيد ولا تفصح عن هويتها لهما وحتى وإن كانت تقصد من البداية الظهور أمامهما بمظهر البطلة المناضلة التى تريد أن تثبت لهما أن الأسلام دين السلام وليس الإجرام وإزهاق الأرواح لكن هذا المقصد إستحال إلى مقصدا أرقى منه وهو نشر البهجة والسعادة فى حياة إنسان دون مصلحة، فقط الإنسانية لأجل الإنسان وخاصة أنها منذ أن رأت السيدة كاثرين وهى ترى فى وجهها الحزين الهزيل المصطبغ باللون الأصفر وجه"ماما ماريا" وخاصة قبل وفاتها بأيام عندما إشتد عليها المرض فقد أصيبة بداء السرطان فقد كانت وقتها فى الصف الثالث الثانوى عندما إتصلت بها لكى تطمئن عليها بعد الكثير من الوقت ليأتى صوتها وهن متقطع عندما قالت:ألو من معى.

لتجيبها:أنا ماريا،ماما ماريا.

عندما سمعت إسمها تظاهرت بعدم المرض،وتحاملت على نفسها لكى تظهر أمامها قوية،ثم قالت بصوت يدعى الثبات:ماريا،طفلتى الصغيرة،إشتقت إليك كثيرا

وأنا أكثر مما تظنين.

فسكتت برهة وكأنها تحاول التحكم فى صوتها

فهتفت ماريا بقلق:هل أنتى بخير ماما ماريا؟!

طبعا عزيزتى،يكفى أن أسمع صوتك لكى يكون الخير حليفى دائما

أنت تكذبين على،هناك شيئا ما تخفينه عنى

لا شيء صدقينى.

أنا آتية لزيارتك.

لا يا ماريا لا تأتين..أنا بخير

بعدما رفضت ماما ماريا أن تذهب ماريا لزيارتها إرتعش قلبها خوفا وقلقا فقد غمرتها السعادة عندما قالت لها من قبل أنها آتية لزيارتها،تلك الزيارة كانت منذ عامين إلا أنها هذه المرة قالت لها لا تأتين وكان صوتها يدل على وجعها وألمها،مما جعل ماريا تجبر والدها أن يترك عمله ويصطحبها إلى قنا لكى تطمئأن عليها وعندما ذهبت وجدت ماكان يحدثها به قلبها فقد وجدتها طريحة الفراش إلتهم المرض جسدها ليحولها إلى مجرد عظام مكسية ببعض الجلد،إنهارت ماريا عندما رأتها على هذه الحالة فإنتابتها نوبة بكاء هستيرية.

فهتفت ماما ماريا بصوت يكاد ألا يسمع:ماريا قولت لكى لا تأتين،لم أرد لكى أن ترينى على هذه الحالة.

فقالت ماريا وهى تحاول إيقاف دموعها:لو لم آتى اليوم لما سامحت نفسى طيلة حياتى.

سامحينى يا صغيرتى فقلبى يرقص سعادة لرؤيتك لكن هذا الجسد اللعين فقد القدرة على الحركة،ربما لم أشعر بالتذمر من قبل ولكننى الأن أشعر بالقهر لأن قدماى لم يستطيعا حملى لكى أقف عليهما وذراعاى فقد القدرة على الحركة لكى تمتدان لحضنك،ليس هناك أسوء من هذا الشعور صدقينى فأنا الآن أراك تركضين نحو ضاحكة وأنا عاجزة مكبلة أسيرة هذا الجسد الميت.

لا تقلقنى من هذه الناحية فإن لم تسطيعى حضنى فأنا أستطيع حضنك.

تساقطت الدموع من عيناهما كالشلال المتدفق من فوق منحدر عالى.

ربما حقق لى الرب أمنيتى،فقط كنت أريد أن يكون آخر وجه أراه فى هذه الحياة هو وجهك البرىء.

لا تقولى هذا ستكونين على ما يرام صدقينى.

إبتسمت ماما ماريا ثم قالت:الحياة دائما يا إبنتى هى اللعبة الخاسرة ندخلها بكل ما نملك ونحن نعلم أننا لا محالة خاسرون،إلا أن الله لم يجعلنى خاسرة دائما فقد رزقنى بإبنة بارة تحمل إسمى وستجعله يتردد على الألسنة حتى بعد وفاتى.

لم أتحمل فراقك وأنت على قيد الحياة لكن كان لدى أمل فى اللقاء مرة أخرى ولكن كيف الحال مع فراق لا لقاء فيه؟!

من يعلم يا ماريا ربما لنا لقاء آخر فى مكان آخر.

وماتت ماما ماريا تاركة هذا العالم ورأئها كمتاع لا فائدة منه ولكنها لا تدرى أنها تركت ماريا بالخطأ ضمن هذا المتاع،ماتت ماما ماريا ولم تترك لها سوى بعض الذكريات لا تنسى التى وصورة باهتة أخذها لهما العم جورج صاحب أستوديو التصوير القريب من مدرستها وصليبا ذهبى منشوقا عليه بالخط الكوفى"قل أعوذ برب الفلق " لم تعطيه لها خشية أن تفهمها خطأ وتحدث فتنة ولكنها أعطته لها عندما تجردت من كل شىء حتى الخوف لذا كلما رأت ماريا السيدة كاترين ملقاة على السرير تتأوه من شدة المرض تخيلتها ماما ماريا

ماريا لقد أوصلت الورود كالعادة إلى غرفة السيدة كاثرين ولكن السيد دانيال اليوم يصر جدا على لقائك،فقد قال لى حرفيا: إننى أريد رؤية هذا الملاك الذى يغلف لنا السعادة كل أسبوع يبعثها لنا فى باقة ورد،ولكننى كنت أسيرة الوعد الذى قطعته لك فقولت له: إنك تعطينى هذة الباقة كل أسبوع وتذهبين.

شردت ماريا لتحدث نفسها قليلا:ربما ما يجعله يرانى ملاك أنه لا يرانى ربما هذا الملاك الذى يرسمه فى مخيلته إذا ظهر أمامه إستحال شيطانا ذا قرنين.

لا أدرى كيف أشكرك على ما تفعلينه لأجلى دون أن تعرفينى ولكننى أحتمى بهذه المسافة التى وضعتها بينى وبينهما فإذا تلاشت هذه المسافة ربما تتلاشى معها هذه العلاقة السرية التى صنعتها معهما.

مع أننى لا أفهم قصدك إلا أننى أستطعت أن أكذب عليه هذه المرة لا أدرى إن كنت سأتمكن من فعلها المرة القادمة أم لا.

إننا فعلا نخاف الإقتراب كثيرا من الأشخاص الذين نحبهم نخاف ألا نراهم على الصورة التى نرسمها لهم نحتمى بالمسافات التى وضعناها لهم أو الذى وضعها القدر نخاف أن نقترب لنفضل البعد فبعض العلاقات كالبحر الهائج الذى من الذكاء أن نظل على الشاطىء وإذا قررنا الإبحار فلابد من أن نمتلك زورقا قويا يتحمل خطورة الأمواج وزورقنا فى العلاقات هو القلب وغالبا ما يكون هذا القلب ضعيفا يغرق إلى الأعماق وحتى إن قدر له النجاة فلابد أن يصيبه بعض التحطيم،لذا فالمسافات أضمن بكثير فهى تحجب الرؤية الواضحة بالأشياء تجعلنا لا نرى عيوبه فكلنا نقع فى غرام القمر البعيد فى السماء نعشق وجهه المضيىء وجماله الآخاذ لكن كل من إقترب منه وجده مليئا بالندوب.

***

كعادة ماريا تجلس بعض الشيء فى الحديقة الملتحقة بالمستشفى تظل تراقب بعيون حزينة المرضى الذين يخرجون من غرفهم ليشتموا بعض الهواء النقى، منهم من يجلسون على كرسى متحرك ومنهم من يسيرون برقفة أقاربهم متكأين عليهم منهم أطفالا قطف المرض زهرة برائتهم ومنهم شبابا قضى المرض على أحلامهم ومنهم كبارا حدد المرض إقامتهم كلهم يحاربون نفس الشيء الموت أو يحاربون الحياة التى لا تقف فى صفهم وترميهم لقمة سائغة فى فم الموت.

بعد كل هذه الأفكار أرادت أن تراهما من بعيد حتى ترتاح بعض الشيء وتطمئن علي السيدة كاثرين تتمنى أن ترى الغرفة مفتوحة كالعادة صعد بها المصعد ثم خرجت منه بدأت فى السير بإتجاه الغرفة ولكنها رأت شخصا أمامها ليوقف الزمن للحظات أو ليجعله يسير بالبطىء،لا تدرى لماذا ولكنها أشاحت بوجهها بعيدة حتى لا تجعله يراها،ربما قررت الهروب وفأجاة وجدت الممرضة أمامها فقالت لها وهى تلهث:هل تعرفين هذا الشخص الذى يقف أمام غرفة السيدة كاثرين.

شخص؟؟

نعم

أخذت تفكر بعض ثوانى ثم هتفت كأنها تذكرته: إنه توأمك الملتصق.

ماذا تقصدين؟

أتتذكرين ذالك الشخص الذى حدثتك عنه بأنه يقوم بمساعدتهما ويدفع لهم ثمن الإقامة هنا،إنه هو ذلك الشخص!! يبدو أنك محظوظة لتريه اليوم لانه يأتى لهما كل أسبوع ويفعل كما تفعلين يطمأن عليهما من بعيد،ولا يجعلهما يريانه،لذا أطلقت عليه تؤمك الملتصق.

لكن ألا تعرفين من أين يعرفهما.

لم أكن أعرف،ولكننى عرفت اليوم بالصدفة فقد سمعته يتحدث مع أحد الأطباء الذى يبدو أنه على صداقة جيدة به فقال له:كيف حال حماتى الآن.

سمعت ماريا كلمة حماتى وشعرت بدوار وكأن الأرض لا تستطيع حملها فهتفت فى غير تصديق:يا إلهى هذا يعنى أن دكتور عبد الرحمن كان متزوجا،وهذا البيت الذى نسكن فيه كان ملكا لحمواه.

بعدما سمعت ماريا هذا الكلام ركضت خارج المشفى لا تدرى كم من الوقت مر عليها وهى تسير فى الشوارع حائرة تائه ولكنها كانت فى حالة يرثى لها ففضلت ألا تذهب إلى البيت حتى تتمالك نفسها فالأن تأكدت من شعورها نحو الدكتور عبد الرحمن ،منذ أن إلتقت به للمرة الأولى وهى تحاول فهم شعورها نحوه هل هذا حب أم إعجاب أم أن هذا الشخص شكل البطل الذى أنقذها من أيد الأشرار فلابد أن تكلل قصتهما بالحب وخاصة أنها فتاة لم تختبر شعور الحب من قبل ولكنها الآن تأكدت من شعورها نحوه إنها تحبه كثيرا وإلا ما خطب هذه الدموع التى تنهمر بغزارة دون أن تحاول إيقافها؟!وما خطب هذا القلب الذى يرفر بداخلها كالطائر المذبوح عندما علمت أنه متزوج،إن إقتصر الأمر على مجرد الإعجاب فلما تشعر بكل هذا الألم؟!وما يزيد إحساسها بالألم،أن قلبها جعلها تعيش فى الوهم أكثر عندما صور لها أنه يبادلها نفس الشعور،ولكنها أدركت الآن أنها كانت تعيش فى أحلام اليقظة منذ زمن،ولكن تلك اللهفة التى رأتها فى عينيه عندما رأها فى منزلها للمرة الثانية ماذا كانت تعنى؟!ذلك الوجه الذى كانت تخيم عليه سحابة الحزن وعندما رأها أنار وأشرق؟!تلك الحماسة التى كان يحدثها بها وكأنه لحظة أخرى وسيقف لإحتضانها للحظة يتوقف فيها الزمن، أكل هذا كان تخيلات

صنعتها هى ؟!كل هذا هراء،إنها تحبه لا شك ولكنها لم تكن بالنسبة له سوى فتاة عابرة صادفته ذات مرة ما أصعب كلمة عابرة عندما تقترن بشعورها،فهو رجلا كان متزوجا حتى وإن توفيت زوجته ولكنه ظل يحبها حتى الآن وظل بارا بأبويها حتى بعدما تركته وذهبت.

وعندما وصلت إلى بيتها كانت قد إستعادة رباط جأشها إلى حد ما ولكنها فوجئت بالدكتور عبد الرحمن يجلس مع على فى الحديقة حاولت تجاهلهما تماما فسارت مسرعة بإتجاه مدخل البيت ولكن على أوقفها ونادى عليها فلم تجد مفر من الذهاب إليه فإرتدت نظارتها السوداء حتى تخفى ورأئها أثار الدموع أو تختفى هى ورائها.

-السلام عليكم

وعليكم السلام آنسة ماريا.

تظاهرت ماريا بالتماسك فقالت بإبتسامة متصنعة:كيف حال على الآن؟

إنه محارب شجاع.

إننى أعلم ذلك جيد،فقد ورث شجاعة أهل الصعيد دون أن يعيش فيه

إبتسم على لهذا الكلام ثم قالت ماريا حسنا سأتركما وأذهب لكى أستريح،فرصة سعيدة لرؤيتك دكتور عبد الرحمن.

هتف على فى حماس لحظة يا ماريا إجلسى هنا أريد أن أريك شيئا.

ليس الآن يا على فأنا متعبة.

أرجوك يا ماريا لحظات وأعود.

زفرت ماريا فى ضيق من تصرف على فهى لا تريد أن تظل بمفردها مع دكتور عبد الرحمن.

قال الدكتور عبد الرحمن فى إحراج:إنه حقا فتى شقى.

فقالت ماريا بإقتضاب وكأنها لا تريد الحديث معه:نعم هو كذلك.

أيمكننى أن أسألك سؤالا؟!

تفضل

يبدو عليك علامات الحزن،هل هناك خطب ما؟!

لا شىء يا دكتور،الحزن سمة الحياة ،وخاصة عندما يخذلنا شىء ما،أو شخص ما

ربما تخذلنا الحياة أيضا

حاولت ماريا ألا تخبره بما إكتشفته لكنها اليوم تريد تفسيرا لكل شىء وربما جاء الدكتور عبدالرحمن اليوم لكى يجيب على أسألتها،فقالت بعد صمت طويل: لماذا كذبت على؟!

ماذا تقصدين؟!

عندما قولت لى أنك أتيت لزيارة صديق لك وفى الحقيقة كان هذا المنزل ملك لعائلة زوجتك؟!

كيف عرفت هذا؟!

لقد رأيتك اليوم بالمشفى فما لا تعرفة إننى أفعل مثلك تماما أذهب للأطمئنان عليهما.

إذا أنت من ترسلين لهم الورود؟!هذا ليست إجابة سؤالى.

إن قولت لك الحقيقة ستصدقينى؟

فللمرة الأولى كذب إحساسى لا أدرى إن كنت سأتمكن من تصديق أحد

ولكننى أريدك أن تصدقينى،لقد كذبت عليك لأننى أحبك،نعم لقد أحببتك منذ المرة الأولى التى رأيتك فيها،صدقينى لقد حاولت أن أكبح شعورى هذا العديد من المرات ولكننى لم أستطع،كذبت عليك لأننى لم أرد أن أتسبب فى جرح مشاعرك،فأنا لست سوى رجلا فقد كل أحبابه وفقد

معهم الحياة،ولكننى عندما رأيت دبت الحياة فى أوصالى مرة أخرى،تلك البقعة السوداء التى تمثل الحياة بالنسبة لى إزدانت بالألوان مرة أخرى بدخولك حياتى ولكننى كيف أظلمك؟! مرت شهور منذ أن رأيتك لأول مرة لم أنساكى خلالهم ولو للحظة وحتى عندما رأيتك للمرة الثانية كانت سعادتى بقدر حزنى سعادتى لأن القدر وضعك فى طريقى مرة أخرى وحزنى لأننى لا أستحقك.

أتصدقينى لو قولت لك أننى اليوم،جئت لكى أراك فقط،حاولت أن أمنع نفسى ولكن غلبنى قلبى،أتعلمين يا ماريا لقد فقدت كل شىء يربطنى بهذه الحياة عشت طوال سبع سنوات أعانى الوحدة والحزن وحدى لن أكذب عليك،فقط كنت أحب زوجتى كثيرا كانت كل سعادتى وأملى فى الحياة لكن الله قدر أن تكون ماض لى،ووجدتك بعد كل هذا العناء كنسمة هواء باردة فى جو شديد الحرارة كترياق الحياة حقن به ميت ليعود مرة أخرى للحياة،واليوم قبل أن تخبرينى بما عرفتيه كنت آتيا لكى أخبرك بأنى أحبك كما لم أحب من قبل كنت سأطلب الزواج منك لنعيش معا هذه الحياة لنسيرعلى نفس الطريق متكاتفى الأيد لنبحث معا عن السعادة.

كانت الدموع تسيل من عينىا ماريا بلا إنقطاع لا تدرى أن كانت تشفق على هذا الرجل الذى فقد كل شىء فى حياته أم تبكى ظنها الذى جرح قلبها أم تبكى حبيبها الذى يمد يده إليها وهى تشعر بالتشتت،و القلق خائفة أن تكون ليست سوى مسكن لجروحه وآلامه،تخاف أن يكون توهم حبها،فركضت إلى داخل المنزل تمسح فى دموعها المتدفقة فقابلها على ليربها كورة القدم التى جلبها له الدكتور عبد الرحمن هدية ولكنها تركته أيضا وركضت بداخل المنزل.

***

ركب الدكتور عبدالرحمن القطار عائدا إلى بافلو،جلس كعادته فى كرسى بجوار نافذة القطار غارقا فى أفكاره،ما بين الشعور واللاشعور يمكث هو فى المنتصف،فاليوم أفضى بمشاعره الجياشة تجاه ماريا قال كل شىء وكأنه يحدث نفسه أزاح هذا الجبل القابع فوق صدره،قال ما كان يريد أن يقوله منذ زمن وما لم يرد أن يقوله،قاله دون أن ينتظر رد دون أن يفكر فى العواقب،الآن يشعر بسلام داخلى يمكنه أن ينام دون قلقا فالفتاه التى أحبها وفتح لها قلبه بعدما صدأت مفاتيحه تستحق أن تعلم أنه يحبها الآن لا يهم إن كانت ستقبل به أم ترفضه يكفى أنها تعلم أن بهذا العالم شخصا يحبها حد الجنون،ربما شعورالسلام الذى شعر به نابعا من حيرته تجاه هذا الموضوع ولأنه لا يحب الندم كشف حبه أمامها بل كشف آلامه.ولكنه بالرغم من ذلك يتمنى أن تقبل به أن يبدأوا سويا حياة جديدة تكون ملكهما يبنيان فى هذا العالم القبيح عالمهم الجميل ينسجان الأحلام من الواقع ويعيشان واقعا يشبه الأحلام يتعلم لأجلها رقصة السالسا الذى فشل فى تعلمها مرارا وتكرارا وتكون هى أول شريكة للرقص معه،ينامان سويا تحت ضوء القمر ويرسمان لوحات بالنجوم، ينامان على أغنيات كوكب الشرق يصحيان على صوت جارت القمر.

فاجئة رنت فى آذانه أغنية ألف ليلة وليلة لأم كلثوم فبدء يدندنها،بصوت منخفض

يا حبيبى الليل وسماه
ونجومه وقمره وسهره
وإنت وأنا يا حبيبى أنا
كلنا كلنا فى الحب سوا
والهوى أه من الهوى

سهران الهوى يسقينا الهنا ويقول بالهنا يا حبيبى
يلى نعيش فى عيون الليل
نقول للشمس تعالى تعالى بعد سنه مش قبل سنه
دى ليلة حب حلوة بألف ليلة وليله بكل العمر هو العمر ايه غير ليلة
إزاى اوصفلك يا حبيبى إزاى
قبل ماحبك كنت إزاى
كنت ولا إمبارح فكراه ولا عندى بكرة أستناه ولا حتى يومى عيشاه
خدتنى بالحب بغمضة عين
وريتنى حلاوة الايام فين
الليل بعد ماكان غربه مليته امان
والعمر بعد ما كان صحرا أصبح بستان

ماذا لو قبلت حبى ألن يصبح العالم مكانا جميل؟!ألن تتوقف الحروب ويعم السلام.

إبتسم دكتور عبد الرحمن ساخرا ثم قال:يبدو أننى بدأت أعيش فى الاحلام.

***

طرق على طرقتين على غرفة ماريا وعندما لم تجيب عليه دخل الغرفة متسحبا ثم جلس بجوارها على السرير،وقال:ماريا،أعلم جيدا أنك لم تنامين.

أرجوك يا على إتركنى بمفردى الآن.

لا لن أفعل أنت لم تأكلى شيئا منذ الصباح نادت عليك أمى وقت الغداء قولت أنك لست بصحة جيدة وعندما جاءت لتقول لك أن العشاء صار جاهزا تظاهرت بالنوم،ماذا بك؟!

زفرت ماريا بضيق ثم قالت بحزم:قولت لك إتركنى الآن وشأنى.

منذ متى وأنت تعرفينه؟

أزاحت ماريا من فوقها الغطاء وأضاءت الأبجورة ثم هتفت فى قلق:تقصد من؟!

أقصد دكتور عبد الرحمن.

من دكتور عبدالرحمن ثم صمت لثوانى ثم قالت وكأنها تتصنع تذكره:تقصد الطبيب الذى يعالجك؟!

إبتسم علي بسخرية ثم قال:من أوهمك يا ماريا أنك تجيدين التمثيل؟!

تبعثرت نظرات ماريا فى الغرفة تارة للسقف وتارة أخرى لجانبى الغرفة حينما وجدت نفسها محاصرة بنظرات على وهى لم تخبأ شيئا عليه إلا موضوع الدكتور عبد الرحمن فالبنسبة لها هذا الموضوع محرجا لا تدرى كيف ستقول له أنها واقعة فى غرامه حد الغرق،ثم هتفت فى غضب:ماذا تقول أنا لا أعرفه مطلقا.

قولت لك أنك لا تجيدين التمثيل.

قولت لك لا أعرفه،والآن أذهب من الغرفة لكى أنام.

لن أذهب حتى تحكى لى القصة كاملة

ما هذا الإصرار الغريب،كيف لك أن تتأكد أننى أعرفة

عندما رأيته جالسا معى المرة الأولى حكت عيناكما كل شىء،ولكننى قبل أن أقول لك أردت أن أتأكد فتحججت هذه المرة عندما أصريت أن تأتى لتقابليه بأننى ذاهب لكى أريك الكورة التى أعطاها لى دكتور عبد الرحمن لكى أتركما بمفردكا حتى أتأكد من شكى،ولكننى لا أدرى لماذا إنزعجت هذه المرة عند رؤيته حد البكاء؟!

لم تجد ماريا مفرا من إخبار على بكل شىء ما حدث لها تلك الليلة وكيف تعرفت على دكتور عبد الرحمن،وكيف قام بمساعدتها وعن زيارتها

للمشفى وما إكتشفته هناك حكت له كل شيء حتى هذه اللحظة ولكنها أخذت عليه عهدا ألا يخبر والديهما بهذا كله.

قال على دون مقدمات،أتحبينه

ماذا؟ لا طبعا،ولكننى صدمت لما عرفته.

نعم أعلم ذلك،تبدو الصدمة على عينيك التى تحولت إلى اللون الأحمر والإنتفاخ الذى يحيطهما،ولكن ترى برأيك كم فتاة فى هذا العالم تصدم عندما تعرف أن شخصا لا يهمها كان متزوجا؟!

هذه الصدمة ليست سوى لأنك إكتشف إنه كان متزوجا وكان إحساسا مختلطا من الحب والغيرة.

أتعلمين شيئا قبل أن يراك قد أبلغنى أننى إستوفيت جميع جلسات العلاج الطبيعى وأننى أستطيع أن ألعب كرة القدم فوق سطح القمر مما جعل أبى يذهب إلى عمله ولا ينتظره اليوم ولكنه أت اليوم بحجة أنه كان يمر بالقرب من البيت ففكر أن يذهب للإطمئنان على صحتى،ولكن هذا الذى جاء صدفة كيف له أن يحضر هدية لى معه ؟!وإن جاء أيضا للإطمئنان على صحتى ما خطب صحتى بك أنت ما هى دراستك،وما تحبين؟ما تكرهين؟!يبدو أن الحب يحول الشخص إلى أحمق

إنه يحبك كثيرا يا حمقاء.

إبتسمت ماريا إبتسامة خجولة ثم قالت:كفاك هراء

هذا ليس هراءا يا ماريا كل قلقك منه كان بسبب ماضيه ولكن إن كان كل البشر فشلوا فى إختراع آلة للزمن يستطيعون به الرجوع إلى الماضى ليقوموا يتعديله أو التحليق للمستقبل لكى يروا ما ينتظرهم فمن أنت حتى تحكمين على ماضى لن يعود وعلى مستقبل لا يعلمه إلا الله،عيشى الحاضر يا حمقاء ذلك ما تقوين على فعله.

الأن هلا تناولت الطعام معى فلم تقوى معدتى اللعينة على هضم الطعام وأنا أعلم أنك حزينه، هلا ذهبت لتغسلى وجهك حتى تبتعد السحب السوداء عن القمر وتأتين معى حتى نأكل سويا.

هل أخبرتنى بحق السماء عمرك الحقيقى.

من قال لك أن العمر هو من يحدد شخصية الإنسان إن الإنسان يكبر بقراءاته وذكاءه و...

فقطاعته ماريا قائلة:كفاك فلسفة أخرج الآن

أجعل السحب السوداء تبتعد عن القمر،ثم آتى لأتناول العشاء مع العجيبة الثامنة لهذه الدنيا.

ضحكا سويا بشكل هستيرى،وكأن كل قلق على وحزن ماريا تبخر فى الهواء

أغلق على الباب ورائه وجلس على المائدة فى إنتظار ماريا لم يكن جائعا مطلقا بل أراد فقط أن يهون الأمر على أخته يجعلها تخرج من حزنها،فهو لا يستطيع أن يراها حزينة بإستطاعته أن يرى أشد فظائع هذا العالم ولا يمكنه مطلقا أن يرى الحزن يغزو عينا أخته الوحيدة،لا يدرى هل كل الأخوة تربطهما علاقة قوية ببعضهم أم لا ولكن هذا العالم بدون أخته ناقصا ومقفر،تظن ماريا أنه إحدى أسباب سعادتها ولا تدرى أنها كل سعادته الأمر أشبه بجذور الشجرة وفروعها فإذا قطع فرع من الشجرة يمكنه النمو مرة اخرى إذا كان الجذر بخير أما إذا إقتلع الجذر ستنتهى حياة الشجرة إلى الأبد بالنسة لعلى ماريا الجذر وهو فرعها،إنها كالهواء الذى يتنفسه، لا يدرى مطلقا كيف لاحد أن يأتى من مكانا بعيد ليسرقها منه ربما هذا السبب الذى جعله يغير من دكتور عبد الرحمن ولكنه عندما علم كم تحبه ماريا إستسلم للأمر فلاشىء فى هذه الحياة سيسعده كسعادتها.

(١٦)
قضية أيهم

لم يتبقى سوى أسبوعا واحدا على محاكمة أيهم لذا بدأت ماريا فى التحضير جيدا للمرافعة فى قضيتها الأولى ذاكرت وستذاكر الكثير من كتب القانون ستتسلح بالحق وسترافع بكل قوتها كى تعيد زوج إلى زوجته وشابا إلى حياته ومناضلا إلى أرض المعركة ستحارب لأجل إنسان وستحارب لأجل صديق.

رن جرس الهاتف الخاص بماريا فبحثت عنه قليلا لتجده تحت وسادتها فنظرت إلى إسم المتصل بإستغراب ثم قبل أن ينقطع الإتصال فتحت الهاتف ليصل إليها صوت المتصل وهو يقول بلهفة:ماريا كيف حالك.

لترد عليه ماريا ببعض البرود،بخير الحمدلله بروفيسور ألبرت.

وكيف حال القضية معك.

لا تقلق إعتبر أيهم خارج السجن الأن

تعجبنى ثقتك بنفسك

ليست ثقتة بنفسى بل ثقتة بالله.

تستحقين الفوز دائما يا ماريا

أهذا سخرية أم إشادة

لا تحتاجين إشادة منى يكفى صمودك حتى الآن،أما السخرية فلا مجال لها فى حضرتك.

شكرا جزيلا.

مارية صحيح حاولى أن تأتى قبل الجلسة بيومين أو ثلاثة حتى تراجعى معى القضية.

سأفعل ذلك بإذن الله.

ظل البرفيسور ألبرت ممسك بالهاتف بعدما أغلقت ماريا الخط لعل صوتها يأتى مرة أخرى،لعلها تذيب هذا الحاجز الجليدى الذى تضعه عائقا فى سبيل حبه،حبه الذى يزداد يوما بعد يوم حتى فاض به قلبه. هتف البروفيسور ألبرت بإشتياق:أه لو تعلمين يا ماريا عدد المرات التى حاولت فيها الإتصال بك،ثم أغلق المكالمة قبل أن تصلك الرنة،لو تعلمين كم مرة باليوم أتخيلك أمامى بفستانا قرمزى اللون ترقصين أمامى على نغمات الحياة تتمايلين فى رشاقة وخفة تقتربين منى كثيرا حتى أشعر بأنفاسك وعندما أحاول لمسك تركضين من أمامى كغزالة برية جامحة،كنتى دائما فى خيالى ككقطعة الثلج التى أغلقت عليها قبضتنى بإحكام ظنا منى أنى إمتلكتها لأفتح كفة يدى ولا أجد لها أثر تهربين منى دائما فى أحلامى فما بالك بواقعى،فى واقعى أنت لا تهربين،كيف لك أن تهربى وأنا لم أمسك بك.

أه يا ماريا لو تعلمين كيف كنت،والآن كيف أصبحت كنت قبلك شامخا أتسلق قمم الجبال العالية وأضع رايتى على كل مدن النساء منصبا نفسى ملكا فالنساء تشبه المدن وأنا أشبه الغزاة ولكنك ي ماريا لست كما كل النساء فأنت تشبهين الوطن،وليس لأحدا أن يغزو وطنه.

يبدو أن ما يميز ماريا عن النساء الذى إلتقى بهن،أنه لم يكن فى حضرتها ذكرا يريد أن يضيفها إلى قائمة نساءه اللا معدودة،ولم تكن هى تلك الأنثى المغرية التى تحرك شهواته كانت مزيجا غريبا من البرأه والطفولة فتاة تنتمى إلى الماضى،حيث كان شابا يبحث عن فتاة لتشاركه هذا العالم فتاة ليحبها ويعيشان سويا ينجبان طفلين أو ثلاثة مكونا معها عائلة سعيدة، إنها فتاة توقظ بداخله الماضى تعيده إليه ليعيشه أو ليتندم عليه إنها تعيد إليه برأته ،لقد عاش الحاضر كثيرا قدم له التحيه نام بجواره على نفس السرير لكن

هذا الحاضر لا يذكره سوى بأنه رجلا عجوز ركض وراء غرائزه طوال الوقت دون أن يدرك أن هذه الغرائز لن تظل معه دائما أنها تتلاشى كدخان السجائر بنعومة ولكن بعد أن تدمر رأتيك وحدها ماريا من أعادته للماضى حيث كان شابا ينظر إلى هذه الحياة ببراءة وإندهاش يحضن وسادته،متخيلا إياها حبيبته ولكنهما إلتقيا فى الوقت الخطأ،إلتقيانا بعدما أصبح لا يرى شبابه سوى خلسة وهو يتخيله فى المرأة.

***

كانت ماريا منذ فترة طويلة تنوى على فعل شيئا وهذا الشىء لابد لها أن تفعله قبل أن تزور السيد دانيال والسيدة كاترين الأسبوع القادم وقبل أن تسافر إلى بافلو حتى تترافع فى قضية أيهم ولكى تفعل هذا الشىء لابد من أن يوافق والدها أولا إلا أن مواقفة والدها مضمونه إلى حد ما فهو رجلا صعيدى كريم وشهم محال أن يجد أحد بضائقة ولا يساعده مهما كلفه الثمن.

ذهبت إلى المشفى بيدها شيئا آخرا بلإضافة إلى باقة الورد جلست فى إستقبال المشفى تنتظر كارلا التى هاتفتها منذ قليل وقالت لها تنتظرنى فى الإستقبال،وعندما جاءت كارلا حيت ماريا ثم بادلتها ماريا نفس التحية و قبل أن تقول ماريا أى شىء بادرت كارلا وهى تقول:اليوم لن أستطيع مساعدتك فطوال الأسبوع الماضى لم أذهب لكى أعطى الدواء للسيدة كاثرين،إلا وأكد على السيد دانيال أن أبلغه حينما تأتين،لن أستطيع اليوم أن أذهب إلى غرفته بدونك.

أعلم ذلك يا كارلا،لم آتى اليوم لأعطيك باقة الورد بل هاتفتك لكى أشكرك على كل ما فعلتيه لأجلى أنت لا تدرين ماذا يعنى هذا بالنسبة لى؟!إنك قربتينى من مبتغاى بفضلك إكتشفت الكثير من الأمور التى كان لابد أن

أكتشفها،فعلتى كل هذا دون أن تسألينى لماذا تفعلين هذا؟!كنت أنت ساعى البريد فى هذه العلاقة السرية وبينما أبنى هذه العلاقة السرية التى لا أدرى إن كانت ستستمر بعد اليوم أم لا بنيت معك علاقة صداقة،أرجو أن تستمر.

لا أدرى ما تنوين فعله يا ماريا،ولكننى كل ما أعلمه أنك تنوين الخير رأيت كل هذا فى عينيك منذ اليوم الأول الذى رأيتك فيه ،وإستمريت فى مساعدتك عندما رأيت السعادة التى تغمر السيد دانيال والسيدة كاثرين عندما يشتمون رائحة الورود التى تجلبينها إنها شيئا يشبه السحر ذلك الذى تدسينه فى باقة الورود هذه.

سأترك تنهين ما بدأتيه.

ألن تأتين معى.

لا لن أفعل

لماذا؟!

أرى فى عينيك شيئا غريبا شيئا ينبأ ببوادر عاصفة،فقد كنت شاهدة على بناء هذه العلاقة،لا أريد أن أراها تنهار،لكن أتعلمين شيئا ربما تنهار لتبنى مرة أخرى بطريقة علانية.

أومئت ماريا برأسها دون أن تنبث ببنت شفه ثم إحتضنت كارلا ودخلت المصعد،الذى أوصلها إلى الدور الثالث وقفت أمام الغرفة صامته تتأهب تارة لطرق الباب ثم تقبض يدها إليها تارة أخرى إلى أن إذدردت ريقها بصعوبة وطرقته،ليأتى لها صوتا من الداخل يقول:تفضل

أمسكت بباقة الورد وكأنها سلاحها الوحيد فى هذه المعركة التى ستخوضها،ورسمت البسمة على وجهها ثم دخلت الغرفة بخطوات واثقة،لتقول للسيدة كاثرين:كيف حالك سيدتى الجميلة؟

نظر إليها السيد دانيال متفحصا ثم هتف فى غضب:من أنت؟!

جئت لكى أعطى لك باقة الورد هذه.

أين كارلا؟!ثم أنه لا يبدو من مظهرك أنك ممرضة.

أنا صاحبة الباقة.

ماذا تقولين؟!أنت من ترسلين هذه الباقة كل أسبوع؟

نعم؟!

مستحيل،مستحيل أن تكونى أنت.

وما الذى يجعله مستحيل؟

أنتم لا تجلبون الورود،بل تجلبون دائما القنابل.

أليس من الغريب أن نحاسب دون جريمة

وهل من جريمة أكبر من القتل؟!

ومن قتلنا إذا.

إغرورقت عيناى السيد دانيال بالدموع ثم قال بصوت مرتجف:الكثير والكثير يكفى أنكم قتلتوا إبنتى قضيتوا على النور الذى يضىء حياتى،قطفتم الوردة التى ظللت أعتنى بها طيلة حياتى،حولتم جنتى إلى جحيم.

من نحن؟!كيف تحكم على المسلمين جميعا بسبب خطأ إرتكبه البعض إذا كان القانون لا يعدم سوى من يرتكب الجريمة،ولا يقترب من أهله حتى كيف لك أن تصدر حكما على دين كامل،قبل هذا كله هل تأكدت أنهم مسلمين.

دعينى من هذه المهاترات،والخطب البالية،ودعينى أسألك سؤلا لا أجد له تفسيرا،كيف تعرفيننا وكيف تعرفين أننا نحب هذا النوع من الورود.

أخرجت ماريا من حقيبة يدها تلك الصورة التى وجدتها فى خزانة غرفتها،لتريها للسيد دنيال.

إختطفها منها ثم هتف بحدة:من أين حصلت على هذه الصورة؟

ذات يوم تركنا بلدنا وقدمنا إلى بلد غريب فى هذا البلد إشترينا بيتا جميلا فى هذا البيت،حصلت على غرفة فى الطابق العلوى وبينما أرتب ملابسى فى الخزانة وجدت صورة مكتوب على ظهرها وصية لمن يسكن تلك الغرفة كنت أظن أنها وصية من زوج لزوجته ولكننى علمت مؤخرا أنها وصية أب فقد إبنته.

إبتسم دانيال إبتسامة ساخرإبتسامة لم تستطع أن توقف دموعه المتدفقة،ثم قال:أليس من الغريب ما يفعله القدر احيانا،من بين ملايين البشر فى أمريكا ومليارات البشر فى العالم لايسكن فى بيتى سوى أعدائى.

أنت من جعلتنا أعدائك،لكن كيف نكون أعدائك ولك من بيننا وإبنا وحفيدة؟!

لم يعد كذلك فقد هذا الحق عندما قتل أهله إبنتى الوحيدة.

حتى حفيدتك.

كانت صغيرة لا تدرك شيئا ولو كانت على قيد الحياة لكانت لعنتهم مثلى ولكنها راحت ضحيتهم أيضا

كيف لك سيدى أن تكون بهذه القسوة التى أعمتك عما فقده زوج إبنتك، ألم يكن أبا فقد إبنته الوحيدة طفلة بريئة يحمل لها الكثير من القبلات التى لم توضع على جبينها والكثير من الحب الذى ظهر منه القليل الكثير من الأمنيات التى ظلت دون أن تتحقق، ألم يكن زوجا فقد زوجته الشابة فقد سعادته كاملة،وظل عالقا إلى فترة كبيرة بين ماضى يحمل فرحه وألمه وبين مستقبل لا يريده وحاضرا لا يعيشه.

نظرت ماريا إلى السيدة كاثرين وهى تتحدث عن عبد الرحمن فوجدت عينيها مليئة بالدموع ومليئة بالحنان فلقد إتخذته إبننا كانت تتمناه ورزقه الله لها فى صورة زوجا لإبنتها الوحيدة ربما تذكرت اللحظات التى كان

يزورهما فيها فى البيت وعندما كانت تؤلمها قدميها كيف كان يحملها بين ذراعيها،ويدور بها البيت كله،كيف كان يساعدها فى إعداد الطعام فى المطبخ،كيف كان يحكى لها كم إشتاق لأمه وكيف يراها فيها،ربما تذكرت أنه ليس إرهابيا بل إبنها.

هذا الرجل التى ترينه أمامك فقد كل شىء يعاش لإجله فى هذه الحياة حتى قلبه إستبدله بكتلة سوداء لا تحمل سوى الكره والحقد عليكم،فلا تحاولى أن تعيدى إليا قلبى لأن كلامك لا فائدة منه،فلا تكونى مثل الذى يضرب بيده فى الصخر على أمل أن يتحطم.

لم آتى إلى هنا لكى أعيد لك قلبك لأنه موجود بداخلك حتى الآن ،جئت فقط لكى أقول لك بخارج أسوار هذه المشفى أشخاص يحبونك كثيرا أبعدتهم عنك ولكنهم لم يبعدوا بل ظلوا بجوارك كظلك لكنك ظللت قابعا فى الظلام والظلال لا تظهر فى الظلام. فهذا الإبن الذى جعلته أحد أعدائك منذ أن أخرجته من حياتك ظل بجوارك يزورك كل أسبوعا يراك دون أن يسمح لك أن تراه،أقول لك سرا،ربما لن يسامحنى إذا علم إننى قلته لك،المال الذى وضعته فى خزانه المشفى نفذ منذ زمن إلا أنه سدد جميع فواتير المشفى وطلب منهم ألا يبلغوك بذلك،وإذا إحتاجوا إلى أى شىء يتصلوا به.

خيم الذهول والصمت على وجهه السيد دنيال

ثم أردفت قائلة: باقة الورد هذه بها رائحة منزلك ومطبوعا على يدك طين زراعتها لم أفعل شيء سوى الإعتناء بها ولكنها ظلت تنتمى إليلك،كما كل شىء فى هذا البيت.

قبل أن أذهب أريد أن أقول لك شيئا:حاول أن تكمل هذه الصورة كما مزقتها لان إبنتك لن تكتمل إلا بزوجها.

وشيئا آخر لا تقلق لقد نفذت وصيتك.

وضعت ماريا الصورة فى ظرف بجوار باقة الورد وذهبت دون أن تنظر إلى الوراء،خرجت دون أن تنتظر كلامه،لا تدرى إن كان ما فعلته صوابا أم خطأ ولكنها أجلت هذه المواجهة الكثير من الوقت وربما عجلت بها الآن لأجل دكتور عبد الرحمن حيث أن إختراقه للقصة جعل لها منحنى آخر فلم تكن أمامهما الآن سوى عاشقة تدافع عن حبيبها وكما يقال كل شىء عادل فى الحب والحرب.

وبعدما خرجت ماريا أمسك السيد دنيال بالظرف الموجودة بداخله الصورة ثم هتف بحزن:لا أحد يعلم كم كانت هذه الصورة قريبة من قلبى،كانت سعادتى الكاملة موضوعة فى صورة،ولكن هذه الصورة،أصبحت تؤلمنى لأن من بداخلها أصبحوا ذكرى،ولكن هذا الجزء الذى قمت ببتره كان مثل ذراعى الذى دب به مرض خطير فإما أن أقوم ببتره أم أترك المرض ينتشر فى جسدى حتى الموت،ترى هل كان هذا الذراع سيلم؟!وقمت ببتره ظلما؟!ترى هل كان،يستحق العلاج وليس البتر؟!ترى هل كان يحتاج الوصل لا القطع.هذه الأسئلة تؤلمنى،وتعذبنى، كأب فقد إبنته،متهما إبنه الآخر فى قتلها.أغيثينى يا عزيزتى منذ أن أصبتى بالشلل،أصابنى أنا العجز لم أعد قادرا على فعل شىء لقد فقد ت جميع حواسى عندما لم تستطيعين أن تتحدثى معى،دعينى الآن أختبأ فى أحضانك ربما أجد الملاذ لنفسى أو أهرب منها.

هم السيد دانيا لوضع الصورة فى ظرفها وإلا أنه عندما أدخلها إصطدمت يده بورقة أخرى،فأخرجها ليجدها مكتوبا عليها هذا البيت ينتمى إليك عندما أتينا إليه كنا فقط نشترى بيتا وليست ذكريات أحدهم،عود إلى منزلك فهو بإنتظارك كما تركته،وورودك لا تحتاج عنايتنا بل تحتاج يد البستانى الذى زرعها.

أرجو ألا تعتبرها شفقة منا بل هى أمانتك أودعتها لدينا بعض الوقت والله أمرنا أن نرد الامانات إلى أصحابها، ستجد عقد تنازل عن البيت ملفوفا فى باقة الورد

توقفت الدموع فى عينيه،وإنعقد لسانه وإتسعت عيناه دهشة،وأخذ يردد بصوت مرتجف:أيعقل أن يحدث هذا،إنظرى كاترين أنظرى أليس هذا تنازلا من السيد محمد علام عن البيت لنا،إنظرى وأخبرينى إن كان هذا حقيقيا أم وهم يبدو أننى تقدمت فى العمر إلى درجة الهذيان أم أن هؤلاء الناس تخطوا الكرم حد الإنسانية.

لم يكن السيد دانيال يوما عنصريا فلم يجد لنفسه يوما كرجل أبيض فضلا عن السود كان يعامل الإنسان لأجل الإنسان وليس لإجل دينة أو عرقه أو لونه،ولكن تغيركل شىء بعد هذه الحادثة.

خرجت ماريا من المشفى هى تفكر فيما فعلته،هل سيعود السيد دانيال إلى المنزل أم أن الكره الذى يملىء قلبه سيمنعه من قبول هذا من مسلمين لا تدرى حقا ولكنها فعلت ما وجدته صوابا،حتى أنها حينما أخبرت والديها بهذا الموضوع ربما كانت تتوقع ردة فعل والدها إلى حد ما حتى وإن لم يوافق كانت ردة فعله ستكون هادئة إلا أنها كانت تعتقد أن والدتها ستثور لأجل هذا الموضوع ولن تترك المنزل أبدا بعدما إستقرت به كانت ستهب فى وجهها كالعاصفة الهوجاء ولكن ردة فعل والدتها جاءت عكس جميع توقعاتها،فعندما حكت لها كل شىء عن هذا المنزل وأصحابه تعاطفت جدا معهم بل بكت لأجلهم ووافقت على ترك هذا المنزل لهم وهى تقول:نحن لسنا من أولئك القوم الذين يستغلون ضعف الآخرين،لابد أن نفك كربتهما،إننى أكثر شخص بهذا العالم يدرك قيمة البيوت وما تحتويه بين جدرانها الأربع من ذكريات وأسرار،هذا البيت سيظل لهما.

وبعد ذلك كتب والدها تنازلا عن هذا المنزل للسيد دانيال ثم قام بالبحث عن شقة أخرى،أو منزلا قريب من هذه المنطقة،وبينما ماريا تفكر فى كل هذا إلتقت بالعم إقبال فألقت عليه التحية، دون أن تتوقف فمنذ المرة الأخيرة التى تحدث معها وهى لا تريد أن يرى بيعينها شيئا من التعاطف أو الشفقة،فإعتبرت أن ما حكاه لها سرا لابد أن تحفظه وهو فى كل مرة كان يبادلها التحية دون أن يستوقفها كعادته عندما يراها منذ أن حكى لها كان به شيئا من الإنكسار كان مثل الجبل الشامخ الذى هبت عليه إحدى العواصف الهائجة فأطاحت بقمته ولكنه ظل شامخا رغم ما أصاب قمته من تحطيم وتناثر،ولكنه اليوم وقف من على كرسيه ثم خرج لها من المحل وهو يهتف بحماس:كيف حالك يا صغيرتى.

فأوقفت سيرها إحتراما له مبتسمة الوجه وهى تقول:الحمدلله على كل شىء.

كان وجهه مبتهجا وعيناه تشع فرحا وسعادة فهتف فى حماس كطفلا صغير:لك عندى مفاجأه،لى يومين منتظرك تمرين من هنا

مفاجأه!!

نعم مفاجأه إنتظرينى برهة، دخل العم إقبال مهرولا إلى داخل المحل ثم أمسك شيئا بيده ووضعه خلف ظهره وكأنه يخبأ شيئا ما،وشاور لماريا لكى تدخل.

لبت ماريا طلبه ودخلت،فأخرج من وراء ظهره شالا شتويا غاية فى الجمال مزيجا من اللون الأخضر الغامق واللون الأسود،ووضعه على كتف ماريا

فقالت ماريا فى دهشة:ما هذا،يا عم إقبال

إنها هدية صغيرة جدا لفتاة جميلة جدا،هدية صنعت فى بلادى،تشبه جمالها وتحمل بين فتيلاتها رأئحة ترابها.

وما المناسبة؟!

لقد شاطرتينى حزنى واليوم آريدك أن تشاطرينى فرحى وسعادتى.

هتفت ماريا مهللة:الأمر يتعلق بهينا أليس كذلك؟

بلى يا إبنتى،منذ الخلاف الآخير الذى حدث بيننا وقد تركت المنزل وذهبت لكى تسكن مع حبيبها،كدت أن أفقد حياتى بسبب ذلك،بت خائفا أن تضل الطريق وتغضب الله ولكن هذا البلد يمنعنى من أن أمنع إبنتى من الوقوع فى الخطأ فلم أجد سوى بيت الله ملجأ لى فإعتكفت فى المسجد داعيا الله أن يعيدها إلى سالمة وأن يرشدها إلى طريقه،قبل أن تضيع ولا ينفع الندم بعد ذلك،ومنذ ثلاثة أيام عند منتصف الليل سمعت طرقات متسارعة على باب المنزل فإستيقظت مفزوعا من النوم،لأقول:من الطارق.

ليأتى صوت هينا مرتجفا خائفا وهى تقول:أنا هينا يا أبى أرجوك أفتح الباب.

إرتخت أعصابى أثر سماعى لصوتها وظللت أبحث عن مكان فقل الباب بتوتر وكأنى لم أفتحه قبل هذه المرة،كنت مثل الرجل الأعمى الذى فقد عصاه فأصبح يتلمس بيده كل شىء حتى يصل إلى الشىء الذى يريده.

ففتحت الباب لترتمى فى أحضانى خائفة،مرتعشة الجسد بعضا من ملابسها ممزق وهى تقول بصوت متقطع:إحمينى يا أبى،هذا العالم سىء للغاية،كنت على خطأ وأنت محق.

فأحتضنتها،دون أن أسألها ماذا حدث،كانت فقط الدموع هى الضيف الغير مدعو فى هذه اللحظة فقولت لها لا تخافى يا عزيزتى أنا بجوارك.

كنت أعلم أنها إن وقعت فى الخطأ فهذا خطأى أنا وليس خطأها أنا المجرم وهى الضحية وإن كان أحدا لابد أن يعاقب على خطأها فهو أنا،وبعدما هدأت حكت لى ما حدث،فالشخص التى كانت تحبه وتركت المنزل لأجله،حاول الإعتداء عليها،لم يكن يحبها كما كانت تحبه بل كان يريد أن يغتصبها،كانت تريده زوجا وكان يريدها عشيقة،كانت تريده فى العلن وكان يريدها خلف الأبواب الموصده.

تركتها تقص كل شىء ،وكأب خائفا على إبنته وكرجل غيور خائفا على شرفه،كان فى عيناى سؤالا لم أجرو على طرحه:هل حصل على ما يريد؟

ولكنها قرأته فى عيناى فبادرتنى،قائلة:لا تخاف يا إبى ركضت إلى حضنك قبل أن يلوثنى هذا العالم.

لقد إستجاب الله لدعواتى يا إبنتى وعادت إلى هينا دون أن يخطف أحد لونها الأحمر الجميل عادت لتخطب حياتى بألوان الفرح.

قالت ماريا بالكثير من الفرح :أنت رجلا طيب يا عم أقبال،ولن يكسر الله بخاطرك مطلقا.

***

بدأت ماريا تحضر نفسها للسفر إلى بافلو حتى تباشر قضية أيهم وبدأت والدتها فى تحضير حقائبها للإنتقال من البيت إلى بيتا آخر قد إشتراه والدها لنعيش فيه سينتقلوا إليه الأسبوع القادم،إن الأسبوع القادم حافلا بالتقلبات عليهم وإما أن تاتى هذه التقلبات بالخير لهم وإما أن تغير شيئا بداخلهم إلى الأبد فشعور الغربة بدأ ينمو فى نفس والدة ماريا فبعدما تأقلمبت على هذا البيت هاهى تتركه ليكون عليها مشقة التأقلم مرة أخرى،وماريا أما أن تنتصر فى هذه القضية و تحمل هذه التقلبات سعادة بداخلها وأما أن تخسرها ويتحطم شيئا بداخلها،فكرت ان تتصل بآدم حتى

تتأكد إن كان مازال ثابتا على موقفه وسيأتى للشهادة لصالح أيهم، أم لا فشهادته هى الورقة الرابحة فى هذه القضية التى ستبنى عليها مرافعتها،إلا أنها تذكرت كلامه بألا تحاول الإتصال به فخافت أن تكون شكوكه فى محلها وتتسبب دون قصد فى أن يحدث له مكروه.

سمعت ماريا صوت جرس الباب الذى أوقف تفكيرها فهمت لتفتحه حدث هذا فى حوالى الساعة العاشرة والنصف مساء وعندما فتحته وجدت شخصا غريبا لم تراه من قبل ثم قال هذا الشخص:هل الآنسة ماريا موجودة

أجابته بإستغراب:نعم،أنا ماريا

فقال لها هناك طردا بإسمك

طرد بإسمى،هل أنت متأكد!!

نعم،هذا هو العنوان المكتوب،أرجو التوقيع بالإستلام

وقعت ماريا كما طلب منها ساعى البريد،وهى تنظر إلى الطرد بفضول شديد

فتحت ماريا الطرد فوجدت بداخله رسالة فبدأت بقرأتها حتى تستدل على صحابها،وبعد لحظات صاحت بصوت عالى،يالله،هذا مستحيل،وبدأت تركض إلى الخارج،فى هذه اللحظة كان ابيها وأمها وأخيها على عائدين فسحتهم حيث أنها لم توافق على الخروج معهم لإنشغالها بقضية أيهم

ثم بدأو بالركض ورأها وهم ينادوا عليها بفزع، كانت ماريا تركض مرتعشت الجسد كالمجنونة لا تصدق أن ما قرأته صحيحا إلى أن وصلت إلى بيت جاك فأخذت ترن الجرس بسرعة كالمجنونة فلا يجيب أحدا لذا طرقت بيدها على الباب فلم يرد أحد أيضا فأمسكت مفصل الباب محاولة فتحه فوجدته مفتوحا،فركضت إلى الداخل:وهى تنادى بصوت لاهثا مختنق خوفا:سيد جاك،أين أنت يكفى مزاحك الغليظ.

ولكنه لم يجيب.

فبدأت بفتح غرف البيت واحدة تلو الأخرى فلم تجد شيئا إلى أن فتحت غرفة،

إتضح أنها غرفت نومه ،فصرخت فى هذه اللحظة بصوت خائفا مرتعشا، وصلت عائلتها إلى بيت جاك:فإرتمت ماريا فى حضن أبيها فهتف بذعر:ماذا بك يا ماريا،ما الذى آت بك إلى هنا.

فشاورت ماريا على غرفة نوم جاك وهى تهتفت بتلعثم:السيد جاك مقتولا فى غرفته.

فهتف بزعر:ماذا؟!!

فصرخت والدتها بزعر بينما لبث على صامتا

ثم فتح الباب ليجده ملقاه على سريره غارقا فى دمائه مقطوعة شرايين يده

أبلغ والدها الشرطة، التى جاءت بعد عشرة دقائق تقريبا وبدأت تحقق فى الموضوع،دخلت بيت جاك لكى تعاين موقع الجريمة وبعد مسحها لموقع الجريمة لم تجد أى آثار لجريمة قتل إلا شفرة حادة ملقاة بجوار الجثة لذا إشتبهوا أنه إنتحار وليست جريمة قتل .

أخذت سيارة الإسعاف جاك وإلتفت الناس حول منزله،وهم يتهامسون ويتسألون من الذى قتله؟!

فسأل الضابط الذى يحقق فى القضية من الذى إتصل بالشرطة

فقال والد ماريا:أنا من إتصل بكم

من أنت؟!

محمد علام الملحق الإدارى بالسفارة المصرية.

حسنا سيدى لابد أن تشرفنى فى مكتبى حتى تدلى بأقوالك.

بالتأكيد،لكن هل من الممكن أن آتى فى الصباح؟

يمكنك ذلك.

بدأت الأعداد الغفيرة الملتفه حول منزل جاك فى التفرق والدخول إلى منازلهم بعدما ذهبت الشرطة،ومن بينهم والد ماريا الذى ذهب لكى يطمئن عليها ويجد منها تفسيرا لما حدث.

فهتف بغضب ممزوجا بخوف على إبنته:ماريا هل تقولين لى تفسيرا لما حدث الآن؟!

فأوقفت ماريا البكاء وقالت له بصوت مبحوح:أنا لا أجد تفسيرا يا أبى لما حدث ثم بدأت تقص على والدها ماحدث بينها وبين جاك منذ أن تولت قضية أيهم،والطرد الذى جاء لها بينما كانوا نائمين،ثم أعطته الرسالة الموجودة بهذا الطرد فقد كان ذلك الطرد من جاك شخصيا.

قرأ والدها الرسالة فأصابه الوجوم ثم هتف فى دهشة أيعقل هذا؟!

فقد كان مكتوب فى هذه الرسالة"أعلم جيدا يا ماريا أن تكرهيننى كثيرا،ربما أنا أكثر شخصا فى الوجود تريدينه أن يختفى من أمامك وكأنك لم تقابليننه،لقد قمت بإخافتك كثيرا، ولكننى صدقينى لم أستطع أن أسبب لك الأذى مطلقا،لانك تشبهينها كثيرا حتى فى كرهك لى،كانت تظن أننى شخصا سيء قاتل للأطفال سارقا لأرضها وهذا السارق الشرير يمكنه أن يسرق أى شيئا فى هذه الحياة إلا سرقة قلبها لم تدرى أن هذا السارق لم يسرق شئا بل هى السارقة المحترفة التى سرقت منه كل شيء لم تعلم أن هذا القاتل كانت جريمته الأولى هو حبها وجريمته الثانية أنه أراد لها أن تحبه،أن تكون ملكه للأبد حتى وأن كان ذلك بالقوة،ذلك الفتى العشرينى لم يكن يدرك أن الحب لا يأتى عنوة وأنه يهوديا إسرائيلى وهى مسلمة فلسطينة قد تلتقى السماء والأرض ولكنهما لن يلتقيا مطلقا.

ولكننى يا ماريا كنت يهوديا حقا ولكننى لم أكن قاتلا ولا سارقا لأرضها،فأنا يهودى أمريكى لم أرد الهجرة إلى إسرائيل مطلقا ولكن والدتى كانت تحلم بالوطن اليهودى كانت تؤمن بكل ما يؤمن به كل الإسرائيليين،بأن فلسطين هى أرض اليهود،ولذا وضغطا منها جئت لأعيش فى إسرائيل،كانت فترة إقامتى هناك سنة تقريبا كرهت فيها ما يفعله الجيش اليهودى من تدمير وقتل،أطفالا تقتل وأمهات ثكلى صرخات وصرحات كل يوم صرخات تلقى الرعب فى قلب الإسرائيليين وتعلن لهم أنهم مهما فعلوا فهذه الأرض لن تكون ملكهم،هذه الأرض تلعنهم بعدد ذرات الدماء التى نزفت من أبنائها،أردت أن أعود إلى أمريكا دون رجعة ولكننى إلتقيت بميلاء،ووقعت فى غرامها مع أننى أعلم أنها فلسطينية لكنى وقعت فى غرامها حاولت أن أبتعد عنها لعلمى بمدى كره الفلسطينون لليهود ولكننى لم أستطع،كنت أراقبها من بعيد،أسير ورائها دون أن تعلم كنت مأخوذا بها وبجمالها الغجرى كانت كالوردة التى زرعت وسط أرض مفخخة بالألغام ولكن هذه الألغام لم تخطف رونقها ولم تسرق رائحتها،فوقعت فى غرامها على الرغم من كل ذلك،ولكنها لم تقبل حبى وكيف لها أن تقبل حبى وهى لا تقبلنى؟! ظللت أتوسل حبها،حاولت أن أجعلها تدرك أننى لست سيئا إلى هذا الحد،ولكنها كانت لا تستمع مطلقا إلى أن عاقرت الخمر حتى أنساها كنت أشربه بشراهة أشربه حتى أسقط مغشيا على وهى لا تسقط من قلبى،إلى أن جاء هذا اليوم المشؤم فكنت كنت أنوى إغتصابها تحت تأثير الخمر أردتها أن تكون ملكى صدقينى قولت الكثير من الكلام تحت تأثير المخدر وكأننى كنت وأن الكاره للصهيونية أحد خطبائها المفوهين ولكنها قامت بقتل نفسها إثر هذه الخطبة الهوجاء ،هذه الحادثة جعلت منى شخصا لا أعرفه شخصا يكره كل شىء يكره نفسه ويكره العرب،يريد أن ينتقم منهم كان كل العرب بالنسبة لى ميلاء تلك الفتاة التى حولنى كرهها لى

إلى شخصا سيىء،بعد هذه الحادثة قررت ترك إسرائيل إلى الأبد فلم تكن سوى قبرا لى،تركت إسرائيل ولكن ميلاء لم تتركنى،كانت معى فى كل نفس أتنفسه فى هذه الحياة لم أنساها لأتذكرها،وعندما إلتقيت بك كنت تشبهينها تماما لذا قمت بمضايقتك وفعلت ذلك مع كل من أشعر أنه عربى،ولكننى لم أستطع أن أسبب الأذى لأحدا منكم حتى شيطانى لم يستطع أذيتكم ،فعلت كل شىء سىء كى أن أنتصر لقلبى،أنتصر لحبى،ولكنها كانت فى كل مرة تتركنى مهزوما ملقاة على قارعة الطريق.

الأمر أستغرق منى خمسة عشرة عاما لأدرك أننى لم أكرهها يوما بل كل يوم كنت أحبها أكثر،إستغرق الأمر منى خمسة عشرة عاما لأدرك أننى لم أكن أنتقم منها بل من نفسى،إستغرق الأمر منى خمسة عشر عاما لأدرك أن كل الطرق التى سلكتها للحصول عليها كانت طرقا مسدودة لا تفعل شيئا سوى إبعادها عنى وأن هناك طريقا واحد منيرا هذا هو الطريق الذى سوف أجدها فيه فاتحة زراعيها،إنه طريقا لن أضل إذا سلكته،إنه طريق حب الله الواحد الأحد ،لذا "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله" أقولها بقلبا خالصا لله،أقولها لأصل بها إلى الله،لقد وجدت الله بين صفحات هذا المصحف،فمن حسن حظى أننى أجيد العربية،لأن والدتى يهودية عربية لذا فى اليوم الذى تركتك فيه عندما أظهرت لك كم أنا شخصا سيء أمسكت بهذا المصحف فقمت بفتحه لتقع يدى على سورة ياسين،حيث يقول الله تعالى،بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ "ياسين والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على سراط مستقيم تنزيل العزيز الحكيم لتنزر قوما ما أنذر أبائهم فهم غافلون،لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون"صدق الله العظيم.*

ألقت هذه الأيات الرعب فى قلبى فقد شعرت أنها موجهة لى بت أتصبب عرقا أردت أن أختفى أن أهرب من الله ولكن لا هروب من الله إلا إليه،لذا

عقدت النية على الإسلام دون إرتداد،أردت أن أذهب إلى الله دون رجعة،وأنا أعلم ما العواقب التى ستواجهنى،لكن كل شيئا رخيص أمام القرب من الله حتى الحياة.

لذ أريد أن أعترف لك بكل شيء فإن كنت أنت الوحيدة بعد الله الذى أطلعتك على إسلامى فأنت الوحيدة أيضا التى ستكونين شاهدة على إعترافى هذا لعل الله يغفر لى ذنوبى فما لا أحد يعلمه أننى لست صاحب مصنع الأدوية بل مجرد صورة زائفة،ومجموعة أوراق عليها إمضائى ولكن صاحب هذا المصنع شخصا مجهول حتى أنا لا أعرفه مطلقا،ولكى أثبت أننى سيء وافقت على إمتلاك هذا المصنع حتى وإن كان يصنع المخدرات ولكننى منذ وقت قريب شعرت أن هناك شيئا مريب وأن صناعة المخدرات ليس الجريمة الوحيدة التى تتم فى هذا المصنع فقد إنتابنى الشك أن هذا المصنع ستارا لشيء خطيروموضوع المخدرات لم يكن سوى فخا للفريسة وخصيصا عندما تكون الفريسة عربية فإذا علمت بموضوع المخدرات ووافقت على العمل من الممكن أن توافق على شيء أكبر إننى لا أدرى ما هو ولكننى أشك أنه تجنيد الشباب العربى للعمل لصالح إسرائيل،ولكن آدم وأيهم لم يوافقوا على العمل بصناعة المخدرات،فكيف لهما أن يعملا لصالح إسرائيل؟،ولكنهما لم يكونا مهمين بالنسبة لهم كانوا سيتركونهما وشأنهما لولا أن هددا أنهم سيخبران الشرطة عنهم،مما جعلهم يلفقوا لآدم قضية قتل ويهددونه أنه لو فكر فى أن يؤذيهم سيكون حكم على نفسه بالموت وفى النهاية إستغلوا نقطة الضعف هذه فى جعل آدم يضع

---

*سورة يس من الآية(١:٧)

حبوب المخدرات فى صيدلية أبيهم،ستجدين فى هذا الطرد قرصين مدمجين سيثبتان براءة أبيهم وآدم من جريمة القتل والإتجار بالمخدرات،فلحسن الحظ أنهم يعلمون مدى كرهى للعرب فكلفونى بإتمام هذه المهمة وأنا لا أفعل شيئا إلا أذا قمت بتسجيله.ولكننى الآن أصبحت خطرا عليهم بسبب إسلامى المفاجىء لذا فحياتى معرضة للخطر لإننى الأن بالنسبة لهم كخيل الحكومة الذى تقدم فى السن لذا يجب رميه بالرصاص،لكننى لست نادما على ذلك فلعل هذا سيجعلنى أقابل الله قريبا وعندما أقابله سأطلب منه أن يجعل ميلاء زوجتى فى عالم الأبدية هناك سأطلب منه أن يجعلها تحبنى لو ذرة مما أحبها،أليس غريبا حبها حينما يجعلنى أضل الطريق ثم يهدينى،أليس غريبا حبها حينما أركض ورائه لأرتقى لحب الخالق.

كانت مثل القديسة التى جعلت من قلبى الكافر محرابها،ظلت تتلو ترانيمها بداخله فيهتز ويرتجف إلى أن خر ساجدا ليضع رأسه على الأرض فترتفع روحه للسماء

أقول لك شيئا آخر كنت أحب الرسم كثيرا وأريد أن أصير بيكاسو هذا العصر ولكن منذ أن قررت رسمها ضاعت ريشتى فى ملامحها وكأن ريشتى وقعت فى غرامها مثلى فلم تستطع أن ترسم غيرها فكلما قررت أن ترسم شيئا ظهرت هى على الورق لذا كانت هى آخر وجها غازلته ريشتى،ستجدين لوحة لها فى منزلى أرجو منك الإحتفاظ بها.

لكن هل يا ماريا سيقبل الله توبتى؟!!

إذا تذكرتينى يوما ما إقرئى لى لو آية من القرآن من هذا المصحف الموجود بالطرد،فهذا مصحف ميلاء فلم أجد خيرا منك حافظا له.

وبهذ الطرد أيضا يوجد عقد ببيع هذا البيت لك،ويوجد أيضا عقد بيع عمارتى الموجودة فى بافلو إلى أبهم ونضال تلك الفتاة التى إكتشفت مؤخرا أنها زوجته قولى لها تسامحنى على ما فعلته بها وأنت أيضا سامحينى.

إذا وصلك هذا الطرد فإعلمى أنه قد تم قتلى.

أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه.

عندما إنتهى والد ماريا من قرأت الرسالة خيم الصمت عليهم جميع،فلم يستطيعوا أن يصدقوا ما حدث.فهتفت والدة ماريا فى غير تصديق:لا إله إلا الله،ربى أدخله فسيح جناتك.

ثم قال والدها:لقد عشت فى هذه الحياة كثيرا وفى كل مرة أظن أنى فهمتها ولكنها فى لحظة تعيدنى جاهلا،فى كل مرة ظننت فيها أن الحياة فقدت القدرة على إدهاشى عادت وأدهشتنى.

لم ينم أحدا منهم فى هذه الليلة حتى جاء الصباح فذهبت ماريا ووالدها إلى مغفر الشرطة لتدلى بشهادتها ثم قال لهما الضابط أن تقرير الطب الشرعى أثبت أنه إنتحارولبس جريمة قتل

فهتفت ماريا فى حزم بل جريمة قتل ظهرت على أنها إنتحار.

وما الدليل لديك على ذلك

هذه الرسالة.

أخذ الضابط الرسالة منها وقام بقرائتها وعندما إنتهى قال لها: أنه سيعرضها على الطب الشرعى لكى يتأكد أن هذا خط الضحية،إلا أن ماريا أخذت وعدا من الضابط أنها ستأخذ هذه الرسالة مرة أخرى،لانها دليلا قويا فى صالح موكلها.

وقد وافق على ذالك.

***

مر خمسة أيام على قتل جاك إستمرت فيها تحريات الشرطة حول الجريمة،فقد ذهبوا إلى المصنع ولكنهم وجدوه كالكهف المهجور تحطم كل ما فيه حتى أنهم لم يستدلوا على أحد مما كانوا يعملوا به كأن كل هذا نوعا من الخيال العلمى أو أن هؤلاء الأشخاص تبخروا فى الهواء لذا أكدت الشرطة أن جاك هو مالك هذا المصنع وليس كما قال فى رسالته أنه مجرد صورة،وبعد كل هذه التحريات التى لا تثبت وجود لجريمة قتل فأغلقت القضية على أنه إنتحار،فإستلمت ماريا بيته الذى تنازل لها عنه،إلا أن ما كان يشغل بال ماريا منذ وقوع الجريمة هو أنها لم تتعرض لأى محاولة قتل على الرغم من كل ما عرفته،ولكنها تذكرت أنه كل ما لديها من معلومات لن يدينهم بشىء حتى أن هذه العلومات لم تكشف أحد منهم،حتى أيهم وآدم أصبحو ورقة خاسرة لن تفيدهم بشىء،حتى قتلهم لا يعنى لهم شيئا يكفى ما فعلوه فيهما من عذاب.

عندما إستلمت الأدلة التى تحفظت عليها الشرطة عادت إلى المنزل وبينما هى تسير فى الشارع وقفت أمام بيت جاك أخذت تتأمله من الخارج ،ثم دون أن تدرى إقتربت منه،فسيطر عليها شعور الخوف فتراجعت قليلا إلا أنها أمسكت بمفصل الباب بيد مرتعشه وقامت بالدخول،كان شيئا ما يحركها وكأنها منومة مغناطيسيا فقامت بفتح جميع الغرف التى قامت بفتحها من قبل وكأنها لم تفتحها من قبل فأستوقفتها غرفة مليئة باللوحات المرسومة يبدو أنه كان مولعا بفان جوح وبابلو بيكاسو فالكثير من اللوحات الموجودة هنا لهما وبعض اللوحات يبدو أنه من رسمها طالعت كل اللوحات الموجودة بشىء من الإنبهار،لكن لفتت نظرها لوحة مغطاة بشال من الحرير فقامت بنزع الشال من على هذه اللوحة،فأصيبت ماريا بصدمة جعلها تتراجع إلى الوراء،فقد كانت هذه اللوحة لتلك الفتاة التى ألقت نفسها من البناية

فتلك الفتاة لا يمكن لماريا أن تنسى شكلها فقد كانت تراها كل يوم فى كابوسها المتكرر،فهتفت ماريا وكأنها تعيش ما رأته من سنوات طوال:هذا يعنى أن جاك هو الشخص الملثم الذى رأته يحملها على كتفه ،والمفجع فى الموضوع أن هذه الفتاة هى نفسها أخت أيهم، التى رأت صورتها فى ألبوم الصورة الموجود مع نضال لم تتمالك نفسها إلا وإنهارت باكية إن الحقيقة تتكشف أمام عينها تمنت اليوم لو بإمكانها أن تصب لعناتها علي جاك ولكن ميلاء لم تكن وحدها ضحية هذا الحب بل جاك أيضا ،لذا عزمت على ألا يعلم هذا السر أحد ستحمله بداخلها طوال حياتها قبل أن يقتل جاك كفر عن كل ذنوبه ستدعو له دائما أن يقبل الله توبته ويجمعه بحبيبته فى جنة عرضها السموات والأرض.

وصلت ماريا إلى البيت لتجد المفاجأه الكبرى،تلك المفاجأه لم تصدقها مطلقا،فهتفت فى غير تصديق:يا إلهى هذا بالتأكيد حلم،لا يمكن أن يكون ما تعيشه فى هذه الأيام حقيقة

ففى هذه اللحظة وجدت السيد دانيال والسيدة كاثرين يجلسان مع والديها داخل البيت وعندما لاحظوا مجيئها نظروا إليها وإبتسامة تعلو وجهيهما فوقف السيد دانيال لها ثم قال:إقتربى يا إبنتى.

إقتربت ماريا وهى لا تنطق مطلقا كانت مأخوذة من الموقف فقد كان آخر شيئا تتوقعه أن يقتنع السيد دانيال بحديثها.

ثم جاء صوت لم تسمعه من قبل صوت إخترق الموجودين وقال:يبدو أن هذا العالم مازال به أناس طيبون يفعلون الخير دائما دون مقابل،من كان يظن أن تلك الغريبة الآتيه من بلاد غريبة سترجع لحياتنا البهجة التى إختفت من سنين.

تعلقت عيناى ماريا بالسيدة كاثرين التى تحدث لتوها ثم قالت:يا إلهى أأنت تتحدثين.

لم أكن كذلك قبل زيارتك،ولكن كان لحديثك فعل السحر،لقد أعاد الله إلى صوتى كما أننى إستطعت أن أقف على قدمى كما ترين وفى المستقل سأسير عليها وربما أركض أيضا.

فقال السيد دنيال:لم تستعيد كاثرين صوتها فقط يا ماريا بل إستعدنا حياتنا كلها بفضلك لولاك لكنت مازلت قابعا فى الظلام أقضى على حياتى وحياتها،ولكنك بكل بساطة ونقاء أخبرتينى أن الحياة بإنتظارى خارج هذا المعتقل الذى صنعته بداخلى،أن من كنت أظنه العدو لم يكن سوى الحبيب،الآن سأعيش حياتى حتى أخر رمق وسأذهب كل يوم لأنثر الورود على قبر إبنتى وحفيدتى حتى يأتى ذلك اليوم الذى سأذهب فيه إليهما وحتى يأتى ذلك اليوم لن أدفن نفسى وأنا على قيد الحياة.

إرتمت ماريا فى حضن والدتها وإستمرت بالبكاء الشديد،لم تصدق ما حدث لقد تحققت أمنيتها أخير.

فقال والدها كفى عن البكاء يا ماريا فأنا فخور بك كنت أقول دائما أن أبنتى ستكون رمزا للحب فلم تخيبى ظنى.

فهتف السيد دنيال مباغتا يبدو أن وجودنا أزعجك يا ماريا.

لا تقول هذا سيد دنيال فأن سعادتى بمجيئكما وسع الكون.

نظرت ماريا إلى كل الموجودين،ثم قالت فى نفسها،شكرا يا لله على كل هذا الكرم،يمكننى الآن أن أذهب إلى بافلو لكى أترافع فى قضية أيهم وأنا مطمئنة.

***

(١٧)
تمـــــــرد

كإشراقة الشمس بعد ليل طويل لا تدرى الشمس وقتها أهذه حركة كونية طبيعية أم أنها إنتزعت حقها فى الشروق من ليل شديد السواد،فى هذا المشهد البديع نرى أن الشمس التى كانت منذ فترة وجيزة غارقة فى أحضان الليل ملفوفة بوشاحه الأسود وكأن الليل أدرك كم هى فاتنة فخاف عليها من عين الحاسدين،أو من الممكن أن يكون مارس سلتطه القوية عليها فمنع عنها نورها،دون أن يدرك أن طبيعة الشمس التمرد.

كان هذا حال ماريا التى عاشت ليلا كالح السواد مشتتة تائه تبحث على حكمة الله فيما يحدث لها ،تسير فى طريق مظلم لا تعلم نهايته،ظنت أنها لا تجيد لعبة الحياة التى إنغمست بها دون أن تدرى،بل دون أن تريد،جاهدت لكى تظل ثابتة قوية ولكنها تخاف أن تسقط فى الهاوية دون أن تجد من يأخذ بيدها،ولكنها تمردت على واقعها حاربت مخاوفها،زاد إيمانها بالله فأمد يده إليها ليقول أن هذا الليل الأسود،سينبت منه صباحا مشرقا وهذا الطريق المظلم نهايته نورا ساطع،وأننا نخوض لعبة الحياة حتى ننتصر وطالما الله معنا فلن يتركنا مكسورى الخاطر

سافرت إلى بافلو وهى تتقن لعبة الحياة متسلحة بتوفيق الله، فكل ما حصل معها لا سبب له سوى توفيقه من كان يصدق ما حدث؟أن الخير يولد من رحم ما كانت تظنه الشر،ما حدث جعلها تدرك أنه لا يوجد قالبا لشىء ما وأن الحياة ليس بها شيئا ثابتا وأنا ما نراه خطأ ليس بالضرورة أن يكون كذلك.

لم تأت ماريا إلى مرافعة أيهم فاصاب الجميع القلق حيث أن نضال إستمرت فى الإتصال بها وتعلقت عيناى أيهم بمدخل المحكمة بينما كان آدم قلقا جدا أن يكون حدث لها مكروه،حتى أن القاضى أصابه الضجر وكان سيصدر الحكم بإدانة أيهم دون سماع مرافعة الدفاع،لكن فأجأه دخلت ماريا قاعة المحكمة لاهثة ،فإعتذرت من القاضى مبررة أن هناك دليلا قويا هو من أخرها،ثم قدمت القرصين المدمجين اللذان يحملان بداخلهما برأة أيهم وآدم بما فى ذلك الرسالة التى تدعم ذلك طلب القاضى بفحص المعلومات التى يحتوى عليها القرصين،وقد كانت تحتوى على إعتراف من جاك صوتا وصورة بما فعله معهم كما كانت تحتوى على قضية القتل التى لفقت لآدم حيث أنها كانت جريمة مزيفة والمقتول حيا يرزق كما كانت تحتوى على المشهد الذى يضع فيه آدم الخدرات فى صيدلية أيهم تنفس الجميع الصعداء لما رأوه،وبعدما تأكد القاضى من صحة الأدلة قام بتبرأة أيهم ولم يضع اللوم على أدم لانه كان تحت ضعط وتهديد.

عم الفرح وجوه الجميع فإحتضنت نضال ماريا بقوة،ثم ذهبت نضال إلى أيهم وقالت له لقد إنتصرت فى هذه المعركة ليس لحنكتى فى المحاماة بل لأن بينك وبين الله باب مفتوح هذا الباب دخل النور من خلاله إليك.

فأجابها قائلا:كلامك كله صحيح يا ماريا فجميعنا فاشلون لولا توفيق الله،لكن إن لم يكن وراء هذه القضية محامية تبحث عن الحقيقة،ما كان الأمر بهذه السهولة'شكرا لأنك ظهرتى فى حياتى فى الوقت الذى كنت أحتاجك.

شكرا لله لأنى رأيتك على قيد الحياة أولا وشكرا له أيضا أنك حرا الآن.

وقف آدم بعيدا عن ماريا منكس الرأس فنظر إليه أيهم بينما يسحبه الظابط لأنهاء إجراءات براءته:أنت صديقى وستظل هكذا قف مرفوع الرأس سأخرج قريبا وعندها سأصنع لك كوب القهوة الذى تحبه.

إغرورقت عيناى آدم بالدموع ثم قال:سأنتظرك لا تتأخر.

إقتربت ماريا من أدم و قالت له:آسفة على هذا الكلام السىء الذى قولته فى حقك.

لا تعتذرين فلولا هذا الكلام لما كنت حاربت خوفى.

أتمنى ألا تواجه الخوف مرة أخرى.

لن يفعل طالما بجوارى أشخاص مثلك ومثل أيهم.

إبتسمت ماريا لكلامه دون أن تعلق ثم إستأذنته حتى تذهب وراء أيهم حتى تتمم إجراءات خروجه،وعند خروجها من قاعة المحكمة قابلت البرفيسور ألبرت التى ظهرت عليه علامات السعادة لرؤيتها،فهتف فى فرح:ماريا كيف حالك،مبارك على فوزك بالقضية

الفضل يرجع لك سيدى،شكرا لجعلى اليوم أشعر بالفخر من نفسى.

لا تشكرينى يا ماريا لقد فعلت ما كنت أهلا له.

ثم صمت قليلا وإستمر بالنظر إلى ماريا وكأنه يريد إحتجازها فى عينيه إلى الابد

فأشاحت ماريا بنظرها بعيدا عنه ثم قالت: عذزا سيدى سأذهب الأن

فهتف فى حماس إنتظرى قليلا أريد أن أخبرك بشىء أعلم أن المكان غير مناسب لكننى لم أمتلك الشجاعة لقوله إلا الآن إننى يا ماريا....

فقاطعته قائلة:أعلم جيدا ما تريد قوله،إننى أقدر مشاعرك سيدى أقدرها كثيرا،كما أننى لا أريد أن أجرحك ولكننى أكن لك اليوم إحتراما

كبيرا،فأنت من كنت السبب فى ثقتى بنفسى،أنت أستاذى أرجوك لا تقل كلاما يشوه قدسية العلاقة بين تلميذة وأستاذها.

إبتسم البرفيسور ألبرت إبتسامة يائسة ثم قال:أتمنى لك التوفيق دائما،إذا واجهتك مشكلة فى أى شىء فإعلمى أن هناك شخص سيبذل قصار جهده لمساعدتك.

أعلم ذلك سيدى،شكرا جزيلا على كل شىء فعلته لأجلى،شكرا لأنك أرشدتى إلى الطريق حيث وجدت نفسى،ووجدت ما أريد.

هلا صافحتينى يا ماريا.

إبتسمت ماريا وهى تمد يدها إليه فصافحها ثم طبع قبلة على جبينها وقال لها:شكرا لأنك علمتى هذا القلب كيف يحب حتى وإن لم يكن الحب متبادلا،ثم ترك يدها وذهب قبل أن تتساقط العبرات من عينيه.

وقفت ماريا للحظات تتأمله مبتعدا فإغرورقت عيناها بالدموع وهى تقول:آسفة سيدى لقد سببت لك جرجا دون قصد.

أنهت ماريا إجراءت الإفراج عن أيهم لتجمعه بنضال مرة أخرى،فمنذ أن تعرفت ماريا على نضال وهى لم تراها بهذه السعادة وكأن إمساكها بيد أيهم جعلها تحلق فى السماء فقد عاد إليها حبها بعدما ظنت أن الحياة أخذته منها.

همت ماريا بتركهما والذهاب فقد أنهت مهمتها آخيرا،إلا أن نضال إستوقفتها قائلة:ألن تأتى معنا إلى الشقة.

بكل تأكيد لكن هذه المرة لن آتى كمستأجرة،بل سآتى إلى بيت أخى،لكن الآن هناك شيئا مهما لابد أن أفعلة الآن.

فقال آيهم سنتتظرك فأنا لدى الكثير من الكلام لأقوله لك.

سآتى بكل تأكيد.

لم تشعر ماريا بكل هذه السعادة قبل هذا اليوم فقد كانت تسير على أقدامها إلا أنها كانت تحلق عاليا وكأن الحياة تعزف لأجلها سنفونية لبتهوفن ،فأرادت أن ترقص عليها لقد إنتصرت على خوفها وأنقذت صديقها،ظل هناك شيئا آخر هذا الشيء خاص بها لقد سجنته بداخلها طويلا وآن له أن يرى النور. فأخرجت هاتفها من حقيبتها وإتصلت بشخص ما،وعندما فتح الهاتف قالت :ألو

ليهتف صاحب هذا الرقم بفرح:قولى لى أننى أحلم

كنت أظن أن الحلم هو الغريب وإتضح لى أن الواقع هو الأغرب.

بعدما سمعت صوتك،يمكننى أن أموت بسلام

وماذا عن الحياة التى سنعيشها سويا

أخاف على قلبى

مما

من كل هذا السعادة

لا تخاف عليه،فالسعادة ليست مخيفه وحده الحزن مخيف.

أين أنت الآن سآتى لك على بساط سحرى لأخطفك لمكان يشبه الأحلام.

فى المكان الذى جمعنا للمرة الأولى.

ألا تخافين منه الآن؟

الآن ليس فى قلبى سوى الحب.

أغلقت ماريا هاتفها وهى فى حالة فرح كبير،وكأن كل هذا العالم يغنى لأجلها وكأنها ليست فى هذه الأرض،أيمكن أن يكون هذا حلم ؟!

أتى الدكتور عبد الرحمن لاهثا وكأنه قطع كل هذه المسافة سيرا على قدميه أتى وهو فى عينيه شوق لا يوصف وحب غمر قلبه سعادة.

أوقف ركضه عندما رأها ثم قال:أأنت حقيقية أم أنك تلك الصورة التى أرها دائما فى مخيلتى.

لا أدرى ربما نحن فى واقع يشبة الحلم أو فى حلم إخترق واقعنا.

أتعيشين معى هذا الحلم.

شأعيش معك فى أحلامك وفى واقعك.

حبك يخيفنى

لماذا؟

إعتد الفقد ولن أتحمل فقدك

وأنا لن أتحمل رؤية الدموع فى عينك

هل تقبلين الزواج بى.

لقد قبلتك زوجى منذ أن رأيتك لاول مرة.

سارت ماريا مع دكتور عبد الرحمن وهى تحدث نفسها وقائلة:لقد تعلمت فى الأربعة أشهر هذه ما لم أتعلمه، طيلة حياتى فاليوم وجدت ضالتى، ووجدت حبى سأمسك بديه دائما وسأحاول أن أعوضه عما رأه فى حياته،لن نعيش الحياة بسعادة دائما حتما ستواجهنا الكثير من المشاكل والعقبات ولكننا سنحلها معا سيقف حبنا أمامها سيكون حبنا ثابت مهما تغيرت الفصول سنحافظ عليه مهما تقدم بنا بالعمر،سأحب التقدمم بالعمر طالما معه وعندما ننجب طفلا ساعلمه دائما أن يحارب لأجل حقه لأجل دينه سأقول له أن طريق الله هو الحب وأن الحياة لها العديد من الوجوه لا تخدعك طيبتها ولا تأمن غدرها لكن لا تكون ناقما عليها فقط أعطها حجمها الحقيقى،وحجمها الحقيقى هو أن تعيشها ،سأقول له أن ينشر الحب والسعادة أينما ذهب فالسعادة ليست خائنة حتما ستأتى لك مرة أخرى

سأقول له أنه ولد فى أمريكا حقا ولكنه عربى من أب عراقى وأما مصرية.

فى يوم من الأيام سنعود حتما إلى أوطاننا سنعود حتما إلى حيث ولدنا إلى المكان الذى سمع أول صرخة منا فى وجه الحياة وإلى أول ضحكة كانت تحمل براءة طفل لا يعلم ما تخبأ له ،سنعود حتما إلى حيث حبينا لأول مرة إلى حيث وقعنا ووقفنا حتى إنتصب ظهرنا وتعلمنا السير،سنعود حتما إلى أوطاننا عندما يكف المسلمون والمسحيون عن التناحر فى مصر،سنعود عندما تخمد نار الحروب الأهلية فى لبنان،سنعود عندما يتحد الشيعة والسنة فى العراق ويقفوا يدا واحدة فى وجه من دمرهم ودمر بلادهم ،سنعود عندما يكف حزب حماس وفتح عن النزاع فى فلسطين ويحاربوا الإحتلال الخائن، سنعود عندما لا توجد حروب أو دمار أوقتل سنعود عندما نرفع أسلحتنا فى وجه الطغاة وليس فى وجه بعضنا البعض.

حتما سنعود يوما ما..

ماريا محمد علام.....

الخاتمة